يخوض ريبر برهافة الشباب وانفعالاته عالم الطبيعة بتنوعها وغرابتها ودهشتها، بأشيائها وأرواحها، بإنسانها الذي يأتلف أو يختلف، ببحثه الدؤوب لا عن فهم طبائع النفس البشرية فحسب، بل عن إيجاد مكانه في هذا الكون المترامي إلى ما لانهاية، والمضطرب إلى درجة الرعب والتشكك بحقيقة ما في هذه الحياة من قيم وجمال..

الناشر

ريبر هبون

أطياف ورؤى

نصوص ودراسات

ريبر هبون

أطياف ورؤى

نصوص ودراسات

بحثت عنك في الخرائط
والكواكب، ولم أجدك،
دموعي تتذكر خطواتي
باتجاه الحرية، آثار الوحل
..، غزارة المطر،وألغام
الحدود، وأسلاكها،
آهاتي التي لا تنتهي،
بعيدة عني ،وأنا أشتعل
كدولاب محترق في ليلة
نوروز فوق تلة مشتى
النور، أسير إلى الموت
ولا أرى الحياة سوى في
جبالك البيضاء، أشعر
بك ،أزداد قلقاً كصقرٍ
وحيد جريح..
رجاءي ألا تحزني ...
رجاءي أن تبتسمي...
يا وطني..

ريبر هبون (ريبر عادل أحمد)
كاتب كوردستاني (سوري)
مواليد مدينة منبج- 1987م
صدر له مجموعة شعرية بعنوان: صرخات الضوء
وأعمال أخرى لم تطبع بعد:
الحب وجود والوجود معرفة (فكر)
دلالات ما وراء النص في عوالم الكاتب السوري محمود الوهب (نقد)
مجموعة شعرية باللغة الكوردية (şanoya Hestan)
عمل على تحرير صحيفة الحب وجود والوجود معرفة الإلكترونية
له عشرات المقالات والدراسات الفكرية والأدبية
البريد الالكتروني:
reber.hebun@gmail.com

ISBN 978-9933-577-09-4

أطياف ورؤى

أطياف ورؤى

المؤلف: ريبر هبون

تصميم الغلاف: خالد الوهب

الطبعة الأولى: 2017

نون 4 للنشر والطباعة والتوزيع

المنشية القديمة – حلب – سورية

خليوي: 00963944889078

00905372864656

هاتف: 00963212121332

بريد إلكتروني: m-wahab45@hotmail.com

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

ريبر هبون

أطياف ورؤى

المحتويات

المحتويات..... - 5 -
مقدمة ..... - 8 -
هبون.. ملحمة الوجود المشتهى..... - 13 -
إبحار في مدار الحلم..... - 15 -
ذات حب ..... - 17 -
مذكرات الجوع..... - 19 -
وجع الكلمة ..... - 21 -
البكـاء..... - 24 -
الجري هو المـلاذ..... - 26 -
سيمفونية الجنس الناقصة..... - 28 -
الحب إرادة الجمال..... - 29 -
الحرية..... - 30 -
الحـزن..... - 31 -
الحنين ..... - 33 -
الخـير..... - 35 -
الرفض ..... - 37 -
السعادة..... - 38 -
الشتاء..... - 39 -
الصمت!..... - 41 -
العمر..... - 43 -
العناق..... - 44 -
الكآبة..... - 45 -
الهدوء ..... - 47 -

الوجود..... - 49 -
إيقاع الحيرة ..... - 52 -
أيها الظل..... - 56 -
تخبّطات..... - 58 -
تنافر ..... - 61 -
إطلالة الروح..... - 64 -
جسد ..... - 66 -
حوار بين غني وفقير..... - 67 -
صرخات ..... - 69 -
طموح امرأة عاشقة..... - 71 -
عبور..... - 72 -
فراغات..... - 74 -
نصوص قصيرة جداً..... - 75 -
كلمة جديدة..... - 84 -
ما قبل العودة..... - 86 -
مفكرة عاشق من كوباني..... - 88 -
منغّصات..... - 89 -
استراحة فرح ..... - 90 -
نداءات امرأة..... - 92 -
نداءات مجنونَيْن ..... - 94 -
نسيان..... - 98 -
نقص ..... - 99 -
هاجس الغد..... - 102 -
وقفات اعتبار ..... - 104 -
ومضة ضجيج ..... - 106 -

هواجس قلب..... - 108 -
مــوت..... - 111 -
شيء يشبه الحلم ..... - 112 -
تلميذ الجحيم ..... - 115 -
شريط دخان لامرأة غيمية..... - 118 -
سماء الفرح..... - 120 -
ذات جنون..... - 125 -
جوقات كوردستانية ..... - 134 -
ما وراء النص ..... - 145 -
قراءة نقدية في النظرة الإسلاموية لدى الكاتب وحيد راغب ..... - 147 -
مفهوم الإرادة والتحرر في فكر البارزاني..... - 151 -
المنهج المعرفي في كتاب (الأمير) لنيقولا مكيافيلي..... - 156 -
التساؤل في حضرة الذاكرة في أدب الشاعر مصطفى النجار..... - 161 -
تأملات نقدية في عوالم الروائي والمسرحي راهيم حسّاوي..... - 166 -
دراسة حول قصة الطوفان الأسود للقاص مامد شيخو ..... - 190 -
البعد الملحمي في مجموعة (إلا إليك) للشاعر محمد بشير دحدوح - 198 -
دلالات الرمز في أدب الشاعر أدهم الدمشقي..... - 202 -
رمزية اللغة في أدب الشاعرة مرشدة جاويش..... - 206 -
عذوبة النص الشعري في أدب الشاعرة غزال ابراهيم خضر..... - 214 -
منهج الحكمة عند الأديبين "لقمان محمود" و "وحيد راغب" ..... - 217 -

مقدمة

ألوان الجمال، وحكمة الفكر..!

محمود الوهب

إنه الكتاب الثاني للكاتب متعدد المواهب ريبر هبون إذ صدر له "صرخات الضوء" عام 2016 وهو ديوان شعر غني بأشكال الشعر وتفعيلاته، كما هو غني بموضوعاته وبصوره الشعرية، وبانطلاقته الحرة أيضاً، وإذا كان الشعر يكتنز المشاعر والعواطف، ويصور أكثر مما يفصّل، فإنَّ هذا الكتاب الذي أسماه ريبر "أطياف ورؤى"، يدخل غمار الحياة بعمق: فلسفة وأدباً وسياسة ومجتمعاً.. وإذا كانت مواد الكتاب غير جديدة تماماً، إذ تعود إلى سني الشباب الأول، أيْ إلى حيث مجاهدة الشباب لاكتشاف العالم من حوله، عبر وعي يتكوّن مبكراً، في عالم تسيّره مصالح الأقوياء ظلماً واستعباداً مغلفين بـ: "ذكاء" شرير، وخبث بشري مطعّم بألوان الإيديولوجيا، تسويغاً لابتلاع القهر وإغماضاً للعين عن إسالة الدماء..!

يخوض ريبر برهافة الشباب وانفعالاته عالم الطبيعة بتنوعها وغرابتها ودهشتها، بأشيائها وأرواحها، بإنسانها الذي يأتلف أو يختلف.. ببحثه الدؤوب لا عن فهم طبائع النفس البشرية فحسب، بل عن إيجاد مكان له في هذا الكون المترامي إلى ما لانهاية، والمضطرب إلى درجة الرعب، والتشكك بحقيقة ما يتغنى به الإنسان من قيم وجمال! عن مكان يريحه مما يعتري الخافق بين جناحيه من قلق ومعاناة، قلق يأتي من الإنسان لا من غيره.. قلق يتولَّد من تناقض القول والفعل، من أقنعة للخير وإيحاءات بالجمال ترسمها الشعارات، وتسحقها الأنا القاتلة.. وتسحق معها روح الكاتب الذاهبة براءتها إلى ترسيخ قيم إنسانية أصيلة.. ومواطن للجمال يأتي بها فن الأدب الراقي.

"أبحث عن ذاتي فيك في عينيك أبحث فيهما عن وطن..!

كل الخرائط وهمية! والجغرافيا أكثر رعباً وسراباً. عيناك كوكبي الذي لا يزول من بين الكواكب ولا تصطدم به المجرات"

ولعل المثال الأقرب إلى روحه في هذا المجال هو وطنه الغارق منذ ست سنوات بالدم والخراب، الوطن الذي ما غادره إلا مكرهاً غارقاً بالأوجاع والأحزان:

"العالم شتاء طويل روسي الصنع يدكُّ شوارع مخيم اليرموك من جذوره، وحتى نهاية أطرافه.. وطائر الحنين مسلوخ، منذ أن انتعل قفاز حنينه المثقوب، وخرج في جنازة السوريين ممزقاً معطفه الرمادي غضباً حتى الجنون وسط برد وثلج معتوهَيْن، العالم درب مليء بحواجز لأمراء الحرب، والرجوع إلى الوطن هو اللغز غير المعلن.."

وإذا كان الوطن حاضراً في نص يبدو لنا حديثاً، فإن المرأة أكثر حضوراً في نصوص أخرى، وهذا طبيعي فمن لديه القدرة على إعطاء تصور جميل، وأحلام مريحة عن الحياة غير المرأة:

"لمن يدرك لوعة الشجن ساعة مغيب الشمس، أكتب له هذا المساء، لمن يدرك آهة الحب في لحظات متأخرة، أدعوه إلى فنجان من الندم الخفيف، لمن تدرك أنها في المكان غير المناسب والزمان غير المتفائل لترقص لوحدها قليلاً في قاعة الانتظار ببيتها، ولتحتفظ ببكارة قلبها قدر الإمكان حتى آتي بلباس فكرة خلاص بذهنها!"

لا أريد الاستشهاد أكثر بما في هذا الكتاب من أفكار مرمّزة صاغها قلم فضَّل الغوص عميقاً وبعفوية مطلقة في لجج الحياة والناس.. ليأتي لنا برؤية معرفية كما يحب دائماً أن يقرن الحب بالمعرفة، وسيلته إلى ذلك عقل مفكر وحساسية مفرطة، ورغبة عارمة في الوصول إلى كل ما هو جميل لائق بحياة الإنسان.

إن نصوص ريبر هي هذه الكيمياء العجيبة، الكيمياء التي تمزج بين الإنسان وعلاقاته سواء في تجلياتها الجمالية حباً وتآلفاً، أم في تنافرها كراهية واقتتالاً مرعباً.. بين جمال الإنسان وجمال الطبيعة.. بين حدَّي الحياة الذكر والأنثى.. إنها كيمياء الحياة.. مزيجها الطبيعي الساحر المزيج

الذي يأتي بأدب عفوي على غير مثال.. أدب لا يشاغل المشاعر أو يثير العواطف فحسب، بل إنه أدب يدعو العقل لاتخاذ موقف ما.. أدب يذكر بأعلام المدرسة الرومنتيكية..

وإذا كان الكاتب في نصوصه الطويلة نسبياً قد كان متدفقاً على نحو عفوي، معبراً عن صخب ذهنه الفكري، وجيشان روحه العاطفي، فإن بعض نصوصه قد جاءت قصيرة تكثِّف فكرة واحدة على نحو تأملي هادئ:

"بدأ يكتب كعاشق، تراوده فكرة، تجافيه جملة، تعانقه عبارة، تهادنه مفردة، هكذا ترك نفسه تحت رحمة الكلمات، فهو طوال عمره يعيش بين، أنياب المعاني يبحثُ عن سبيل يؤوي وحدته."

أما النصف الثاني من الكتاب فقد خصصه الكاتب لقراءاته النقدية.. بدءاً بكتاب الأمير لميكيافلي وانتهاء بحفنة من الشعراء والكتاب المعاصرين محاولاً الدخول إلى عوالمهم الفكرية وأساليبهم الفنية، ربما في ضوء نظريته في الوجود والمعرفة.. وكما في كتابه الأول، فإنَّ القضية الكردية، لا تغيب عن عالمه الفكري فهي جزء رئيس من هواجسه المقلقة! إذ لا يكتفي هذه المرة بالإشارة إلى كوباني أو قامشلو بل يذهب إلى أبعد من ذلك، فتراه يخوض في الفكر النقدي البناء على صعيدي السياسة والمجتمع، للقائد المعرفي (كما يسميه) الملا مصطفى البارزاني.. وإذا كان الكتاب قد جمع نثرات من هنا وهناك في عصر يميل إلى التخصص، فقد كتب في مرحلة الشباب الأول كما أسلفت إذ يكون ميل المرء إلى رؤية كلية للأشياء.

وأخيراً أقول:

إنَّ ما يهم القارئ هو متعة المعرفة وتذوق الأدب، وهما متوفران لكنهما يحتاجان إلى قليل من الجهد للدخول إلى عالم ريبر واكتشاف ألوان الجمال، وحكمة الفكر..!

هبون.. ملحمة الوجود المشتهى

أكتب بشغف كل الكتّاب التواقين لابتداع آية من البلاغة أسمى، ينقشونها على حافة الوجع الثقيل، وهو يمر بوجودية عابرة في أزقة المعنى، ألفظ رحلة ألف الميل، حينما أكتب عن امرأة باتت لي المركز الشاهق، تلتف حولها أحلامي الأولى والأخيرة، المرأة الوطن، الذاكرة، الوعاء الأنيق الذي يحتوي كل المتضادات، كل آلام الحياة وآمالها، وأنا أحتمي بنظرات آسرة تمتدح في الحياة رغم مأساتها، إذ سنكلل أخيراً بمكان يأوي موتنا دون استحياء من إرادتنا وكبريائنا الذي تحدينا فيه الفناء، بشخوصه وملامحه الرقطاء كافة، لا أملُّ من التحدث عن عشقي لك.. الروح التي عانقتني بكل كبرياء، ألقتني في نعيم الحنين والأمل الذي لا يبرح المخيلة كونها تحتوي في أسرارها ضحكات الطفولة وعناوينها البراقة. الكتابة تعبير عن ازدحام عميق لتساؤلات، تنتاب المخيلة والحواس بكل معالم الحنين الأبيض، ترسمنا بحنو لتنقشنا على لوح مزركش حالم، بكل طقوسنا المتممة لجمال الطبيعة في أوج صيرورة الافتتان، تلك الكلمة، تدمن الصمت حتى الثمالة، لكنها بلحظة تفرج عن ألوف الحروف من زنزانتها العميقة المغبرّة، عندئذ يبين الحب ملتفاً بالضوء الكثيف ليخرج بعد صمت عنيد.. فاتحاً ذراعيه لأحلامي وهي تبصر الجمال طريد الإهمال، ولا أحسبني في هذه اللحظة، إلا متبصراً كل وهلة مليئة بخزف اللحظة المشتهاة، لا تحتمل الطيش البارد، أو العبوس الضخم الذي يعربد في الملامح العاقرة، تخفي في متاهها العبث الرخيص.. حالماً يمشي ذلك الحلم، متربصاً بالخيبة، كامناً في لوعة الشوق الذي أحمله فيك، لنهاية الحياة، العالم.. إنني العابر كالظلال، ساخراً من حتفي المحتوم، معلناً خلود الحقيقة التي أبصر فيها نفسي، وما عداه هو الوهم الذي لا يبرحنا، بل يسكننا ونسكنه، ولكن قلما في حياتنا نرتهن للحظة قدسية، كاللحظة التي فيها أكتب لك، أدمن الحب، كما الفكر، كلاهما عزاء أكيد لنفس حالمة تتوق دوماً للتماهي مع الجمال حيث الخلاص المعلن، في جبين الوقت أنقش الحرف في موطن الروح، حين أنغمس

في طيفك الممتلئ بالشعاع، أعوم في مياه المواقف الحانية، وفي كل ثانية أغمس داخلي في حدائق الألفة، أمتحن اللغة في مدى مواكبتها لرهبة النفس في البوح، عالم من الأغنيات يستوطنني في تلك اللحظة المحتمية بكل امتشاق الإحساس، وخلوده في قاع التأمل، ينتمي لكل نفَس هادئٍ، عابر وبشدة النبض، يرفع من جاهزية المعنى، للوصول لذلك الساحل المخضوضر والمعشوشب، لستُ آبهاً للساعة التي ألتقي فيها بنظير البرد، لست آبهاً للياقات المتعبة المتصببة بعرق الفوضويين، أستحم في كل خضرة تفوح من جنان صدرك، فأخرج كائناً ضوئياً يمد ألوانه الجديدة إلى ساحات السماء الرحبة، أرسم العمر، شهيقاً من بنفسج، وزفيراً من أنهار الجبال، أكتب، لأكون لائقاً بتأمل أجمل الصفات الرائقة في حضرة ارتفاع الجبل، وخشوع الوادي، يدنو النسيم الوعر عبر متاهتي، يحتمي بخلود النبض، يعلن في كل لحظة صيرورة العشق الذي لا ينقطع، بل يبقى لائذاً بكل ناي، أو بزق، ينقضّ على السكون المريب، وفق آلية تعتمد على التروي في كتابة نشيد الماء، أزرق ذلك الموج حين يكتوي بحرقتي، يعبر تائهاً، ينشد خطوك المتعب في كل سفح وعر من سفوح وطني الذي يعتصر أسى، حيث يشبهني ذلك العالم الغائر وجعاً، حينما يتسرب من أنابيب الدمع مثل أوشام مائية، تحتكر الحزن الأسطوري..!

إبحار في مدار الحلم

أيها العالم الدائري الغاضب من ألوانه.. ازرع شتائل عنفك في خدود المتعبين، كي يثوروا بقوة على صولجانك الحقير! ليست للروح إلا ألوانها النيرة التي تعشق التحليق في الأجواء، إذ هي تطلق صهيلها لمسافات وأبعاد تليق بسماتها الرائعة! العالم حزن وسطه صمت مدقع، هادئ لا ينقطع صداه يثقب المطر دون رصاص، العالم درب يقرر الانتهاء وعلاماته في جبين الجائعين والمتخمين بالموت حتى النخاع.. العالم شتاء طويل روسي الصنع يدكُّ شوارع مخيم اليرموك من جذوره وحتى نهاية أطرافه.. وطائر الحنين مسلوخ من يوم أن انتعل قفاز حنينه المثقوب وخرج في جنازة السوريين ممزقاً معطفه الرمادي غضباً حتى الجنون وسط برد وثلج معتوهين، العالم درب مليء بحواجز لأمراء الحرب، والرجوع إلى الوطن هو اللغز غير المعلن.. أستيقظ عشقاً من سبات ذلك النوم الثقيل، راح يطارد مدائني المعانية من خضوع القلب للأحقاد. أستيقظ حريقاً من كتل الجليد، تفكر باستمرار أن تجعلني تمثالاً مغمى يعاني من هشيم لا يتحرك. أستيقظ جوعاً من تخمة الموت، من لعنة الوجع من دقيقة حب طويلة تسافر نحو مدينة الرحيل. ونسيم الصباح ينثر غيومه النحيلة على مرأى القمر، راح يرضع من حليب الغيمات التي تناثرت والتصقت بجذوع الأشجار وأوراق الورود.. والوجود رغماً عن تآكله يعزف لنا من جرس الإنذار أغنية العودة للرشد قبل فوات الآوان، وأصابع أقدامنا تتحسس الطرقات بحثاً عن قلوب مؤمنة تدين بالحب وتنتمي للوجود لأجل دوام المعرفة، أكتب عن إيحاء الألم بين ثنايا الابتسامة العريضة متناولاً قضية الحب في مدائن الصخب لاستجرار أي معنى خفي، يعربد هرباً أو تيهاً في ساحة الصبر العبثية.. أتناول سرد تفاصيلها في الملامح فيتوقف تأملي فجأة، أحاول أن أصحو من هذا الشرود المريع الذي أطبق عينيه من هول الصدمة، وقد أثار الخيال في هاجسي فكرة حية خرجت كتظاهرة مقشعرة من ذهني فأثارت فقاعات الحيرة بوجهي.. آه ياهتافات الحنين، وقد عبرت أسراب الهموم بين أحزان

الباب المغلق، وهربت عصافير الضياء خلفي، تركت أمانيها ملقاة على شفتي، استسلمت لنعيق الغربان، أخذت ترسم لوحاتها الحزينة على مدار حلم اغتيل بذاكرتي.. رحت أفتش عن سعادة خارج مستنقع الغبار وتفاؤلاته المريبة، أتابع نبض قلبي مفتشاً عن حبيبة أضعتها عندما عرفتها، ربما حدث خطأ ما، أو إنني أضعت الهدف والنتيجة كانت مبهمة وغير متوقعة، عندما تستدير بنا الجهات يحدث معنا مثل هذا.. عندما يقترب الوهم تجاهنا ليمحو ظلال الحقيقة، يكتب الموت آخر ما تقوله الحياة لنا، فنحن نحتضر غياباً، نفكر بساعات العزلة، تتصدر هواجسنا لنبدو صامتين في حضرة الرهبة وغائبين عن النور في لحظات استنباطنا للفزع.. مع ذلك الحلم الذي يمثل المنقذ الوحيد لنا، الطارق باب الضياء ليخرجنا من صيرورة عدمية حتمية ننتقل بها من الحياة إلى الموت، ومن الموت إلى الحياة، والحياة لا تتلاشى مادامت الحركة..

ذات حب

أعتقد أن المقعد الذي جلسنا عليه يحنُّ لعودتنا بعد هذا البعد، هل سنعيد للشتاء قافلته الضائعة في زحمة الجهات، ما رأيك لو ابتكرنا مشاهد عناقنا من قعر الجحيم!؟ عيناك وطن العصافير المذبوحة فوق الغمام، لم يتركوا الوطن، بل جعلوه، كعينيك مذبوحاً بين أعمدة الحطام، وقد سلبوا من فيء مدافئ العودة، ولم يبقوا غير فتات الجوعى رغيفاً لأحفاد المتخمين.. أنت والوطن شاهدان لم يريا شيئاً، وقد أدمنت موتكما ولم أزل حياً، فيك كل حكايا الجرح العنيد لو تعلمين، فتشت فيك عن معنى لصلاة الناجين من غرق الباخرة، ولم أزل أفتش عن مكامن الدفء، بين الرسائل التي ابتلعها حوت البحر، بين الدفاتر العتيقة الغائصة في الوحل، لم ينته البحث، كأن قدراً أبله تسلل من براثن الغيب إلي، وقد أغوتني فضائل القدر حين صوب بندقيته صوبك، نعيد نقش حروف اسمينا على جدار الحديقة، على أشجارنا لتكون شاهدة على حبنا، مخلصة لأسرارنا للأبد، الحب أرغم الفراشات والأحجار والزهور والأغاني على الخضوع لإرادة البقاء والحرية.. النداء في مملكتنا وعد ضائعٌ يحمل في طياته خيبة الجمال.. الرجوع عن الوعد في شرعة العاشقين هو بمثابة نكران الله لمريديه.. أما الشعور بالخوف والتردد، هو سقوط للحب على عتبات التخلف والرضوخ.. اضغطي على جراحي لأشعر بالألم، فما جدوى الحب لو لم أشعر بالألم، أريد أن تكون كلماتي غائبة عن الوضوح، لتكون غامضة مثلك تماماً لأشعر بمدى عبقرية الرمز وتحديه لكل ما هو واقعي، ومفهوم، وبسيط، وبيِّن.. لكنني أفكر بها كلما استنشقتك، وانحنيت لثغرك لأجل قبلة، لم أعد أرغب بعودة الطيور المهاجرة لأعشاشها كي لا يموت فيها الشعور بالحب والألم، أريدها أن تهاجر دائماً، فقد شبعنا من الركون والجلوس وراء الستائر.. ما تزال الحيرة تقتلع السكون من جذوره المتصلة بنا، لا تزال الغرابة تدور في أرجائنا فتجعلنا كالدمى المتحركة نختلس النظر فيها من خلال النظر لذواتنا لحظة اكتئاب! للألم ميثاق خالد يفتح لنا الجرح الخالد..! تهبني الوحدة ذاتاً جديدة لا

تتقبل المألوف، تهبني أشجاراً بحجم الهواجس، ورياحاً تعتقل سكون الليل المريب، ما ألذَّ هدوئي عندما تقتحمني الأخيلة فتهتف لي أحزاني وتدعوني للاستيقاظ من ضجري، كيف يمكن للحيرة أن تكتب سيرتي، كيف يمكن للعتمة أن تكتب عن رياحي وعن فوضى ما أحسه، وما أشعر به.. الولاء للعتمة إنها مهد تصوراتنا، تستولي على شقائنا المتيبس، وتداهم شتى أحاسيسي، لتولد من تضاريسها الحالكة ذكرى امرأة حزينة، وصامتة.. ذاك الحب الغامض الذي ينتابنا في زمن النسيان، كيف له أن يهدأ؟! هو حب عنيد غريب الطباع، يعلمنا البكاء رغم جفاف الأحداق، ويسير كالنمل الأسود على دفاترنا، ويتسلل بين شقوق الجدران الساخنة كقلوبنا المتعبة في آخر المحطات الوداعية الوادعة، لكل الأشياء حريتها في الولوج إلى قيعان التساؤل.. لكل الأطياف رغبتها في التحرر من أوهام البشر، وذاكرتهم، وللفصول الأربعة حريتها في إنجاب فصول جديدة من تلقاء رغبتها، ولهذا السواد اتساع وهمي ورحابة متسخة ببقع الكآبة.. ورغبة مديدة في غزو الأعماق، ولكي تولد الذاكرة العاشقة كم تحتاج لتترسخ رغم طغيان الوقت، ولكي تجد الأحلام مقاعدها المخصصة في مفاضلة التقدم لطلب الحياة أين ستختبئ ساعة الانفجارات الطويلة الأمد، كي تجد الطيور أعشاشها بعيداً عن موطئ الأفاعي؟! وكيف يمكنها أن تتأهب لاجتياح الشمس كي تأخذ كبرياءها من هذا الفضاء؟! كيف للأطفال أن يطاردوا شبح الحروب والمجاعات، وهم محاصرون بالخوف، غارقون بالوحل في طرقات المخيمات! كيف يمكن للعالم أن يستقيل من قطاع الخوف والإرهاب، كيف يمكن للحب أن يكتب سيرته النزيهة مع الإنسان دون أن يكون بحاجة لأي قلم؟! لتساؤلاتنا طموحات، ولهواجسنا أطماع.. التساؤلات أكبر منا لا لرغبتها في العثور على إجابات، إذ سرعان ما تتحول الإجابات لذرائع للكسل حين يتم اقتناصها بسهولة!

2007م

مذكرات الجوع..

تطالبني الغرابة بالوضوح..! وحدها تجيد التنصّل من أي حال انتابتني بفضلها، القلب أمضى بحثه بمشقة عن خيط بقاء أو ابرة حب في كومة قش، لم يجد بالنتيجة حتى نبضاته! المعذرة من التلفظ بأشياء تبدو قاسية بالفعل كهذا الواقع المتخم بالكسل والصداع، المعذرة من هذا المدى الحائر كم يبحث هو ذا الآخر عن معنى لاتساعه دون جدوى، عود الكبريت ما يلبث أن يشتعل كلما رأى سيكارة فاخرة تتعرّى في حضرته يتمنى لو يعثر على فرصة اشتعال جديدة ووحيدة يتخلص بها من فم آخر شخص يتداول التبغ في كوكب الأرض، الجوع أخذ يكتب مذكراته في داخلنا، بدأ يقرفص على أرصفة الانتظار فاتحاً فمه الفارغ يحاول ترميم رخامات الشارع المتخم باللعاب الجاف الذي ما عاد يسيل! الجوع المستدير كطاولة مستديرة في اجتماع طويل، مشكلة الغذاء تتجسد في خارطة رأس برناد شو[1] الأصلع، والكثيف اللحية، أصبح الجوعى رديئين، فاقدي اللباقة، معتوهين كياقات رجال الأعمال، في كل زاوية من زوايا الحاويات يتجول بدر شاكر السياب[2] برفقة عزيز نيسن[3] باحثين عن سبب وجيه لمشكلة الجوع، لينزلقا بقشرة موز على أحد الطرق المؤدية لبركة، تجمعت فيها دموع البغايا وفتيان الشوارع..!

الأشباح البليدة لا تفقه ثرثرات العاهرات قرب البورصات، وكذلك لا تقترب من أماكن لعب القمار، ولا من أماكن الاجتماعات المالية، لاعتقادها أنَّها أماكن مسكونة، فقط تأنس الأشباح بزيارة الدور الخربة والمهجورة

1- برناد شو: جورج برنارد شو (بالإنجليزية: George Bernard Shaw) (ولد 26 يوليو 1856 - توفي 2 نوفمبر 1950)، مؤلف أيرلندي شهير.

2- بدر شاكر السياب: شاعر عراقي مجدد ولد في محافظة البصرة جنوب العراق (25 ديسمبر 1926 - 24 ديسمبر 1964).

3- عزيز نيسن: (1915-1995)اسمه الحقيقي محمد نصرت نيسين من مواليد تركيا عام 1915 في جزيرة قرب استانبول.

حيث تلتقي ظلالها، هذا الجوع عازم عن التحدث عن "عروة بن الورد"[4] وكيف كان تلميذاً نجيباً له، وعن "الشنفرى"[5] كيف كان ينام جائعاً، عبر هذا الهواء المنزوي في جبين الاختناق، أروي حكاية ذلك الجوع، واحتضاره في غرف الإنعاش..

2010/6/15

4 - عروة بن الورد بن زيد العبسي: (توفي 15 ق. هـ/607 م)، شاعر جاهلي من قبيلة عبس.

5- الشنفرى: شاعر جاهلي، توفي نحو 70 ق. هـ 525م، هو ثابت بن أواس لا أوس (أواس من أبناء حجر بن الهنوء الأزدي).

وجع الكلمة

إنه ذلك الألم الغارق بالحركة، يقتتل نشوة وجحيماً فينا، ويتلاعب بهوائنا، يذرف تعاويذ الشقاء من أحداق كلماتنا، هكذا يفكر التعب بتمثيل الوجع في مساحات الشرود، وراء ذلك الورم الدفين في الذاكرة تتجه أحلامنا، تومض من الضوء قناديل الرجاء، لتبدد جغرافيا السكينة، فالعبق يخفي ويبدي السكوت مراراً على غير هدى ساعة قول الحقيقة، الجمر يتثاءب كثيراً في دقائق الصبر، طلباً لنور قيل بأنه سيأتي قريباً، للموسيقا زوابع دفينة في مساحات شعورنا، إنها تفصلنا عن أهوائنا عن قيم الغرور والإشباع من عطر المعاناة، هواء الشروق ينبعث من دجى ذلك الوعد الغائب، أحداق سكرى تتمايل في ملاهي الرقص والجسد الملتذ بموته، أدرك خفة دم هذا العرق القذر، وتلك الرطوبة الشبقة أسفل السّرة، أستجمع رقائق المستحيل كي أظهرها ساعة اللقاء الحر، لتلك الأنوثة الطفلة مذاق الليمون أوج نضجه وسلاسة الدم في تخثره، وامتزاج الفواكه بعصير الفريز الشهي، لمن يدرك لوعة الشجن ساعة مغيب الشمس له أكتب هذا المساء، لمن يدرك آهة الحب في لحظات متأخرة، أدعوه إلى فنجان من الندم الخفيف، لمن تدرك أنها في المكان غير المناسب والزمان غير المتفائل لترقص لوحدها قليلاً في قاعة الانتظار ببيتها ولتحتفظ ببكارة قلبها قدر الإمكان حتى آتي بلباس فكرة خلاص بذهنها! فراشات السماء تتراقص على جبيني عندما يداهمني النعاس، يأخذ من ابتسامتي رشوة ويسألني كثيراً، يقتفي أجوبتي التي ابتلعها تمساح الوقت المتأخر، ما أجمل أن أتبع كلماتي مثل لص حاذق، كراعٍ يلحق قطيعه البعيد عنه، وكأنني أحمل هتافات طفولتي، تحولت لغيوم بيضاء في السماء تحلق بينها حمامات فضية في مشهد يشبه زفاف الحياة، وكأنني عندئذ مجرد عينين ترقبان وقلب يرقب سماع خبر، تُرى، أيّ خبر؟! آه! كم أنا مندهش لرؤية السلاسل الغارقة بالصدأ، تعتقل النفس المفعمة بالحرية، المسكونة في عرش الغيب، كم أنا متعب كهذا القلم، راح ينهشه الغياب دون وازع على سطح الورقة الحبلى، ينتابها حمى

البياض، داخل الأرق المتعب.. الآخرون لهم أعباؤهم، هواجسهم التي تتعدى مساحة الحلم، مثقل أنا بالكآبة، بهجرة الابتسامة بعيداً عن مرافئ الحيرة والكآبة العمياء، جوعي يمتد للغبار، هو جوع القلب لرائحة القلب المبعد النازح وراء أوهام لم تعد تُصدَّقْ.. عبر نوافذ الصمت أرمق حديثك الهادئ، أعزف سيمفونية الانتظار، أقتفي نظراتك وقلادتك، تسترخي على صدرك، بدفء.. أتسرب للأعماق، أجتر معاناة بحر متجمد، نُحت من جسدك، وعُبِد من أسفلت الضجر، سعالي يخنقني ويقبض بكفيه الكبيريتين على حنجرتي. أحلم، كما لو كنت إبلسياً، بإخضاع آدم كلياً، وتبديل عقل الله، وجعله يوافق على التنحي عن عرش مهمل، منذ هابيل وقابيل[6]، أنزرع في عقلك شيطاناً ملاكاً يقضم التفاحة، تفاحة حواء بكل شراهة، آه كم أنا مندهش لرؤية الحرائق الغارقة بالألم في عينيك، كم أنا متعب كهذه النبضة الحبلى، تضج بأرق المعذبين الذين يسكنون قمم أحلامهم الخائبة، مثقل بالكآبة وهجرة الابتسامة بعيداً نحو مرافئ الحيرة والكآبة العمياء لموسيقى الانتظار شكل صوتك الذي ينتظر هو الآخر، أنت كقلادة ضائعة في أعماق بحر ضائع كالجغرافيا، أصابني الحب كجائحة الحمى وأنت كنبعة الموت لا تشبهين سوى الانتقال من واقع إلى واقع، أحلم كما لو كنت ماء، لعشق حاد، ورغبة في مضاجعة النار، وهي تغفر للشتاء نزواته، وتقفز كجمرات فوق براكين الاشتهاء.. هذه كآبتي تنتظر لوحدها، بأحلامها، تنتصب ألفاً ولا تتعرى لأحد.. جراح غائرة تتفتح كقرنفلة أصابها الجنون النازف كطلقة نازفة شاركت في مراسيم النزيف البشري، لجرحك أيتها السماء حكاية طويلة، لا ترتوي من ملامسة الروح وهي تسيل حول موانئ الرغبة المتلاشية! لأرق الحياة شكل الصدى وقت ترنو، لمحيطات الحزن الذي ينمو في الداخل يختزن الوجع لا يختزله..! وحدها أحلامنا الأولى لا تخش البرد ولا الهجير، هي كالصدى! وحدها تندبنا، حين نشعر أن كل ما حولنا ذاهب زائل، كم أنا غاضب كهذه الروح حين تحتضر اشتعالاً فوق أمنيات

6- هابيل وقابيل: شخصيتان ذكرتا في العهد القديم، وهما أول ابنين لآدم وحواء.

تستعبدنا، توقظ فينا من جديد أسارير الدهشة وبرودة أجوائه في توغلها لنار نزيفنا، تخدشنا ممرات الجراحات الخالية من البشر الحسّاسين، ترشف فينا رهافة الصمت الطويل، والأمنيات الساخرة، السائرة نحو قاع التلاشي، وجدرانه المتداعية على حبنا المتكوم مثل عقرب كسيح في زاوية، كم تكتبنا السنوات على جبينها وتلعن تجاعيدنا التي تتسول الصبا دون معنى، تتوب الذكريات أخيراً أمام الحب، وتعلن عن تجريدنا من بكاءاتنا القديمة، نتيجة إهمالنا لأنفسنا، نحن بالنسبة لها مجرد أرقام، وطلاسم، فبدأت تكتب أسماءنا وعناوين روحينا على هوامش الجرائد التي مصيرها تحت أواني المربى أو المخلل! تثبت لنا بأننا لم نعد نستحق الذاكرة والتاريخ.

إن الكتابة في الفضاء تثبت لنا صدق رؤيانا المبكرة، وطفولتنا عاشت متأملة السماء، للتخلص من تشعبات الحياة وحكمتها المستعصية، فالصفحة الكبرى في الفضاء الأعلى تروق لها فيوضات همومنا، الهموم تتسلقنا، تكتب أسماءنا على صفحاتها، فالنزيف الحاد المستعر يطوقنا، والرئة الجريحة تكتب بوعي عن تفاصيل جريان الدم في أحداق الغارقين بالوجع اليومي، وفي داخل هذه الذات التي تفسخت حيرة وضياعاً نحو الطموح والتحليق إلى النور، رغبة في تسلق الأعالي لإرضاء الروح وتطلعاتها التي تسمو إلى الأعلى، وتتشبث بالارتفاع الشاهق، تلك القمم التي تمتطي الطهارة الصافية وجنون الشلالات نحو المصب. الوجع العميق يشردني، يقتتل في داخلي.. كم أنا كتلك النوارس، أحلم بامتلاك البحر، أفكر بامتلاك الأنثى التي لم تكتشف، وبقيت فكرة، لاحتراقي أيها البحر تكّون لصيرورة جديدة وحالمة بالرؤى الجديدة عن الغد، لاحتراقي أنين صارخ بالإثارة عبر تساقط الدموع..

البكـاء..

نشوة الحزن الباردة تتمدد في أوردتنا من خلال جاذبية الحياة، تلمح فينا الدفء وروعة البوح بنغمات الأنين المحدقة في ثنايا الحلم، إذ ترتفع حنجرتنا بالغناء، إنها توقن بالحياة، وتدفعنا لعزف جوقات اليقين في مدار العتمة والتغريد الغاضب، يتحدى البكاء فينا وهج الابتهال في الأرواح التي تصمد أمام نزيف الطاقة المتصاعدة خارج صدى الكهوف، وتتوقد الأغاني الجبلية في حنين عوالمنا بديمومة مطلقة، نحن لا نعايش هلع الهاربين من حقائقهم التي تصدم، ونعاني قسوة الكبت، جحيم الصمت وتخاذل اليأس في بلوغه قمة التيه.. البكاء انطلاقة للعمر من فوضى التبعية الرخيصة ونشوة المسافرين أمام الطرقات الحزينة، خلف نعش الذاكرة المقعدة وصعوبة الذكريات المحرقة.. يحرك الحزن فينا نسيج حيرتنا من خلال انغماسه في ازدحامات التأوه، ورغبة من تعايش مع الألوان التي تتآكل في أحداقنا، وصور الغبار الملونة، دموعنا الفارة من أحداقنا عند اشتباك المطر مع الأرض، إشارات الاستفهام، تواكبها نظراتنا المستعجلة، والمستيقظة من سبات الصدمة الموحشة المتصاعدة، إذ يبقى لاستغاثة الأمل القرار الأخير في إبقائنا مع الحب لإشعار غير معلوم، وتبقى قطرات المطر مسترخية في خدودنا المترعة بالطفولة المنغمسة بحساء الشتاء القارس، نستفيق من قهر دخل في غيبوبة، نهزأ من ركام الألم بهمس العشق البطيء، ونحضن المدى مبتسمين حالمين، بلا خوف من العتمة، نوقن بالورد العاشق فسحة اللقاء الأكيدة، نطلُّ كنغم بارد غادر أركان الزوايا المتعبة، وأعبر بعمق الظلام ساخراً من حكمته، مشفقاً عليه وأستسلم للهيام المنقطع، وألحظ خبث انتظاري قرب أبواب المطر، وعلى مفترقات الترنم أشحذ صبري، آخذاً من سوسنة حجلاً ومن غصن حمامة، ومن وعد شفقة، وأنفض عن جبيني زوابع الوداع من خلال اتكائي بالقرب من مكنسة لمستخدم مدرستنا الابتدائية، أرادف كل نشيد لم أحفظه في حينها، وأودع السبورة والطباشير وحرف الباء وسط الكلمة، والتاء آخر الكلمة، لا لعنجهية الوقوف قرب

الأبواب الصدئة ولا لغطرسة التأتأة التي تعنِّف كثيراً المعنى واللغة، وأسافر في بقاع السمو، تاركاً قلمي يسجد لمداده، وأنسكب كشلال سها عن مصبه، فارتمى في ذراعي كهف يمد دهاليزه وأنفاقه باتجاه الريح، أقبع في دقائق اختناقي، فائحاً كأريج متعب وذاهلاً من أمس غاضب، أشم ملاذي في أقاحي الحياة ولا أسأم من تقبيل غجريتي، متعبة النهدين، أسير لأردد مزامير الحنجرة الهائمة في تقبيل فوهة الناي، أراجع فرحاً مؤجلاً، وأقعد في الظهيرة راسماً على طاولتي خارطة الهروب من مأزق مبهم.. البكاء إلمام بعيد وعميق لواقع حاد المزاج لا روح له، وضرورة للتواصل مع الأرواح الهائمة في إحساس الحياة حيث تكمن جدلية النفس في تأبطها للسؤال الصعب، والأمنيات الباهرة، والوعود المتفجرة، من بصيرة توقن جيداً أنَّ التأمل بعيد، تنكمش في حضن الأمل المتأصل في جذور الأشجار والأزهار، تنقبض أرواحنا في حضرة الفزع، تنبسط في سهل شاسع يحمل طاقات النور الكثيفة، ننهض، ننفض الغبار عن هياكل الصمت.. نودِّع اليأس، ونسحق، بالبكاء، القسوة الساحقة، ونرغم التوحش على التمرغ في أوحال الخيبة، ونشتم بالبصاق وجه المناورة، ونثبت بقوة قدرة النفس على اجتياز الهدف والتغلب على امتحان الحياة الصعب!

الجري هو الملاذ

لا تخف أيها الظل، لا تكتئب، عيناي تجمدان من مشهدك المؤلم، من فزعك المتمثل بالوهم، آن أن تقضم أظافر البرد بغصة حزنك، تفتح رسائلي من صندوق بريد الشتاء، وتتهاطل عتمة علي، سئمتك أيها الحيوان، لا تباغتني بسيل الوساوس، مازال هناك متسع من قدوم الخرف، حان أن تشرب من فيئي تثاؤب الماء في صدر النافورة، وتبتاع ملابس الجوري، وتغطس في برك الجنون فلا تبتئس حين تغادر من ليلي بلا أذنين، وأنت الذي كنت تبحث عن قرنين!

أيها الظل، انس لونك.. متأسف لأنني رجعت أهذي بك مجدداً، بعد أن خاطبتك في نص سابق، وهأنذا أطاردك أيها الظل اللئيم! غادر سلالتك، فهي زائفة قد طاش غضبها عليك، فبادرتك بالصمت، ورجمتك بالقطيعة والغياب، فاهدأ، وكن شامخاً كالمدى! استر عورة روحك بالجموح، واجنح للحياة، لا تلتفت وراءك، قابل من هم أمامك، فهم أشباه ما مضوا من بشر خلفك، دعك من سخافات الحنين، انسف جسور ماضيك، اجتث جذورها، لا تقف على أطلال خوفك من جرحك، انهض كي تحذو خطاك بقية الظلال، لا تكن إلا كما لم تكن حتى تكون، هكذا ستباركك أعين الذين رموك بين مفترقات أسئلتهم، ستحظى بإعجاب الدموع، واحترام الغروب، وتقدير الحبيب. يا ظل الحياة، تعبر متأخراً خلف الأشباح، تخشى سعال النائمين في الزنازين الضيقة وهي تعج بالواقفين. لا تضطرب إن خذلك هدوء الموج، لا تطالبه بما لا يقدر عليه، كن ظلاً عاقلاً، لا تنجر لحبائل الهاوية، قد تماديت في التوغل، نحو أعماق مجهولة، لا شأن لك في سبر أغوارها، تيقن مما يدور بصمتك الغائب عن صمت الآخرين! افهم مغزى أن نكتشف معنى اليقين في بلادة الأمل وعقم المعنى، أيها الظل، كم بتلهفي أشفق على صبرك، أتوسل لعنادك أن يرحمك، التفت لغيابك، تعلَّم كيف تحسّ بصقيع أنفاسك ولا تطالب فلاناً بالاكتراث بك، فقد يضيع في فهمك وقد تضيق الأرض عن انتظاره، ثقْ بالرياح حين ترشقك بوابل تحيتها، تعلَّم حكمة الصدمة حين توغل بك في بحار

العتمة، اخش نزيف الموت بين شفتيك، وأنت تصعد نحو جدار مثقوب الجبين يقع في مملكة الذهول، ما شأني بأكاذيب القرنفل؟! تهمني سكاكين عبقه حين تخترق صدري، وتطعن استنشاقي، للحياة فلسفة التضاد، فمن الغياب نرى وجوه الآخر المتعددة، ومن الجرح نوغل في ثقافة الكرامة، ومن الكذب الوقح نبصر أخانا المنقرض الصدق.

رويداً رويداً تنكشف الألوان البراقة أمامنا، فقضيتنا مكشوفة أمام الغموض، نتابع جرينا دون اكتراث لظلال ارتضت عبودية الخلف، بينما نحن نوقن أن الغد هو الملاذ فنجري..!

سيمفونية الجنس الناقصة

لا أعرف فيم الصمت يحدِّق بي بعينيه الممتلئتين حسرة ودموعاً، هذا الصمت الذي يرافقنا بلا مقابل، يملؤنا حكمة، في ساعة نبدو فيها ثملين بلا جدوى، فننسلُّ كخيط الدخان، من فضائح النزق وتعاطيه التافه مع الوقت، الوقت الذي يمضي متزامناً مع دقات القلب، يرتفع بمشهد ساحر، ينخفض من هول الصدمة المعتادة، تلك النظرات التي تصف الحقيقة متوهمة بقبضها وتحكمها بالمشهد كله، كأن الحواس وحدها قادرة على ضبط الرؤية، حيث تتجلى الرغبة في أبهى معانيها ويصبح للتعري دلالة حية تتشظى في صورة أحاسيس مندلعة تحدث في النفس رغبة تميل للتملك والاستئثار والعنف، وتتسارع الروح في طيشها الخالص تنقلب بهائمية الوحي كمشهد انطباق سماوي محكم على الأرض الخليعة، وحين ننغمس في معدن التدبر نتنبأ بمشهد حب حقيقي، فإننا ما نلبث أن ننزلق في متن الهاوية المعلنة التي تتحد ضمنياً بعوالم الهبوط، أختزن الصبر اللائذ في حرم الصلوات، منكباً على هيئتي مغتراً ببعض صرخاتي ورعشاتي، مختلقاً الأعذار في جعلي للرغبة ستاراً لآثام البشرية جمعاء، كلُّ ألمٍ ينطوي على مرارة متيبسة في الحلق، كل جسد ينمُّ عن جهل بكيفية الاستئثار بالحس، بيد أن الجسد الأنثوي تعبير عن الَاستماتة في السعي إلى شبق يزول بمحض طلبه أو الانفضاض عنه، بعد الانتهاء منه، في حالة الاغماء المتعطش، تنهمك الرؤى، تتسارع دقات القلب، معلنة نشيد الخسارة، وهنا يختفي السحر الظاهر وراء العدم، وللجسد سطوته في التملك وعرينه الأزرق، تحتكم المصادفة في حياتنا أمام شعورنا الدائم بالالتحام والاتحاد، تغتسل الروح العليلة بمياه الرهبة ساعة انقضاء الجنون، تشتبك قوى اللذة مع الصمت المشتهى، لحظة اندفاع، وانتعاش، عندها تتسارع دقات القلب معلنة الخسارة في السعي إلى كمال غير متحقق ساعة القذف!

الحب إرادة الجمال

حين تمسح الفتاة عن أجفان حبيبها آثار الدموع، فإنها تعبر عن أحزان كل عاشق يعيش في أي مكان من هذا العالم، على مدى تلك الجبال الفضية، تلوح أصابع الريح.. تشد على أصابع المشتاقين، توحد نداءاتهم، تتعانق الدروب مع السفوح، الوديان مع الجبال، يرنُ الأمل بين السحب آخذاً من رهبة المنظر أملاً جديداً ودائماً..! حين تمسح الفتاة قهرها في عيني حبيبها، فإنها تعلن إرادة العاشقين في السماء، وتسطر درب الثورة للخلاص من عبودية المادة والمظاهر والبقاء الزائف.. تجسد خارطة الحياة كما يجب أن تكون، وتخلصنا نحن الأشباح من أطيافنا المرعبة وسباتنا الشيطاني، فهنيئاً لهذه الحبيبة الشجاعة التي تقهر كل معجزة دنيوية أو أخروية، تقهر الظروف وتسير متمسكة بأصابع حبيبها الذي أقسم للموت أن يحميها من النسيم إن حاول الغدر، ومن الماء إن حاول العبث، ومن الشمس إذا حاولت أن تلهب بشرتها كثيراً.. ما تعلمه الحياة أكثر من ذهولنا أمام حكمة العاشقين وجنونهم الرهيب، نتعلم كيف نطور من حياتنا لنجعلها أحلاماً قادرة على أن تكون واقعاً جميلاً أكثر ديمومة.. ولكن سرعان ما يزول النور، حين يكون ميتاً فينا، وتتلاشى إرادة الحب حين نرى التخريب يطول الجمال في كل مكان وزمان..

الحرية

تراتيل نسمات لا تتقطع رغم القيود، مسيرة خطوات لا تعد حتى تصل مدائن النور.. لحظة جياشة تغوص في أعماق العواطف، تشقَّ مسارها بين ركام عتمة، تاهت بين غياهب الريح، ونبضة نازفة بتلقائية الألم والحزن، ممزوجة بتناقضات البوح والصمت، وبحيرة خلاص بين منخفضات الاستكانة ومرتفعات الكبرياء، قوة تجذبنا نحو الحياة الأكيدة.. لغة تجعلنا نتتلمذ في معابد الحياة، لننهل الغرابة والمجهول، نفهم جغرافيا التحدِّي، وأبجدية المعاناة من خلال قيود لا تنتهي، ومن خلال الحرية نوقن حرارة الجمر، حكمته التي لا تضل طريقها بين الرماد، فتبعث بريقها المكتظ بالصرخات رغم تقلدها لألف جرح، وجرح، نحو ولادة حياة أكثر طبيعية، تلك الحياة الموسيقية الرهيفة العابرة لتموجات الظلام.. حينها لا تبقى لألوان الألم غير لون يضم المتناثرات والمتناغمات تسعد كل القلوب المتعبة بتأمل طويل.. هي شريان أخير يمتد لأنين العاشقين الغارقين بأحلامهم التي تنهب الوقت من كل حدب وصوب. وضمير يأبى الموت وحيداً في ساحات الاغتيال، تلك الحرية التي تقدم قرابينها بكل زهو وتواصل! الموت والخلود والعيش في أروقة الحقيقة الصامدة، وتتمم طقوس الحب البراقة في البراري والغابات والهضاب الفسيحة، تتقاذفها بسماتنا الشجية النازحة عبر مرافئ النور والبداية الأولى التي تربض في أزقة الوله وجوع المفترقات المنتهكة، ترتقي الحرية في بحثنا عن معنى يليق بإنسانيتنا، وتتهرب أقنعة الزيف من هول حضورها، تسير في لحظاتنا التي تترجم قصص الحياة ورواية الزمن، تطرق أبواب المنفى لتطرد سجانيها المخفيين في ردهات المدى، للحرية لغات الأرض، سنابل الحقول، زهرات النارنج والجلنار، آهات المبعوثين من تحت الأنقاض، وثورات الآلهة.. هي عزف دائم على منابر العراء.. ونصب تذكاري لبسالة المعرفيين المقيمين في مدائن الخلود..

الحـزن..

الحزن هو بقايا ذكريات أوجعنا بها الحاضر، وتذكار سفرٍ لمجهول قاتم السواد، شريط فيلم نجر من خلاله أحلامنا الخاوية، فسحة عطر كاذبة، نتبادلها في الشكوى، وسر الأحداث المغبرة الغابرة، مشاهد نورانية متشحة بالتفاؤل المضياف، أنوار تضيفها لنا خزائن الروح من الأعلى، خليط ملون بين ماضٍ عشناه، وحاضر يذكرنا بعبثية السخف والمآسي، ويمتزج بالمعنى الذي نختلقه بين ذاتنا والصدأ، دموعنا الفارة من أعيننا وملامح خنوعنا لاستكانة الزمن عند مرور أطياف من أحببناهم! وكم كنا نخشى ارتحالهم لما وراء حدود سلطة البعد والغياب، حيث ترتسم دوائر الحزن في بقاع رؤانا، عبر الفسحة الهامة الممتثلة في أحداقنا مابين اليقين والصبر.. يرتدي الحزن ألوان السرور، مباهجه الخامدة، يطل من زوايانا المفتوحة، من كوة الخواطر الداكنة، من تفاصيل الحياة الطويلة، فحين نضحك فضحكاتنا حزينة وحين نصفق بازدراء فنحن نردد ترهات الحزن في تطويقها لنفوسنا الشاحبة ذات كآبة. وحين نتزين، ندعو الفرح لمائدة الترسل والتأمل تحاول مواسم الحزن أن تصلبنا على أعمدتها الخفية الماجنة، فنرتاد روابي الصمت، نلبس القلائد الحبلى باللمعان، تكتمل قصائد الزمرد واللازورد، تنقش بريقها في أدمعنا، نزيلها ونضحك لها، نكمل ما بدأه الحزن في دخوله لمضافات عمرنا ومرافئ أوجاعنا المغلقة الحزينة، المحرومة من أشعة البهجة المارقة، فيتسرب الحزن بين مدائن الصخب حاملاً كتابه المقدس كناسكة تنازع احتضاراً على هاوية الكبت، حيث يتشح الحزن بثوب حداد أسمر، يكتفي بالجلوس قرب مصاطب قلوبنا، وأقبية صمتنا، ودهاليز غربتنا، يسرد كروائي ماهر تفاصيل أعماقنا، وجنائز آهتنا.. ملاهي ضحكنا المتهاوي كعظام الخراف بعد سلخها، وهو من يعبِّد مسافات الحياة ومطباتها ويقوِّض سلطة الطموح في أرواحنا، يؤرخ جغرافية الحياة، يغني ثقافة المتحذلقين والشعراء، يزيد من شبق العاهرات البائسات اللاهثات وراء عبادة الموت! يكتب التاريخ منذ ما قبل ابتكار الكتابة والتدوين، يمهِّد

لي السطور العانسة أن تقترن شرعياً بكلماتي العاشقة، إنه المأوى لدربنا من أن يتسع.. إنه الأب الروحي للحلم، المهندس لعمرنا الذِي يزيد من نسلنا، المبشر بصداقة الإنسان للوجود والحب والمعرفة على مر العصور..

الحنين

منذ أن تعلقت نفوسنا بالهموم، نحاول البحث عن هواء عطر، يعيد الصباح لأنوثة الماضي العنيد، بدأت علاقتنا مع الحنين، نشأت الصداقة في ظل الذكرى بين الماضي المجرم، والحاضر المؤلم، أعلنت آلامنا التمرد في جبين ملامحنا العاشقة، نهضت البلابل وطيور مالك الحزين من منافي الاشتياق، لتحاول استرجاع الماضي بكل ما لديها من شجن وألحان، بدأت تحاول إعادة النور إلى صفاء الليل.

الحنين هو الهواء النقي الذي يحيلنا لمحكمة الماضي، يغوص بأعماقنا الملتهبة، كي لا تضيع ذرات أحاسيسنا بين متاهة العدم وكواليس الندم، تعبث أنسام الأمل بكل ما يصلنا بالحزن من رسائل وجلة، لا تتأثر بها أحلامنا الغابرة، تكبر طموحاتنا مع الحنين وتظل تعدو عبر الزمن، في عالم كوني مزدحم بالضوضاء ومكتظ بأصوات الباكين، والعراة أمام سلاسل الحديد الصدئ. الخيال الرافض لعجزنا أمام الواقع، يحرك في حرائقنا الجمر، يكاشف أحلامنا المخبوءة نوايا في السمو نحو الأعلى لاستجلاب الغد البعيد، في هذا المدى الواسع، نتيه ونبارك الاتساع بالتناثر كعطر الياسمين في أروقة الأمكنة التي هجرناها، أوراقنا المبعثرة تصف فوضى ما بداخلنا من شجون وآثار لمعاناة لا تتوقف، تظل كامنة في العمق.. آذار نشيد الحنين الجميل، كيف لا نذكره، وهو يعيش في داخلنا المغترب، ويلون أحداقنا بكحل المطر، ويرسم فينا لوحاته العابقة بالزيزفون، ربما تساءل الماضي عن حنين له من خلال جوقة الأصوات الهاتفة بالحلم، بالطفولة، والأمل الأصيل، تحاول الأحلام الهادئة أن تحمل ذكرياتنا من خلال إثارتها لمواجع العبق وأزاهيره الطويلة المتمايلة الأعناق.. المساء الصامت يحن لجراحنا الصامتة، وسراج الظلام يطفئ في داخلنا العتمة رغم الوجع، تلك قناديل الحنين التي تدك معالم سجن قديم، يربطنا بالخارج، يبعدنا عن الأماكن وفلسفة المكان، الأيادي الحزينة تلوح من بريد التجاعيد، تخفق في مزهرية الورد، فتنثال مثل حلم يطارد ظبي القلق، وتتناثر مدامع القمر في فضاءات السماوات

البعيدة التي لم تكتشف، يزهر في أواخر الجفاف، يطلع من صدى التنهد والتشرد، ليخفق عالياً، يتحدى نزق الموت البطيء، يجعل من مسامات الضجيج معابد ياسمين كثيف.. تنتظر المرافئ عودة الأحبة، تختزن الابتسامة لأجل أن يجيء الوعد الجذاب، وتتدفق العوالم العابقة أمام الكراهية السامة، تنهال الابتسامة الزرقاء على موائد اللقاءات المتزنة، زارعة بذور كآبة صادقة ومشاتل وردة مراهقة، تدخل في ميعة الذاكرة البريئة مثل قطرة الندى الباسمة، عمرنا والسنابل بدأا معاً، لكن الحنين تأخر عنهما، كم نحنّ للشتاء، في الشتاء نتلهف للصيف، وفي جعبة الخريف ينسانا الغبار، فنفتح نافذة الغرفة لنستقبل من جديد حزن القمر.. في كثير من الأحيان نعجز عن العطاء، وتجميل الحياة، وبدلاً من أن نقدم الوصل، نختبئ وراء ظهر الصمت، فنكتئب، ونرغم غيرنا على الكآبة، ما يؤلمني حقاً هو انتصاري في كل معارك الحب! لم أحفل بأية هزيمة مرّت، كنت في ساحة العشق أقوم بدور الحكيم، بينما المحبوبة تتصرف كالشعب الذي يرجم حكيمه بالحجارة، لكنني هذه المرة، أبحث عن حكيمة تهب عشقها بكل تصوف وعطش وجمال، بينما سأكون الشعب الذي يخلّد مآثر تلك الحبيبة الخالدة، أسمع بالعشاق الذين يقتلون بعضهم عشقاً، لكني لم أسمع بعشق، أو لحظات جميلة تنتهي بكبسة زر، إن الحب حين لا يغير ما بنا ويجتاحنا فما نفع تقلدنا عرشه، إذا لم يخلق منا عالماً مستقراً ما نفع التبجح به، إذا لم يلغ أمزجتنا، فأي حب مسكين نعيشه، إنه الحنين للأسطورة، وللحياة النقية، تسبح خارج الزيف الذي نبصره في كل مكان..!

الخـير..

الخير هو النداء الإنساني الباقي والمستمر في ظل تكدس الطموحات والأطماع، ورغبة مديدة بالبداية لخوض غمار الموجودات، ومحرك التجدد نحو رؤية ممتدة لا متصحرة، يتواصل الخير كلغة اتساع لمعالجة فداحة اللهث وراء المادة أو الإغراق في تصور الروح كناقوس لايُرى! الخير ماثل في النفوس أكثر مما يوجد جلياً في فسحات الوجود، أو يندرج ضمن المواقف التي تعترضنا في اقتسام الحق، أو التعالي عليه عندما لا نصل إلى الخير من عمقنا، بل من تصحرنا نخمد ماهية الخير الصحيحة! مصائرنا تتعلق بالخير الذي نعيه امتثالاً للجمال الكائن في الضياء، تتنازع في قلوبنا متفرقات الحنان في الكنوز، فنعشق العدالة إيماناً منا بحقيقة الخير الذي يبقى!

تتلاطم أمواج الرغبات في أزقة المنفى على مقربة من الشهوة التي تقترف الخطيئة تجاه ألوهية الخير فتتلاطم أمواج الهموم لتعلن موتنا في خلودها! إذ يكثر الأرقاء الذين يسارعون لنشر الهلع لأنهم عبيد الشهوة، وقاتلو الخير ومشعلو نيران البؤس، لا يمنحهم الخير نفسه، وإن على جثته! الخير مقود الحرية المتين الذي يستعر بكل الجوع نحو مائدة المساواة والتآخي، ومصدر يتدفَّق لتفجر الطاقات النابعة الملهمة في قدرتها على أن تتمسك بصفائها، لا تأسن في أتعس الوقائع، ولا تعبث بها أهواء الأنانيين ذي الطباع الدوغمائية.. فالخير يتجسد في مهرجانات العصافير والبلابل، وفي احتفالات الحقول ومشاتل الزهور، يعتنق دين الطبيعة، ويسجد للكائنات بعين الوجود الرحب. يتوزع الخير في كسرات الخبز التي تُرمى للسجناء في الدهاليز المعتمة، وفي أقاليم الجمال النابض، ويستمد طاقته الحية من الماء والهواء والتراب والنار. نتساءل عن خزائنه وأحلامنا التي تتعلق به ويبقى التساؤل باسقاً مهيمناً على تفكيرنا الذي يهيم في ارتوائه من ينابيع الخير.. متى تستقوي الإرادة الخيرة على أنانية التملك الفردي.. متى ينهار سور التآمر الجشع في فضاءات عمرنا المتكدسة بالخيالات العنيفة..؟! متى تتلاشى الحجارة السوداء قرب أكواخنا الآهلة بالصور والذكريات.. لا تلبث الدروب

أن تخلع نعالها قرب النعيم الخانق، لتستقبل أطوار الفناء في خير غير معلوم، ترمقنا أعين الفقراء والمتعبين لنبحث لهم عن مناديل الخير كي تكسو دموعهم، نعيد ما أخذته الذاكرة من معاناة لم تعد إلا من فتات الماضي العاقر.. الخير انطلاقة لانتفاضة الفصول في تقديمها الجديد، ورغبة عارمة في تطويق الجمال قبل زواله، وامتثال عظيم للقوافل التي تحمل القوت للذين يعانون نزيفاً صعباً.. الخير ولادة صادقة لقدر زائر ووعد بالحياة ووعيد بالزوال امتثالاً لمشيئة الموت الأمي الذي لا يعرف سوى الكتابة في القبر، وقراءة ما عجزت عن قراءته فراسة الحياة..

الرفض

الرفض محاولة للدخول نحو هرم التجدد والانطلاقة ونبذ القيد ونكران الموت، وثورة ضد القوالب الساكنة، ميلادٌ لقوة تدفع العجز للنهوض، وتدفع التساؤلات إلى إيجاد حل، ومن خلال الرفض نوقن بالأشياء التي نخاف ابتكارها، ونتداخل بضراوة الصراع، ونعقد الأماني الجديدة على ترنيمات الصمت والبوح، ومفترقات الهدوء، هو لغة لا تتشكل من أحرف كيفية، ولا تأتي من حرائق الحزن الغابرة، بل تنبثق من آلة التجذر في دوام قول الحقيقة، تخاطب شتى الأزمات، لتستخرج رحيق اليقين، تحتج على الصمت الرجعي، والوحدة الميتة، فتبعث فيها ضوء الصحوة، تحاور انقلابات الوهن، تزيد النار وهجاً في وجه الظلام، فيولد من خلاله ما يتناسله العقل ليبلغ أقاصي الدفء والابتكار، هي لغة خارجة عن سلطان النفس الخانعة بمرارة الواقع، واضحة في ألسنة الحازمين، والرافضين لسيطرة الفراغ والرضوخ والركون، تطمح للكشف عن مكامن الروعة وإغواءات الفكر فيتولد الرفض ولادة تامة، ضد التسليم الأعمى، لتخرق المستحيل، ولتكشف عن جوهر التغيير، تحرض في ذواتنا ثوابت الرقي والتفكير..

الرفض لتراكمات الكراهية، وانفعالات الحاقدين، وإغماءات المحتضرين.. الرفض قوة تدفعنا لنرى الحقائق بأوجهها، لإنجاب الأرواح الواثقة، ولهتافها الواعي، ولردع الطفيلية! وهو معنى عميق للتجانس مع التنوع في الوجود، والانطلاقة الجادة ضمن أرضية تأبى الوقوف على عتبات القبول والرضوخ، هو المغزى من حياة تعتمد على التداول، وطلب لمناجاة الحلم في خيالات الحذر، هو رمز لإطلالة الكلمة في رنين الصراخ، ومطلب من الحياة، لمرور أكثر أماناً وهدوءاً على جسور الاستجابة والرجاء، المدار الواسع من صرخات النفس الهائمة بالإنسانية.. الضوء المتمرد في همهمات المدى الإنساني.. الضوء الثائر في دنيا الالتياع، والأمكنة الساخنة، خارطة تبين رغبة الكبرياء بالانعتاق من فوضى الهرب، توضح رغبة الروح بتحليقها، وانعتاقها من الخوف ومرور الوقت، هو الشعور الخالد الذي يطالبنا بالتأمل، وبتصالح التمرد مع التأمل لأجل رؤية الحياة بأوجهها الأخرى، وهو ما يلبي مطلب الحياة الحقيقي فينا.

السعادة..

هي ثوان من دقائق العمر المتهاربة، ودقائق من ساعات متهالكة.. هي غيمة صيفية تسبح في علو الأفكار المتصاعدة، لا يمكن قبضها، أو اعتقالها، فهي تواظب السير إلى حيث لا يدرك اتجاهها، ولا يمكن احتضانها والوصول إلى دفئها الوثير إلا بالحكمة الماثلة في يقيننا.. عمرنا انطلق بسرعة للوصول إلى شيء كالماء الزلال الذي يحتوي ظمأنا دون أن نرتوي منه.. هي السعادة ترتدينا دون أن نشعر، ونطاردها دون أن نعرف لها اتجاهاً.. نشعر بصداها في السهول الخضراء، في ابتسامة الحبيبة وآثارها المغرية، نحسها في أصوات العصافير محلقة غير عابئة بالضجر الساذج..! أمامها ما ينتظرها من زهو، وكبرياء، نحسها بالسعادة في مرايا الذاكرة الثملة، في ملاهي الطرب التي تمنحنا أهازيج الجسد الزائل والروح العنيدة، وفي جوهرنا الحقيقي نبحث عن السعادة لتزيد نفوسنا لمعاناً وتألقاً حيث نخلق المستحيل في ظلِّ تصالحنا مع الوجود، ونحن أبداً في سفر دائم من وهم إلى مدار وهمي آخر، أين السعادة دون فقراء يبحثون عن قوت دائم، وماء يرقُّ لحناجرهم الجائعة!؟ أين السعادة في قلوب أطفال بدأ الدمار طريقه الميت داخل صدورهم الطريّة، وقد هممنا بوضع الجمال مسلكاً في طريقتنا في سبر مكنون السعادة الضامنة لارتقائنا من التوحش إلى التمدن، لنجد أنفسنا قد بدأت للتو في البحث عن المباهج والمتع حتى ينهي الموت فينا لعبته المملة، وفي الأفق تعاكسنا الطيور بخفق أجنحتها الفضية فوق البحيرة التي نستنشق منها ولادتنا، ونمضي في طريق السعادة لنفكر بامتحان الحياة التي تخترق عظم مصيبتنا الطبيعية، نطارد الفزع وننحني للحرية والكبرياء المعرفي الذي يحلق في جهاتنا المعصوبة، يجعلنا نسير مثقلين بوهم قصر المسافة وانعدام أعبائها.. هي السعادة كوخ يضم العصافير لا قصر يعج بالخنازير البرية، هي في همسات الينابيع، وجوقات البلابل، في سيمفونيات الطبيعة، وأمسيات اللقاء في الأعياد، هي رفض لاستكانة الفرح في تقاويم السنة ووعد بالحياة الجديدة..

الشتاء..

أدمن الشتاء لعابه الجاف فتسلق شفة الزمهرير ليأخذ قيلولة على قمته، حيث تسافر الطيور المهاجرة كل خريف، لتلتقط أخبار العاشقين في أماكن أخرى أكثر دفئاً وأماناً وحرية.. وفي ليلة سوداء، أعلنت قديسة السلام عن عشقها المكبوت، رهين الأديرة اللعينة.. بينما أعلن الطفل الرضيع عن تفاؤله حين سيكبر، وأعرب عن أمله في تغيير العالم، وقلب نظام حكم الزمن، وعندما سمعت الأوساط المراقبة طموحاته، خشيت كثيراً من مغبة هذا التفاؤل الأعمى، فمات الطفل قبل الأوان، ولا تزال حقيقة موته مجهولة! فهل يمكن لهذا المشرّد اللاجئ أن يفعل شيئاً أو يعدِّل ويرسم أو يدعو ويتآمر أو يغير ويلعب في خارطة الدول ومصائرها ومستقبل أقاليمها بل إنه مجرد متسول أو حارس مرابط في بوابات الحدود الحزينة.. نعيش في زمن الاحتمالات إذ إنَّ الذين بكوا في العام الماضي سيفرحون هذا العام، والذين عشقوا في العام المنصرم سينسون في هذا العام الذهبي، تلك توقعات الأبراج لهذه السنة، أيتها الباكية منذ الأزل، أيتها السحابة، أفهم سر حزنك أنت والألم ولدتما في ليلة واحدة، لذلك كانت دموعك مطراً غزيراً يبلل خديك، وذلك الغروب الشفاف الذي بين أناملك يكاد يحتضر، هو الآخر، لقد رسمت على جسد الأحزان لوحات غزيرة المعنى وكتبت على بلّور النافذة مشهد لقاء تحت المطر.. بماذا تفكر البنفسجة التي تراك لأول مرة؟! ما الذي تكتبه الدروب عنك؟ لمن ستحتفل غداً في عيد الشموع المضيئة؟! لقد رسمتِ في فوضى هذا اليوم لوحات جرح غائرة في جبين الغابات البعيدة، إذ إنَ دموعك تسربت بنعومة إلى شعر حبيبتي كي تنعم باستراحة قصيرة قبل أن تلامس الأرض والتراب، أحبتك الطبيعة فوضعتك ملكة على عرش الفضاء لتكوني سعيدة، لتراك الطيور قبل رحيلها.

كيف ستصدق الليالي أنك بدأت تثيرين هواجسها التي باتت تشتعل في قلوب النجوم العاشقة، كيف ستكتب عن ذلك لتبوح به إلى الكون، عرفت كيف تنتقيك كوجع حقيقي، ودموعك أيتها السحابة؟! كيف بإمكاني

إقناعها بالتوقف عن المسيل من عينيك.. لتسيل بدلاً عنهما من عينيَ، كأن الصفحة لم تعد تتذكر كثيراً مسيل دموع القلم، فاستسلمت لنسيان عميق!

كأن الصفحة بدأت تزيد من وتيرة صمتها فلم ترغب بملاطفة أقلامنا المتطفلة، والمزعجة لنومها الهادئ، وهي تمضي في سلوك طريقٍ أيسر في التعامل مع الكلمات، ألغت جميع تأشيرات الدخول إلى أرجائها والآن، بدأت بمداهمة الكلمات وإخفائها، هذه نهاية الكلمة والقلم والوجع الإنساني والإحساس بأي شيء، ما الشجاعة؟! الشجاعة هي أن نركب أحصنة الصراخ كي ندرك أبعاد الرفض ونتعرّف الحقيقة، ما الجبن؟! الجبن هو أن نخفي رؤوسنا بجوار مؤخرتنا وننسى حتى أسماءنا ساعة النطق بالحقيقة، أنا.. كما أنا.. أبحث عن أنا ليست كأناي، وإن لم تكن موجودة فأنا أبحث عنها، كم أنا مشغول بالآخر، حرصي على أناه تجعلني أكتشف أناي، كم أنا حزين كهذا الوحل الخريفي الذي راح يمدَّ ساقية للريح ولأوراق الشجيرات العريضة المرتمية على الأرض باصفرار حزين، حيث أمدَّ أحلامي غيوماً بيضاء وأغمض عيني ربما لدقائق، علَّني أكون فجأة بحيرة تختزن أحزان الأفق، وهكذا تعبرني الألوان والتضاريس، تكتشفني جهات المطر تبتكرني أنا لها وأنا لا أنا لي..

أيّار 2010 م

الصمت!

الصمت!! لحظة البدء في الحوار الداخلي.. لحظة تدفق الشعور وانبعاثه من القلب.. لحظة الأنين والشكوى المبهمة، والتأمل في الكون وتضاريسه الموجعة بتفاصيله وأنسجته المتداخلة.. حين نفقد شيئاً ما ونخفيه عن الآخرين لأنه يظل أسمى حسب وصايا الصمت.. نستمر في الجري وراء دقائق الحياة متعبين منهكين، نستلذ بالوصول إلى شاطئ الحنين عبر أفق أبيض، نشرع في بدء خواطرنا، نصمت بدهشة أمام الأحداث، تتواصل آهاتنا توهجاً، نرتسم في شفاه الرهبة المتعرجة.. الصمت لغة التعرج في مشقات الحياة ومنحدراتها الواهنة.. لغة تنبعث من صميم النفس وتتراسل ألوانها في خفايا الروح، وأروقته المهجورة الداكنة، تتراصف في مخيلتنا عبر تأملنا للسماء وترتد مطأطئة رأسها أمام توهج الأثير ورحابته.. هو لحظة إجلال أمام سوداوية المعنى وأصالة التألق ومدركات الجسد الشغوفة بالترهل اللذيذ المرعب في دق ناقوسه، والعمر الصامت يستوقفنا كشرطي أخرس ويردعنا في لحظة طفولة، وتتقاذفنا الروح في صمتها حين نلتف حول عوالمنا، نبتدع من الأخيلة شهوات لا تنضب، ننهل من خلال الصمت تعاليم الكون ووصايا الطبيعة والحياة، نبتكر من خلاله لغة أسهل من اللغات التي يحكيها البشر المراهقون القابعون في سجون الضجر والضجيج، نبتدع من الصمت لغة للهدوء الطازج، والتراسل الوجداني العابق في مساحات الحقول المزدانة بالنجوم، نبتعد عن فوضى الحياة وإشكالات الصخب ومواعظ الدفء ساعة الاسترخاء المريب، نفهم من الصمت تضاد الواقع وتناقض الوجود مع الموجود، ونقصان التام ومتاهة الضياع التي لا تنتهي، فنحفظ بذلك أناشيد الجمالية المتآلفة في تناقضاتها، ونعتزم الخوض في ملامح الكون الحالم، ونقرأ بها قسمات الحياة التي تعاني الألم المتعدد الأسباب والتآويل، ونستحدث التفاصيل في صمت سكران يتمايل في حضرة اللاوعي، ويستذكر نداءات فرّت من خدمتها الإجبارية، فالمسافة الخائبة ما بين الصمت والصراخ مملوءة بالحواجز الكثيفة، وسط

ارتعاش هائل تخفيه الحواس في تأهبها لاستقبال الصدمة الخفية.

الصمت هو ارتعاشة النبض وحيوية الخفق وتأملات النفس العاقلة، المدركة رحيلها.. الصمت إشراقة للأمل المعانق قلوب هؤلاء الذين يصرون على التشبث بعقولهم.. هو دقائق خالية من الأسف نمضي من خلالها إلى معترك آخر من العبث الروحي، نتأصل ضمن دائرة التعمق والتواصل عبر أنسجة الخيال تيهاً إلى السماء مستغرقين فيما يجول في الأعماق..!

العمر..

الكلُّ يغادر دون أن يحدث شغباً.. فلماذا لا تغادر أحلامنا الحلوة هكذا دون أن تتحكم في لعبة الوقت التي نمتهن ضياعها؟ لماذا؟! جميع الأشياء مبعثرة هنا، وهناك، وهنالك.. وثمة العديد من عبيد الحب يتجهون إلى كل الدور المهدمة والمهجورة معتقدين أنها معابد للتنسك وتأمل الذي مضى وانقضى واندثر.. حقاً كانت الأهواء خبيثة في تعاملها مع الأنقياء، بأن تزجهم بصدامات طويلة ومؤلمة تجاه بعضهم بعضاً.. كل اللصوص تشربوا ينابيع القسوة والظلم إلا هؤلاء، فرحوا على ما هم عليه، فهم ضحايا البدل الضائع من العمر المتبقي إزاء العالم الذي شارف على الفناء، أعرف أنَّ الضياع وراء تشردك.. أتعثر بشقائك دون موعد، تلتقين أرقي، هو ذا يقف ضيفاً مقيماً في كوخ شتائي يشرب من فيئ حنينك ببرودة أعصاب، أقابل وجهك أيتها الراحلة ببطء خلفي، ترقُّ لضمي وحيناً تقسو، وتبتعد، تطير كخيال ولا تعرف إلى أين.. آه من ملاريا الحنين، أشعل شمعة جديدة في الظلام، أتحداها بأغنية أو صرخة كي لا تنام مطمئنة، أو تغادر هانئة، ستدعو الشمعة المحترقة في ذكرى ميلادها المئوية، كل العاشقين الباكين، أن يناهضوا الليل الوغد بجنون، حتى يجددوا أحزانهم ويشعلوا فتيل حرائقهم، فلن تعيش جذور العشق مالم تنتفض لتغتال الأعاصير والظلام والأشباح، برعب عشق لا يتلاشى، بل يتشظى..

العناق

هو رغبة الروح بامتلاك دقيقة توَحَّد، عمرها الحقيقي، بعمر الأرض ووجود الإنسان، الارتقاء الكلي للروح والعَقل وقدرتها على الإحساس الحاد بالآخر.. طقس وجداني خصب وحار، يمتزج بالحزن والوداعة والإشراقة المبهرة.. رغبة في التآلف الجسدي الروحي، ومدى قدرتها على الخروج من الزيف والاهتراء والترهل، حيث تتنقل الروح في عالم صاخب، رغِم الفوضى يتجسد العشق في كل موقف، يستدعي التأمل في الزمن المغبر، وحكاياه المعتمة تخدش الأنفاس التي تعلن استقالتها في عصر الوباء، لكن ما إن نذوق طعم الافتراق، حتى ننزوي في أروقة اللقاءات القصيرة، لتزف العصافير بشرى لقاء وجداني، أو نعي فراق أناس رائعين، والعناق يبقى محطة موت هادئة تتداعى في الخيبة والتماهي بالفجيعة دون الوصول لبسمة أكيدة.

تبدأ موسيقا الحياة حين تجرنا وقائعها إلى الحضيض، تتناغم أرواحنا لتشكل سلسلة قيد أخرى! نحتفي بالأسى خلالها، وتتناغم خلجات أعماقنا في أتونها، نحلم بالألفة والمودة حين نتوهم العناق، خلود لحظة لا تتكرر، ومن خلال العودة للأحبة يمكن معرفة العناق، ذاك الفن العبقري الخامل، في الأذهان التي اعتادت موسيقا الغربة الشبيهة بنعيق الغربان.. نرتدي الأبيض لنفهم براءة الألوان فكلها عدا السوداء من سلالة الأبيض، حين تعاكسنا الحمامات البيضاء عند تحليقها، تضفي على حياتنا لحظة انبهار ورونق متسامٍ.. هو محطة ابتسامة فارعة بالمواعيد الأخيرة، وامتثال للذكرى رغم نواقصها وتتابعها، ورغم بعدها عمّا مضى.. العناق مسافة عمق لا تنطلي على الغياب بين قلبين، أدركا معنى التوحد والتأصل والتجذر في خضم المحبة المطلقة، وقيم الفيض المفعم بالأماني، نأبى أن نلتقط من التفاصيل المفجعة شيئاً قليلاً منه، ونسمح لأنفسنا بالنسيان، والتسامح يحل ضيفاً أخيراً في آخر محطات الوداع، وسط انبعاثة الغروب يبحث عن ذكرى مختبئة لا تصدر صوتاً.. العناق محطة من الوجد المتزامن مع الذاكرة التي تأبى الارتماء خلف شقوق النسيان، وذكريات نزيل من خلالها العناوين الملتبسة في حياتنا المتداولة، وهو طلب معجزة البقاء.. العناق ملحمة وداعية يرويها النسيان..

الكآبة

إن السعال الخفي لم يبارك جسدي، ولم يرحم ذهناً تربى بين النسائم واعتاش على الحلم واعتناق أسرار الأفق ذلك الربيع المتوقد فينا لا تجد الكآبة إزاءه وسيلة لاستئصاله، تعلقت الروح بأصدائه صامتة، تذوقت ظلمه في البرد، واللهيب استمد منه التضوع في الجو.. أنحني للكلمات في ارتدائها معاطف الحب، وتركها للعراك الذي يكتظ في الأروقة الساذجة، أنتزع الأنين مصادفة وأوغل في طيف أبيض، يسرع الخطا لمعانقة الأثير، أبتهج ابتعاداً، أقترف الدفء في أوكار البرد علانية، ولا أخشى لومة الصقيع، أرتاد أكثر الأماكن بهجة، أتحاشى الكآبة، أهوى الستائر المخملية التي تلف نوافذ الفندق الغريق بفوضى الجسد، في قلبي نار ورماد يحاولان التنصل من الحرف الماجن، والتأصل بالكآبة العدوّة، آه يا حزني، أهوى قضبانك، سلاسلك، أحترف صيد كلماتك، أتابع برامج اللهيب الحانق علي، وأدخل عتمتي، ينقصني وجودك أيتها الكآبة خارج كينونتي طبعاً، يصفق السنديان الهزيل بجناحين من الهلع المبارك، يقنعني ضياعي بالركون خارج مدرجات الكآبة، أدخل في قلب وحدتي كما الندى الذي يدخل قلب الزهور، أستيقظ كالصدى من صوتي، يدمّر الإيقاع عزلتي، ويترك حرّاسه على أبواب حنجرتي، أتجاهل جراحاتي حين أتبع حلمي وراء البحر، أتشبث بوسامة القرنفل ولا أذبل رغم ذبول الحب في، وفرحي الهائج الجائع يلتصق ببكاءاتي النادرة، والأوهام تجسد لي حقيقتي، وخيوط الشمس تتلاعب بي، تنسج من رموشي مراوح للهواء الرطب، ما أشبه أحداقك بالغمام، أيتها المرأة المعانقة لكل حقيقة متجسدة في الروح والفكر، أيتها المثقلة بغمام المطر، المتشحة روائح التراب المبتل، والممزوجة بالانهمار والتساقط، أنسج من ثملك مشهد الحياة الملونة، أغدو أمامك غيمة بيضاء باردة، أتساقط في حضنك نبيذاً وأجري حول نهديك بشكل دائري، أشكل نوافير العشق من جرياني وتدفقي وأتسرب من بينك، أعيدك لزمن النضارة، أنشر روائح الخردل في رحاب جسدك الوثير، ولا أخاف من التصلب والتصدع، ألجم قهر السنوات، أتجسد

بالحياة، أنصهر بالغيوم، أتجمع كالعطر في قارورة فضية.. أتساقط نجوماً في دوامة الكآبة، وأفتح جبهات الشوق أمام الخمول، أتسرب لوحدي كالماء الدافئ من صنبور كئيب، أبحث عن لمعان الفكرة المتقدة في ذاتي، وأسحق طوابير الأسى، لتلك العنينين المتصلبتين والناظرتين للعلو، أحلام لم تندثر، والرغبة ما تزال في أوجها، ومقارعة أذيال الجحيم، بات أكثر ما يحفز المرء على البقاء صاحياً على طول نوبته في جبهة الحب، تلك أحلامنا لا تخشى التموج في البحر، تترجم أغانيها إلى ينابيع، فالأحلام خطوتنا الأولى لطريق الحياة القويمة، أما المستبد الضعيف عاجز دائم ومعاق كريه، متلاش أمام جمال الرائحة العطرة التي تنبعث من تنهيدة البنفسج، ويعجز عن إيقاف النزيف العطر من الفرح والمرح، تائه في بطشه، غطرسته، نزقه، موته المتكرر، ولكن المعرفي الحر طائر في الجو، رسول قادم من مملكة التنوير، إنه يكتب ويصمت ويتأمل الأمل في النور البعيد، وتلك الكلمات التي ينسجها من روحه تشكل منارة لحضارة لا تصل إليها الخفافيش العوراء، بل تنقش المسرة الحقيقية في مدارات الوجود، لأجل أن يعش أبناء الوجود

الهدوء

الصمت يعلن نفاذ بصيرته من جراء البكاء، غدا لحناً أصمّ، استقى أوتاره من اللاجدوى، ينساب الصدى قلقاً من صوت تاه في الظلام، أو نابضاً في شرائع الحقيقة الوجدانية، بقشعريرة تسترد الأنفس نحو الصرخة المفعمة بالاحتجاج. أملٌّ من التحدث، فأقع أسيراً لمتاهة مغلقة، مغلفة بالحرائق المغبرّة، ويحدق بي العصفور طويلاً، ويخيل إلي بأنه يقول: (أين أنا من نفسك المتعبة ياصديقي، وحدها المآسي من تصنع الإنسان، أم تراك تتلمذت على أيدي المتعة الخفية فبدأت تشعر بفراغ مميت، انهض ياصديقي فالنداء مازال هو النداء، متشبث بالحقيقة التي يسمو بظلها الإنسان لأبعد من فهم الموت، أتراك أيها الأعمى قد تعلمت من عتمتك الدائمة حلاوة البصيرة التي فقدتها، أني أيضاً مثلك أرتقب في غنائي حلاوة الغد القادم، أتوج رحلة الطيران في دنياي، وأخاف أن يتساقط المطر من فم الغمام فأمسي وحيداً في العش)، أتوجه نحو الطبيعة والنفس، أتنبأ بمجريات جديدة تعم حالة الاستكشاف، ترسم حالة التجلي في عوالم الحقيقة الابداعية، ترسل رسالتي لآخر المطاف لنهاية تعلن بداية أخرى، وحدها المآسي تخرج هتافات الدموع العذبة، فقد تعلمت من الهدوء أشياء لم أتعلمها من أجواء الصخب.. علمني معنى الانسياب، واستنشاق الحب في الزهور وتذوقه في المياه، ورؤيته في ألوان الطبيعة حيث الجمال الكلي، عرّفني الهدوء على تغاريد البلابل، وهمسات الأنهار، فأصبحت أغرد، لكن الآخرين لم يتعلموا مغزى أنيني وترحالي لما وراء الطبيعة.. أرجوك أيها الدرب الطويل، علمني كيف أسير لأجل أميرة باتت في حياتي دمعة كبيرة، تساقطت من عيون الخريف، باتت غصناً يابساً، يعاني الشحوب والاصفرار! علمني كيف أحميها، من نظراتك المرهقة، من وعيدك لي بالسفر، باتت حياتي، وخيالي الذي يلفظ الحياة بثقل، أشرب نبيذ النار لوحدي، وأنا أتأمل، وقد أبحث عن وسادة، أرمي رأسي فوقها، أستسلم لرؤية النجوم، ممدداً، أصغي لليلي، لحكاياه ونجواه الدائمة، لأنينه المتواصل والمتأصل فينا، لكن

ماذا عني، ألا أستحق من الليل إصغاء لرواية مالحة كالدموع.. كلما جالستك أيها الليل، كلما تعمقت بكنه حكمتك المنسية أكثر، تفوق بصيرة المسنين، وذات الشعر الأسود حين تراها تبحر في سوادك، ألا ترقبها قليلاً، تهدي لها آهاتي، ألا تخبرها بسر بكائي المحتوم، لاحتراقي، ألم السفرجل، ومعاناة الدراق، مرارة لكل الأبرياء الحالمين، لشكل الحياة الجديدة، لن تخرج أيها الليل حقائب سفرنا، فبرودة ملابسي لم تزل مطوقة بدفء الحياة، ورزانة الهدوء، تطوى ورقة، لتتفتح وريقات كثيرة تحمل جداول أنهاري وبشائر أمنياتي الحالكة، وقد تعلمت الطيور كثيراً من طقوسي العابقة بالعبر، لم أخبرها كيف تزف ملكة الغيوم ذات الشعر الأسود إلى أمير الأرض، لكني بدأت أستشعر عن عبور كائنات جديدة إلى عالمنا الخائر القوى، وسأبدأ مجدداً في الحديث عن مآتم التغرب في بلاد عشت فيها، إذاً فالأحرى بنا أن نسأل عن معاناة أناسٍ، وجدوا الغربة في بلادهم، ومنازلهم، وأهلهم أشد مرارة من غربة الرحيل، وترك البلاد..

الوجود

ليتني أغادر الوجود، هل هو حقاً ذلك الوجود المعلن أمامنا، ذلك الذي يلبي فينا شهوة الموت، نشوة الاحتضار، هل أنا ذلك المغادر الكآبة، المتداخل بها، أم النسيج المتأوه بين أصابع النسّاجين، أحمل جمراتي، أرمي بها بعيداً، أكتب للحنين الذي لا زال يلفظ أنفاسه الهائلة، أقاوم شهوة الصراخ ملء جحيمي، أسير وراء ذلك المدى المتعب، أخدش أنفاسي الهائلة، أرمي بها إلى قوس قزح، أستكشف الأرض علني أعثر على أيقونة الخلاص في معابد النسيان، أتطاير هلعاً، أستيقظ وراء ذلك الجحيم الفوضوي الذي يعانقني، يرفض الانفصال عني، كل ما أعانيه يزيدني موتاً، يزيدني اختناقاً، أنا ذلك الخلاص المعلن في زمن الانتهاء، أفك أبجدية حزني، أتأوه ملء الحيرة، راسماً أناي تسيل كاللعاب الجاف على سفح الأخيلة، لا أزال، بالرغم من جحيمي، بالرغم من هواجسي، أفكر باسترداد ضحالة الإغماء.. أكتفي بشرب قطرات من الأمل علني أهدأ، علَّ ألفتي تستعيد أحلامها مع الأجواء، علَّ طائر السماء يقتفي معراج صمتيِ وبراقه المتناثر رماداً في سماء النحاس، ليتني أغادر الوجود، لو أن سماءَ من النحاس، تندلع على جبهة الفولاذ، لو أنَّ وعود الخريف تتحقق باستردادها للأحلام الشقية، والوعود المبتسمة، لو أنني أغادر زمن الحمى والصداع المرير، أكتب حيرتي لهذا الزمن، ورغبتي في امتلاك الناموس الأعلى للتبلد، والتصقع في مدار عبثي خارجاً عن أنظمة الحياة، أضيء لهذا الهواء، النور الذي يظل يشرب من حساء الأمواج الشاحبة، لو أنني وطن للأعالي، وطن تتفجر من ثغوره صيحات الثائرين الملبين انتفاضة الهياكل التي أتخمت جوعاً قرب حلبات النزيف، ذلك الوطن المتناثر في أجواء المدى المتعب لاستطعت أن أقدم وراء السعادة أكاليل الرماح المنتصبة على مائدة التعب والشوق الأخير، سأكون ذلك المحظوظ باستمالة الوقت إلى جانبي، أنقش رخام الدهشة في جبين الوقت، أطير معانقاً جبهات الهواء، أهتدي للموت.. للياسمين على قبور الأولياء المتخمين بالطقوس، أهتدي للانتظار المرهق، أكتفي بالحب

أولاً وآخراً، أكتفي بوابل من الفيض المتأخر، أطير وسط الزحام وهذا الفحيح، لأتناثر بسعادة ومرح، سأطرد جميع الأشباح الفوضوية عن مملكتي، أطرد ابتسامتي الزائفة في وجهك الزائف، ذات صدفة زائفة ضمن وجود زائف، أطالب بالعزلة الشجاعة ساحقاً العزلة الجبانة تلك التي ينعم بها كبار الجبناء واليائسين وأصحاب الكروش الكريهة المنتفخة في وجه الجائعين، أطالب بالصفاء التام دون ضجيج في خضم هذا الوجود البائر، إني ذلك الانتظار الخائب والوعد الآثم والوعيد المراوغ، ذلك التعب الحالم بالاستراحة القصوى، ذلك التعب المحاصر بكتائب الأمل المرتزقة، تلك الأنفاس المتشردة بين رماد الاحتراق، لو أنني أغادر الوجود والوعود والشرود والبرود لاستطعت أن أهب السعادة برحيلي من هذا الوجود، إلى كل الذين يتنفسون روائح عرقهم في عبق الزهور والورود، يتأهبون للحظة استرخاء طويلة الأمد، أقول لهم حان الوقت لننقض على جشع رغباتنا قبل أن تنمو أليافها وتنتشر لتقضي على ما تبقى من أحواض تأملاتنا القصية، لو أننا أيها الزائلون، نقوشٌ على ظهر الأكف الغجرية، لو أني امتحان مرير أمامكم، كي تتقدموه بلا مسابقة أو اختبار أو مفاضلة، لاستطعت أن أطير بكم عبر شقوق المعابد القديمة والجدران ذات الأطلال المتداعية، لكتبت على وشاح القرنفل الأحمر بضع أمنيات جميلة، لو أنني أغادر العالم لاستطعت أن أحقق تحت التراب سعادتي المشتهاة، لو أنني ذلك الوعد الحائر والوطن المتعب من نداءاته، لارتكبت جنون الحرف ولعنته، لتوسدت الكون لي أعجوبة حيرى ورماداً ضالاً، لكتبت على جبين السعادة ألمي الطويل، لجعلت السعادة تتلمذ على يدي، لأمنحها خاتمة الحزن في لحظات النشوة العاقة.. لو أنني أغادر الوجود! لاستطعت لعن بيارق الأرض في نفاقها ولكتبت على موائد الرحيل بضع ذكريات مهترئة كتبتها من أجل أن أستعيدها للأبد، وفي داخلي زمن مشرد ينهض من ثقلي فيتمرد علي بقوة، لو أنني ذلك الموت الأزرق، لخطفت السماء الزرقاء ودعوتها خلسة لوليمة البرازخ العمياء علَّها تهتدي، لو أنني ذلك الحب السرمدي لاستطعت أن أهب نفسي خيطها، لو أنني ذلك الضباب الحائر لاستنشقت

لغة الصفاء بملء توهجي وعريني وناهضت اضطهاد الليالي للقلوب العاشقة، لأعلنت عن ذلك الزمن الأعمى الذي يسبق خطوات الزمن البصير نحو السعادة والخلود، لو أنني ذلك العمر المتبقي من هذا العالم لاستطعت أن أكتب للمستحيل شقائي.. لو أنني ذلك الحب المتبقي من هذا القرن.. لاستطعت أن أسير وراء الجمال عاشقاً، لا يعرف الخيبة أبداً، لو أنني ذلك الوهج الألق لرسمت صوتي على جبين الانكسارات لو أنني.. لو.. ليتني.. أ غ ا د ر ا ل و ج و د..

صباحاً 2010/6/10

إيقاع الحيرة

عندما تساءل الربيع عن سر اهتمام العاشقين بقدومه، قرّر أن يكون مفكراً وفيلسوفاً، يفرض سطوته الرهيفة على الفصول الثلاثة التي لا تجيد الكلام.. قرر أن يكون البشر عامة، والعاشقون خاصة، محط فكره، فعمل أولاً على إثارة نسائمه في وجه الفتيات، ليشعرن أن أنوثتهن من الربيع لا من سواه، وعندما اجتهد وعمل على فكرته، حدث أن بدأ العاشقون الالتقاء، بعاشقاتهم في حضرته، حيث تنتابه السعادة الممزوجة بالنار، فكان ذلك أوّل مناسبة جعل فيها الربيع أحد أشهره الجميلة، وهو شهر آذار موعداً لاجتماع كل الورود والعصافير والولهين أمام الطبيعة فوق التلال الشامخة، ولعلكم كنتم تتساءلون عن سر روعة الربيع ولا شك أنكم أحسستم بإبداع هذا الفصل وتفوقه في ميدان الحياة.. أتأمل أغنيتي الحزينة التي تنبعث من جوّالي وتتسرب عبر أذني لقلبي، من خلال السماعة الرهيفة، تحمل الأغنية صداع الماضي الذي "لو عاد لكرهناه" كما قال هتلر، لكن ظله يتربع على عرش الحاضر المتخم بالتذكر، وهذه فرصة كل المهملين والمهملات، وهو أن يفكروا، لماذا كان النضوج العاطفي فيهم مشتعلاً دون جدوى.. أترقب كل لحظة قد تجعلني سعيداً بحكم الانتظار لمفاجأة جديدة، ولكن عبثاً، فسرعة الزمن وابتذال طرقه في معاقبتنا، تتبدد شيئاً فشيئاً، فالأزمة التي فيه، يعانيها السجين الحالك كالظلام تماماً، وعندما يعاني خارج السجن يعود بتفكيره إلى تلك القضبان، يلتمس فيها وجود مسرح محاط بآلاف المتفرجين المجانين، فيحنّ إلى تلك السجون البسيطة التي تحمل السعادة دائماً في عناوينها اللاذعة المحملة قسوة الكتمان، هو الربيع كائن الحنين الأول، ورائد النشوة الغريبة، وقصيدة مضمخة جدة، وغارقة في البدانة، وراقدة ضمن تتمة فكرة لا تتجزأ، رغم تجزؤ الحلقات التي نستمتع بتفاصيلها، ندخل من خلال الربيع البهي، المعتصم في ذاكرتنا، بوابة الوقت الشاهقة، نحتضن دقائق الحزن ورهافة الأمل عبر ثوان من حنين، نلتمس في عطور آذار، يقين الحياة المتصلة بحركاتنا نحو الضياء، نختبئ

خلف شرودنا، ضمن مدار دائري يأخذنا لفسحة البداية الجذابة من خلال ترنمات مذهلة، تتصل بالواقع الحي الذي نعايشه في الخفاء أمام ذلك المنطق الذي تديره حلقات أذهاننا بتواصل شبه دائم.. لا تقطع ترنماتنا أيها الغبار الأليف كمناظرنا الشاحبة المتوطنة بالفزع، إنه وشم الربيع في قلوبنا، وفي كتف النبضة الجارفة، أتعلم كم كانت الترنمات غضة ودائمة فينا، تسير بنا رغم الهاوية المتسارعة، تلتمس الصفح من الأشياء، فتأخذنا لحظة إلى الأعماق التي تحتوي أرصفة الثملين بالوجود وعشقه وهندسته، طوبى لهم يرون كل شيء، لا تترجم ما في أرواحنا أيها الغبار السميك، نحن أخوة الربيع المغترون ببريقنا المجنون أمام وجهك الحيزبون، لغتنا المتأصلة بالفن تطل فينا وتتباهى باتصالها بالطبيعة ولا تأرق أمام سهد الخائبين.. أما الشرود فيحاول أن يجزئ عوالم المأساة، ويفككها ليدخلنا واحة التأمل من جديد، حيث ذاك البوح الذي يتصدر الأولية في عالم الشعور، يترسخ في دوائر الواقع المتشعب، يوقن قراءة ذواتنا المبدعة التي تخلق من الديمومة الصامتة قوة أرقى من كل آليات اجترار الفجيعة المتزمتة التي ارتطمت بالانجذاب العصي، لكننا مع الطبيعة نرغم الفزع على تقمص المرايا الصافية التي يصنعها لنا الغيم الفسيح، ويحاول الربيع أن ينجز السفر الطويل في أروقة أرواحنا الموصدة بمفاتيح مفقودة، وتسترد تصوراتنا الكامنة في دقائق المناجاة الكامنة في الحنين الداخلي، فنخلق ذلك الطقس الأثيري في خلايا أدمغتنا، نعاني الضعف فينا، ونتأمل المشهد المورق بالبسمة كي ننتفض كانتفاضة الجحيم المعانق للموت، متمسكين بسمو الأثير في خلايا أدمغتنا، ساعين في شوط دائب لاكتشاف البريق الذي في الربيع من خلال أفكارنا المرتبطة بجمالية التناقض وسلاسة الإبداع الطهور لدى اطلاعه على مناقب السعادة فينا، ونتعمق في الأحاسيس ملياً لنخلق المتعة، الممتزجة بالتساؤل، أصابعنا الحالمة تتلقى وحيها الهادر خلال الزخم الدائر فينا، وعبر الحلم نتصل بالنور خارج قيود النوافذ والستائر، والظلمات الكثيفة، نوقن اللذة خارج انحسار الضوء، ونلتحف الشهوة في ظلال أسطر تتحدى رهافة الموت في تداخله بأشيائنا المعتادة، لنرتقي درجات اليقين السامي، وما الحقيقة

سوى وهج الربيع ووصاياه، إنه يرسخ فينا لذة الإنجاز، بعد جهد قارس، لصعود القمة حيث السعادة الشاقة، ما تزال الحيرة تقتلع السكون من جذوره المتصلة بنا.. ما تزال الغرابة تدور في أرجائنا، فتجعلنا كالدمى المتحركة نتمايل وسط هدير مجهول، هذه هي حقيقة ذلك التوتر الذي ما يزال يقيم ضيفاً بدائياً في داخلنا، يرسم خرائطه في دمنا، ويحيك مؤامراته في أنفسنا، لقد اعتدنا هذا الركود والبرود.. الكتابة والكآبة جارتان والحب والكره عدوّان في ذات الإنسان لارتباطهما بالأنانية.. العالم الدائري يحاصرنا بمتاهاته، يحشد الهواجس، يشعلها فينا فتبدو لنا البداية كالنهاية غير مسبقة ولا متوقعة.. الكون يقيم في صرخاتنا، ينبعث في نداءاتنا. العالم الذي نحن فيه ضيق كحدقات العيون الجاهلة، الممتلئة بالخرافة، لكن العيون الحالمة العارفة تتيقن من جمال الكون وسعته، والتساؤلات تسبح في بحر من الجمال الغارق في عشق التفوق والارتقاء، في جداول حياتنا تندلع نيران الأرقام.. تنتفخ عضلات الوقت عبر خطواتنا المستعجلة اللائذة وسط براري الحزن وأوجاع الغد، إننا كالخوف نتقن تقمص الاحتضار في وجه الحقيقة ونعيش ركود العطر ساعة رحيله من مدائن البنفسج والعنبر، إننا كاللعبة المتحركة نتفنن في صناعة البسمة وسط المآتم.. وننهض ساعة يشاء الموت من سبات معلن، إننا متسامحون ازاء الخطيئة، نجيد الاستماتة ساعة ركوع الحرائق رغم ما يخلِّفه الكلام من وقع على القلب والعقل معاً، إلا أن القلب أقرب منالاً من التقريع، والعقل أكثر إصغاء إلى المنطق، أصبحت أدرك أن للعصافير ألسنة لم تعهد إلا حفيف الشجر، وهدوء النسيم، رغم ما تخشاه من طيرانها عند بدء المطر، حتى نسير على طريق الحرية، نحن خاضعون لرياح التشرّد والفرقة، في بدء الخريف، عندما تبدأ الأشجار بحكاياها الدامعة، فهي تشقّ طريقها عبر الألم وذكريات الماضي، لكنها تنسى وتميل أغصانها إلى حكاية أخرى تجسيداً لمعاناة أخرى، حرية الانتقال من وضعية إلى أخرى، لا زلنا لا نعرف الدرب اليسير إلى السعادة دون الشقاء، إلى المرح دون البكاء، شاءت التصورات أن تلتقي روحي بتنهدات المكان وبرودة الجو، لم أشأ البدء على هذه الشاكلة،

لكنها الرغبة الخفية، هي من جعلتني راوياً للحظة ما، مصوراً لرؤية أكثر رزانة وغموضاً، فلكي ندرك المتاهة علينا الامتثال لمتاهتنا الصغرى، الهيبة هي من جعلت النسور تحلق بعيداً لتصل إلى النجوم، الكبرياء من يشعر الحمامة، بأن تملأ السماء بمياه الهديل والطموح، هو من يجعلنا أسياد أنفسنا، فالحب وجد في قلوبنا منذ الأزل، لم يتحين الفرص، هل ينساب العبير عبر المدى دون أن يفسح مجاله للدخول إلى أرواحنا، كانت الدموع أجراس أعياد في الليالي الحالكة، فكما أن للحنين جناحان يطير بهما، لكن ماذا عن رجوع الحزن إلى حنيننا الأبيض، تحطيمه لجناحين خفيين، كانا يرسلان إلينا هدايا الرجاء ووعوده الخضراء، أيها الشوق الوسيم لحظاتك الأخيرة هي لك، عدني أن يسود حلمك الطويل على صدر المنعطف، أيتها الأحلام لي ذكريات في خضم أمواجك العاتية، لم أفقد أمل العبور في محطاتك القصيرة كنت أترقب بشارة تنسيني طعم الأرق والنحيب، يختبئ الحنين حيثما ذهبت، يتربع في مخيلتي، ينثر غرائبه في إصغائي، ويسكب مياه الألفة والمحبة في بركة الروح لا ليختفي بل ليبقى فما كنا سنعتاد على قدوم الفرح لو لم يستأخرنا الحنين للحظة عثرت عليك أيها الزمن وكنت تتأملني لكن من دون أن أشعر بوجودك أو أهمس في نفسي سائلاً عن أساليب حديثك، إن الدموع تنهمر دون أن تتقيد بمواسم الانهمار لأنك في كل دمعة أذرفها في كل همسة أرسلها أتصورك إلهاً يهب القلب لينتزعه متى يشاء!

أيها الظل

الكلمة تنقش بكم القلب على أحجار الغروب، تغمد خنجر البلادة ببطنِ الغيمة الحبلى، تلك التي تصعد فندق الوهم لتنزل في ضيافة الشتاء، فيعمّدها البريق بمياه الطهر، تسوقها جحافل الضياء فترتفع بقامتها على جدار الريح وأعمدته الكسيحة، للغيمة في يرقات همومنا تضاريس الشفق على جمجمة الشعاع الماثل في ضباب الأخيلة، ووحدة الفتنة المتبرّجة في ساح الدخان ذي اللعاب النزق، تقشّر فينا رقائق الخيبة، وتكسر فينا ألواح الفناء، لتبهر نهر الفزع في تصاويرنا، لمودة الريحان عبيره القابع في دهليز خرافة عرجاء، تشحذ سحابة عجوز تفوح من نهديها رائحة البصل المجفف، لمودة الرياحين لفح صقيع شرس، ينتشر في حقولنا المشدوهة بنباتات مسمومة وأشواك مسنونة، وأنوف ترصد حركة الشم من أبعد الأمكنة ذات الوعورة الماكرة، للريحان قيئه الذي يشبه لعاب الحلازين ولعاب المطر المفقوء في أحداق الضفادع الأليفة، فهو يخدش عورة الظل المتلاصق بسرة الغيوم العارية، تلك المختبئة في أعلى سروة، أو خلف شهوة، ورعونة أشجار البلوط الشبقة. للمارد الأبيض في خطواتك المشتبهة بها سعالك الخفي أيها الظل، تقف بالأسفل من جحيمي اللائذ بمهجع جسدك، فتخفي رعاف زغبك وراء مخيلتي التي ترتجف أمام أمطار امتدادك، وكأنها تترهب فيك، اسقها كأس قيئك وراقب احتضارها، تفنن في تعذيبها وراقب ادخارها لبعض الكآبة لإشعار فرح مرتقب، واكتب أيها الظل المتعفن بالصمت والإيديولوجيا المعلبة أغنية الشوق للحقيقة، وعربد ثملاً في مخدعها الوقور، تأمل انتدابك الشيطاني على معابد النسك، والصعود إلى القمم.. تلك كانت أمنية زرادشت قبل أن يصل حتفه في منارة باردة علوية، استدرجت الجنون، المحْ أيها الظل مشهد سرابك الأعور، باغته بكل سراب جديد، فلا جديد مع الموت ولا حقيقة أخرى ماثلة، غير أنَّ محكمة الأسف وماخورة التآخي قائمتان باسم الاتحاد.. مدَّ يديك المتسختين بوحل الجمر والحنين، مدّهما بسخاء نحو وحدتي البائسة أسيرة الاحتضار في كأس يحتوي عقرباً

ناسكاً أميناً عاماً لتنظيم السموم في أوردة العذارى الموشومات بنقش العهر والعبودية الناعمة. أمطر سوادك الأفعواني في هزيع من الغرابة واحسر عينك الوحيدة المترملة بشال الطمأنينة الغبية، واستقبل الطلقة العذراء المنبعثة من مسدس الموت الكلب، وحيي برفق بارود أحزاني الجهنمي كي يرضى عنك ثمل الليل وتمساحه المختفي تحت قيعان بئر لا نهاية لأعماقه، وانتف شعر الليل الأشيب مثل نخاس يستوطي جدار عبد آشوري أو تراقي، ثم بارك سبطانة الغياب ورصاصه الغارق بأسيد العشق، وإكسير الخلود.. انطلق أيها الظل المترمل المنسحب المتآكل مثل حديد نجس، وفك غلالة ظلي فأنا الأسير في متن بواخر الهشيم وزوارق القراصنة المخنثين. صمتي يدمن النظر إلى الأعلى والسقوط باتجاه القمم، لا أسفلها.. يدمن صمتي ذاك الصبر المرّ الذي يحط دون قفازيه على زبد البحر الكافر، ليتعاطى غثيانه الزهري، ويبتكر أرغفة النور ويمتهن عرسه الشقي، فوق طاولة المحيط الكبير! أيها الظل، يا من تحديت شحوبي وبصقت مثل لوطي فوق انتصابات قلم كهل يعرف من المستقبل ما يجهله الماضي المعتوه والحاضر الكسول، ويرج محبرة الكبرياء حتى يقلب المداد دون مبرر، عله يكتشف القمة الكبرى للعبث بنصف هياج لعين، راودتني عيناك أيها الظل الحاضر الغائب، الأسير بخوف يسكن صدراً تشرد بين شفاه عابرة في أسرَة مهملة بفندق رديء، وقرب الباب السحيق يرقد قمل برأس قرد أفريقي يخم خم داعراً في زاوية من سيرك.. أحلامي الواجمة قربك أيها الظل تستولي على مراكبك العانسة العابسة، فماذا ترغب من عنوسة قهر لم يتجاوز الخمسين بعد، وهل ستسرق مجدداً تذاكر السهو في الذاكرة؟! هل ستجعل أغنيات الملاحين تسيطر على هدوء البحر، أيها الظل.. تقف وراء كل حادثة وتراقب اللصوص والمنظرين والكاذبين في بلادي يبتاعون قمامة الكلمات ويسيرون كالقمل في الشعر، وينجبون الهزائم توءماً إثر توءم ويهتفون باسمك يا ظل.. يا أيها الجهل..

2010

تخبّطـات

الوحدة قادرة على إسكات الرغبة، كبح الجماح، وإحياء الروح واستنهاضها من سباتها، لتتدرج في النهاية عبر بوتقة الاستقلالية والتفرّد في عشق العالم دون منازع.. التفرد بالحب، ليس تطرفاً، بل هو طقس عاطفي خاص، يمارسه المفكِّر العاشق مع الأشياء التي حوله، كصراع أساس من أجل البقاء والارتقاء نحو الصفاء العميق كشعور النبي بالتوحد مع الله، كطقسٍ روحاني شبيه بالمونودراما، أي حركة الممثل المستقل على خشبة المسرح، وتفرده بالنجوى القادرة على إزالة النقص من خلال إحساسه بحتمية الحب والولادة التامة الخالية من هاجس الإعاقة والشللية. إن الرغبة بين الثنائيات البشرية ليست سوى تفسير متمم من التزاوج الوجداني السامي وحالة من الاقتران بين الخصب الشهي والغليان الملتهب، حالة من الإشباع والشعور بالحرمان ثانية، ازدواجية الإشباع والحرمان هو مثار تجديد واعد في الحياة، للحصول على أقصى درجات الاشتهاء والبقاء.. لقد استقى المجتمع الماضوي المتقمص أرواح المحنطين، والجبابرة المهزومين، والكهنة وتزمت المتصوفين، كل معايير الكبت والشعور بالفاقة الداخلية، خلَّف عبيد الجنس والشَّواذ وكل الذين يدعون للأصالة، كل عصبة الفساد تربوا على هذا المنطق المهشم المتجمد من عرف بائد، وألغوا المنطق المساوي لحق الاختلاف فكل من ينشق عن هذا العرف الصوري على حد زعمهم كان من حثالة المجتمع السفلي! ومن يسير في ركاب النضج عليه أن يلوذ في البحث عن محاسن التفكير في الأشياء، وإعادة النظر في كل المسميات التي تظهر أمام أعيننا من شعائر ومقدسات وتقاليد وأعراف، اعتدنا التنظيرات المملة والقوانين المترهلة الجوفاء، أعلن العالم المتمدن الحرب على هؤلاء، و هم بقية مازالوا يسكنون أعماقنا البريئة الممتصة غبار السلف المقلِّد.. إننا في مرحلة التخبط الآلي، فالتاريخ شاهد على حماقات البشر في اختلاف آراء المؤرخين، وتحيزهم! فاحتدام الصراع بين الحضارات والشعوب والأديان والأعراق، بداية النهاية نحو الاندثار الكامل حيث يقف التاريخ ساخراً من

أكاذيب ذوي الأمجاد وتوسلات المهزومين دعاة الحق أو المجد، وقد وقف عاجزاً الآن أمام المتغيرات فمن سيدون هذا العجز، عجز إنجاب أكاذيب متقنة، لابد من تشخيص التاريخ في مختبر السونار لمعرفة رحمه وهذا السونار يكشف الماهية أي الحقيقة الواقعية ويختلف عن السونار الذي من خلاله يتم تشخيص رحم المرأة! قيل إن القهوة تمنعك من النوم، وكذلك التفكير بالمرأة، وإن الشيطان عجز عن ابتلاع الأنوثة طوال عراكه الأزلي معها، وقيل إن (أنكيدو[7]) مات عجزاً حين أحسّ أنَّ الدنيا فاقته جبروتاً، وإن المومس التي لعب معها سبع ليالٍ أرهقته جنساً ودلالاً، وجعلته يفقد توازنه، طبعاً إن لعشتار السبق في إغواء (كلكامش) من أجل الزواج، لكنه اكتشف اللعبة بدهائه المعلن، وأبى فظلَّت تلاحقه كلعنة لابدَّ منها وللأبد، ظلت ذلك السر الذي ينفي خلود الإنسان بل زواله وموته، والجسد الأنثوي أجمل نعيم زائل يزول بمحض الزمن وتغيراته متحولاً إلى مومياء، إذ لا أحد يدرك طريقة تحاور المجانين مع الأذكياء، وتجاوزهم في كثير من الأحيان، ففي الغالب حين يقصّ العجوز حكايته على مسامع الفتيان إنما يقوم بالتعويض عن جوانب من عقد النقص المتبقية فيه.. وعلى افتراض أن العجوز سيستعيد أرشيف الماضي ليخلق للحاضر الآتي الغائب عنه عقداً جديدة تتفاعل من خلالها عقد الماضي بأحداث الحاضر، وحلقات المستقبل وأجياله، إن كنَّ نساءَ، فإن عقولهن النشطة سرعان ما تشيخ لكن عواطفهن تتعزر، ولا تنضب، وتبقى البديهة المتأثرة رابضة، وتبقى المتعة الخفية ملموسة مبتكرة وفق إيقاع الإحساس بالفناء، وأبجدية الصمت..!

الرجل الذي يعشق المرأة، لا يجيد إخفاء ذلك الألم الذي سرعان ما ينغمس في عقد السادية والغرور، مصراً على ارتكاب الهفوات ذاتها، وبطريقة متكررة، إذ لا معايير تربط القديم بالجديد، فكل شيء يتناسب عكساً مع الظروف وطبيعة الأطوار، فالحب والضمير والواجب كلها قيم أسيء استعمالها في الحاضر كما كانت تعاني المخاض منذ الأزل البعيد،

7- أنكيدو، كلكامش/أسماء ملحمة تم اكتشافها في بلاد الرافدين.

فالجمال المخبّأ في العقول النيرة، هو مفتاح الحقيقة، وهو الذي يستطيع كشف الزلل في ممارسات الإنسان مع نفسه والآخرين، ليثبت دلالته الخيرة بالتأكيد، لقد عملت في قسم الحب منذ أن تعلمت الكتابة على صفحة السماء، بمجرد أن تتكحل بلون السواد، وتعلمت حكايات عن الألوان المعتمة خاصة. وكنت أقدم أسئلتي كناقد، منذ كنت طفلاً، فالعلاقة بيني والكتابة قديمة قدم طفولتي، وعلاقتي بالمرأة والأشياء التي تربطني بها، وعالم الظلام ظلَّ يغزوني على نحو مبهم.. أقدم نظريتي المتواضعة التي تبدو أكثر دهاء من نظريات الآخرين وادعاءاتهم البارعة. التأنق في صعوبة امتلاك الأدوات غير ناجمة عن التردد! بل إن خوض غمار التناقضات يجعل الفكر منسجماً وإن بتنافر مع المتغيرات، قدرة المرء على الحبو أظهرت قدرته على الوثب وبخاصة حين يتمكن من تجاوز سن البلوغ، ومعرفته كيف يثب صدر الأنثى، ويمارس الحب المحبب إليه بعنفوان الصبا ورعونة الشباب، الحروف تجري كالنهر في هذا العالم الصحراوي الأبيض، هذا العالم الذي أجد فيه الكثير من الفتيات العقيمات اللاتي لا أجد نصف واحدة منهن على أرض الواقع، عالم الكتابة بالمطلق، عالم تراصف الأحرف ببعضها، وتأليفها من خلال انتظامها سيمفونية الصمت التي لا تنتهي ولم أزل أحفر أبجديتي الدافئة على هذه الدروب الظامئة التي لا تعرف سوى آثار الدهشة والأسى الرتيب، هذه الدروب التي لا تشبه تعرجاتها كل الدروب التي نمشي عليها، إيقاعات الحب تصحبني وتتعايش بي كعادتها، أشعر أن قلبي يعبق بأريج صدرك المخبأ في حضن البراعم الملونة التي تضم الفصول الأربعة، تجعلني أتوحد مع الكون، بالرغم من أن الولادة والموت نقيضان متنافران غير أنك استحضرتهما في داخلك..

تنافر

السيد الرابض على المقعد الخلفي من هذا الزمن الأسود، يلغي كل مفاهيم الرجولة، والوجاهة حين يكون الأمر متعلقاً بحبيبته التي ألغت فيه كل الألقاب الكبيرة، حين راح يقترب من حبيبته اللامبالية والمستعجلة للذهاب، أخذ يحدثها بأسى:

- عيناي تلاحق دموعك وقلبي يرسم شفتيك في كل نبضة يطلقها بأسى ومازلت صافية، دافئة عندما تبكين..

- هبني فضائلك وانصرف ما عاد صوتي لك فالدنيا لا تبتسم للعاشقين سوى مرة واحدة، لقد أضعفتني وبدونك سأقوى حتماً ولن أكون امرأة ضعيفة من الآن..

- لا تقولي ذلك أرجوك، فالربيع سيأتي وبسعادة سيغمر حزننا، لقد غاب القرنفل عن صدرك فأصبحت تحتضنين الشموع المطفأة، وتنامين وأنا أعد النجوم وألاحق كل طيف يستطيع أن ينسيني حبك..

- حقاً؟! هذه طريقة إيجابية، والآن هل تريد شيئاً آخر، كرر هذا الأسلوب، و ستنسى وجودي قريباً، وداعاً..

وهنا بدأ الرجل المسكين يتألم أكثر فصرخ بوجهها قابضاً ذراعيها بكفيه صارخاً:

- أرجوك، أشعر بالحنين والألم، غربتي طالت، وأظافرك تنهش مخيلتي وصفحاتي.. حين تكونين معي أشعر بامتلاك العالم كله، حين تنامين على كتفي، وتقدمين لي حنانك المعتاد، أشعر أن أوهام الحياة، ومتاعبها تتبدد أكثر فأكثر، لكن سرعان ما أفتح عيني على الحقيقة المريرة، أنظر إليك، أجدك اختفيت، فأعرف عندئذ أني لم أزل أحلم، وعند ذلك بدأت الفتاة الجميلة تهدئ من روعه:

- كان أملنا مختبئاً في السماء التي لا يبصرها أحدٌ سوانا، لماذا؟! لأننا قادرون أن نعطي للجنون مبررات وغيرنا لا يستطيع ذلك، كما أن لصراخك تأثيراً عليّ، لكنه تأثير ضعيف صدقني ولجنونك ثورة مريعة، فقد قررت أن

أتركك وأذهب بعيداً عن مد بصرك ومتناول سمعك، لم أعد أستطيع المسير معك، لأنني طيلة حبي لك لم أنجح في أن أخطو للأمام خطوة واحدة، ظلت تساؤلاتك تستفزني أينما ذهبت وفي أي وقت، إني متيقنة من أن عربة المنفى لا تزال تنتظر خطواتنا المبهمة البصيرة، نحو صخب الجنائز نتجه ونسير، مالذي يمكن أن تحدثه الحياة من ضجة، لا أعرف، لا أسمع سوى صرير القلم، لا أسمع إلا صوتي ربما أسمعك، ربما أعيش مخطئة طوال حياتي لكننا لسنا إلى الأبد ملاكين سماويين، بل لا يوجد مطلقاً عاشقان يحبان بعضهما على سوية واحدة، ومقياس جنونيَ واحد، فلا مقياس للجنون، والآن وداعاً، انسني نهائياً، فلست أوّل امرأة ولا آخر امرأة، والنساء يجئن ويذهبن كما تكررون ذلك يا معشر الرجال..!

سار ذلك العاشق يعانق جبهة الريح والفولاذ، ولم يشأ الصقيع والنار رفقته فمضى وحده، بللته سحنتها الفارغة القارسة مثل ليالي جهل الشرق الحزين، فالتقى بحمامة مبتورة الأصابع كطفل سوري ملقى على جعبة الطرقات المقصوفة، كانت تلك الحمامة قد صرخت بوجهه المستدير كعملة فضية، غادر ضفة الفجر متشحاً بسواد رسمته المفاجأة والصدمة، فأخذت ترسم على ملامحه أسس لأبنية الحزن والألم، دوخته كلمات الجدار الحبيس كالبحر العميق في المحيط المظلم من الوجع الذي يتوسط قلب الذاكرة، الجدران تختزن كل أرصفة الألم التي تنتاب البشر الذين يرقدون في الزنازين والمعتقلات، فيكتبون سجلات جنونهم، ومنجزاتهم المتخمة بالكتم على ملامحه المتشققة، حين يخاطبنا صقيع الشتاء نراه ينهرنا كوغد سافل، يقسو الشتاء الذي يضخ شرارات حقده على النور بسحنته الحمقاء، ومآربه الجشعة الأنانية، فالشتاء يكتب باليد اليسرى، ولا يقترب من رسومات الأطفال الدافئة! لأن ما نرسمه أو ما نكتبه أكثر مما يحرجه، ويضعه في مواقف هو في غنى عنها، فقد جعل من السماء امرأة تكثر الدموع، فسلط عليها الرعد كزوج غير شرعي، دخل إلى حياة السماء مغتصباً إرادتها، قابلني بوجهك المجزأ وتكلم، ولا تنطق بالألغاز، ولا تحاول التخلص من أسئلتي فهي تلاحقك إلى أنْ تلقى حتفك، فكف عن الهرب.

أيها الشتاء، من شفتيك البليدتين استقيت كلماتي وكتبت معاناة الطيور المهاجرة الحالمة بالعودة إلى الوطن بعد هذا المنفى الشاق، أعماقي نافذة التحدث بالألغاز، مبهمة كحجم الدهشة في الشفاه، كمغزى الهالة في العيون..!

أجمل ما نتحدث به مبهم، لا تروق لي هذه الوحدة ولكن مالعمل؟! لا تناسبني هذه العتمة الحائرة، فالأجدى لي أن أجلس على مرأى الشعاع الأبيض الذي ينساب أحياناً من جسد السيدة الممغنط بالكهرباء العاطفي، نتسوق في ليل الجنون، ولا أحد يفهمني، والنعاس يشحذ إحساسه مني، والعتمة تستكين لمشاعري، فتطردها السماء إلى سراب مدائني، ما أرتديه من أفكار أجمل من إثارة الملابس الداخلية على امرأة تتسول نظرة أحد العابرين. السماء لن تغفر لأخيلتنا العبثية. ها هي ذي تتسلل بين هنيهات الفراغ، فراغ الشجون الذي لم يتبلل ببلسم الدموع الساخنة، أجد ظلك بين أعماقي فأتشبث به مخافة الانتشال، تسربت خطاك مطراً على بوابة الذكرى فمن يعيد إلينا هفواتنا المنسية، واستكانت غيماتك البيضاء لصرخات البنفسج، استرجعي غصص اللقاءات التي لا تزال متربعة على أرائك الذكريات، لا تتأففي من طول الانتظار، وحده الشتاء الكهل يعي حكمة الترقب ويقين التأملات، تمثلي عظات البنفسج، واخشعي لبصيرة الطبيعة، ولمشيئة التين والزيتون إنهما عرافان عريقان، لا تدَّعي أنك صغيرة فالعيب أن نتظاهر بالحبو بعد اجتيازنا سن الطفولة، والعيب أن نرفض الإصغاء ونطالب الصم في الآن نفسه بالإصغاء المركَّز، قمة الحب هو الصمت لذروة الرجاء، قمة الحب هو الرقص على الحافة لا مرافقة البؤساء، تعلمنا كثيراً حبيبتي في حضرة الغياب، كي نحضِّر لولائم قد لا تحتمل التأخير كما لا يمكن للأمل التأخر في اللحظات الأخيرة من حلول النهاية، شتاءات تظل في البال ترسم ملاعباً وأخرى متاعباً لنسيان غير محتمل الحدوث..

إطلالة الروح

إنها منافستي في عشق جسد الدهشة الشهي، عابرة في رحاب أقماري الصناعية، تستنشق برفقتي إبط المجرات الخطرة، متوشحة أثواب الفقراء المترفين من شدة الاعتياد، متوسدة هياكل المومسات المتعبات على سرائر الزمن القوّاد، كم أخجل لما تلاقيه السماء الزرقاء في جسدها من دماء ومذابح، لها إصغائي، فالطيور باتت تتخلى عن أجنحتها لترتدي ذيول العقارب، لم تعد تأكل الحبيبات من رصيف نافذتي، فألسنة الأفاعي التي في فمها تحول دون ذلك، لقد ضجرت كثيراً ليلة انسلخت عن توقيتها المألوف، غادرت من خلالها حدسي تركته في الهزيع الأول من الغرابة، بيد أن فكري خرج بعيداً ربما لغاية الصيد أو اللهو أو ربما للحرب على طريقة الكهنة في ترويض العذراوات في المعابد، أكتب روايتي مراراً كعدد دوران الأرض حول نفسها، إن أكثر ما يؤلم في التغيير أن أصدقاءنا لم يخرجوا بعد من هيكلهم المقدس، ذلك الهيكل الذي يختبئ، ربما، وراء تحضُّر كاذب، وربما ما يزال مدفوناً في رأس نمرود، إنه هيكل يتراءى للقلة من الذين اصطادوا ابتسامة الإنسان العظيم، والتقطوا بكاميراتهم اللعينة مشهد بكائه، أرتطم بالجدران التي يكتب عليها العاشقون أساطير انتظارهم الرهيبة، فأتلاشى لساعتي، حين أتخلى عن ميراث الإشفاق الذي جمعته بكد اشتياقي، وأمنياتي المالحة، في كل لحظة تبعد، أتناول جرعة كبيرة بحجم ملعقة الشاي من الخيال الوحشي الجاثم في محيطات تأملي، أسفح قوارير عطري البنفسجية، أتسلق توابيت العدم، وأكاشف الصفحة العارية، أخبرها عن نواياي في جعلها مسرحاً جميلاً مكتظاً بالزحام الناعم، تنام فيه، أحلام مستغانمي[8]، براحة لم تعهدها بعيدة عن مخيمات الوجع الجزائري، هذا المسرح يجدد من صداقة غوغان وفان كوخ[9]، ويزيد من تأصل الوجع بين أدونيس[10] وبول

8- أحلام مستغانمي: كاتبة جزائرية.

9- فان كوخ: فينسنت فيليم فان غوخ رسام هولندي، غوغان هو صديقه.

شاؤول[11]، وبين جبران[12] وأمين الريحاني، ذلك المسرح المتناقض العميق في استدارته، يعتليه ألبير كامو[13] دون خوف من الاستخبارات السوفيتية، ويستوطنه أندريه شافت لملاقاة، الرائد بربارة على مرأى دموع برنادشو[14]، بينما أكتب الآن، أشعر أني شمعة تشتعل في النهار لتنير الليل الدامس في أعين العميان والمساجين.. الأصوات الحية الخجلة من التمرد، والهاربة من الحقيقة المتقوقعة في سراديب الإيديولوجيات الجرثومية الشرق أوسطية، أنا شمعة تحترف ترويض الشمس، ترحب باكتمال القمر، في داخلي عناوين ليل سرمدي بكامله، لعل الجنون سميري، والحب أنيسي في ساعة الولادة المتعثرة في غياهب المجهول، فلذة الحضور في كل ركن جميل أجمل من لذاعة الحضور في الجحيم، فلا سبيل إلى الحياة دون البكاء الناعم على طرقاتها الصاعدة نحو الألم والنازلة إلى ضفة الأمل الممتد والبعيد، أخرج نحو آفاقي، أشق سدود التبعثر وأقاليمه المبهمة حاملاً في داخلي لعنة الأديرة والمعابد لأصب جامها فوق المريدين وأصحاب الملامح التي تشبه قسمات القردة من المشايخ والكهنة المشعوذين تبوّل الله عليهم، الهواجس المشتعلة تنتظم في حضرة المزامير التي تؤلف الخلاص الوهمي تتابع سرد إيقاعاتها نحو الجلجلة، أحمل أسرجة ضوئي إلى العابرين بفوضاهم، لقد عانوا كثيراً من فضول الذين احترفوا مهنة التسكع على مرأى الأولياء والمرابين، أجد نفسي الآن وراء الكواليس المرئية، أنزوي في جدرانها التي لا تحتمل برودة الفجر ووقاحة الدجى وعجرفة الازدحام وكأنها عرفت أن الإنسان بعرينه يبقى مؤمناً بعظمة الأفضل والأنبل..

10- أدونيس: علي أحمد سعيد إسبر المعروف بأدونيس شاعر سوري.

11- بول شاؤول: شاعر وناقد لبناني

12- جبران خليل جبران، أمين الريحاني من شعراء المهجر، أديبان لبنانيان

13- ألبير كامو: أديب جزائري،

14- برنادشو: مؤلف أيرلندي شهير، من مسرحياته: الرائد بربارة.

جسد

شعرَتْ برغبة في مداعبة القرنفل اليائس بين صفحات كتابها الصغير، أحست بنعاس اليقظة، أغمضت جفنيها، تابعت تنهداتها بقية الملامح، تروي غمار خيال طفيف لا يلبث أن يسيطر خلسة على حلمها، ليباغتها النوم رويداً رويداً، عالمها الجميل استرخى، ملامح الكآبة توارت ببطء وراء بسمتها، وفي انتعاش ثغرها المرتعش طار البنفسج، مغمى عليه فوق نعومة وسادتها، كالنسيم تمادى طيفها وراء النافذة، دغدع ستائرها الناعسة المطلة على الحديقة المقابلة، لم ينم القرنفل اليائس الخجل، تابع توصيف حالتها، أخذ يجسد بنفسه مشهد حزنها الباكي، ليخبرها عندما تستيقظ ما فعله أثناء نومها الهادئ، جنت الستائر الحمراء بحالتها من خلال مشهد إيماءة الجسد المستيقظ والمتلبس نعومة الحرير على السرير، استدارت بنعومة لتطوي السقف الرخامي، بخاراً من ندى روحها المحفوفة بالتوت والعنب البارد، استيقظت بكامل همسها، تابعت الرطوبة إيقاعاتها، في مسرح تنهداتها، سرت بنعومة تحت إبطيها الجافين قليلاً، فكر السرير بأحزانها العذراء، وثقل آهاته المثخنة بحمى البحر، ضم الشرشف جسدها المائل، مثل سيمفونية ثملة، تصارع لآخر دقيقة ويلات السكون، ووعيد الظلام، راح الشبق يكتب نشيده الوطني بين نهديها، متسللاً كعميل متطوع بين الخط الفاصل ما بين عريها العلوي والسفلي، متعثراً بفوهة السّرة ببطنها، أكملت الموسيقا القادمة من جهات الليل الماجن، صدى نعاسها، تناول مقاماته من تنهداتها الباعثة للمطر والندى على أرض السواد، وحينما سمعت النجوم معزوفات الليل، راحت تتساقط فجأة على ظهرها وكتفيها وصدرها، كشامات بنية اللون، حيث تحول جسدها لكوكب معزول عن كوكب يعج بالموت والتلوث والضوضاء..

حوار بين غني وفقير

-الفقير: سئمت، فمنذ أن ولدت، عشت أتجرع الخيبة والحاجة، رضيت بالحياة وتابعت، عملت وعشت على انتظار الأمل، من خلال بضع لقيمات جديدة بالكاد تسدُّ الرمق على مبدأ من رضي عاش، شربت من مياه بئر الوحدة، مستنشقاً غبار التعاسة والتشرد متأملاً كل لحظة لائحة القوانين والحذر من تجاوزها

-الغني: أطمح إلى الجديد والمثير والرائع، متخم جداً من الداخل والخارج، متشعبة رغباتي كسراديب المدن القديمة، ولا أجد سبيلاً للخلاص أو للصراخ، ترانيم الموسيقا، لا تروق لي، همومي كنقودي، وآهاتي شاهقة كقصوري، أبحث عن أمان وراحة، لكني أتفاجأ أخيراً أني أهرم مبكراً.

-الفقير: أحس برغبات لا ترى، وأزهو بأحلام تحارب القلق، طوال حياتي ألهث وراء الأمان، وراء بيت، سيارة، مكان رزق، ولكنني أسير دون توقف حتى آخر يوم في حياتي، وأمضي على جسر مهترئ يؤدي إلى شارع غير سالك بسبب الحواجز والاشتباكات، جاءت الحرب لتقذفني بعائلتي للخارج، نحو هاوية مستقبل غير معلوم.

- الغني: عشت على الأشياء البراقة، ونسيت جزءاً مهماً من ذاتي، ذلك الجزء المتعلق بالقناعة، ظل مظلماً وحالكاً ومقفراً في حياتي، يشعرني بأقسى أنواع الجوع الحقيقي، وأمطار من الوجع القلق، تتساقط فجأة من فكري، ولا ألمح سوى تلك الجدران التي حاصرتني بالبهارج، هذه البهارج التي تخفي عني عمق الحياة وبساطتها، حين أسمع ميسون بنت بحدل[15] تقول:

لبيـــتٌ تخفـــق الأرواح فيـــه ... أحـب إلـيّ مـن قصـر منيـف

ولـــبسُ عبـــاءة وتقـــرَّ عينـــي ... أحـب إلـيّ مـن لـبس الشـفوف

15- ميسون بنت بحدل: ميسون بنت بحدل الكلبية (ماتت في 80 هـ 699\700م) ولدت في بادية بني كلب وأبوها بحدل بن أنيف الكلبي سيد قبيلته، وزوجة معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي الأول.

ما أجمل أن أعيش في كوخك المنيف بعيداً عن كوابيس قصري العنيفة، إن حياتك حلوة وتحلم أن تكون مثلي وأحلم أن أكون مثلك، ونحلم أن نرتاد الأماكن التي لا يسودها الجوع ولا تسودها التخمة، فكلاهما عنيفان فينا، أنا الجزء المعاند قوتك أيها الفقير، وانت الجانب القوي الفاعل فيها، نتقاسم العبث الذي يوغل في الحياة..

صرخات

قال لحبيبته وهو يبكي:

كيف يمكنني أن أعبر لك عن حبي في زمن ضاقت فيه التعابير، وقلّت فيه المشاعر والأحلام، كيف لي أن أحضنك في الشارع أمام أنظار الجميع في عالم يتناقل الهواجس والشكوك.. وظلَّ يسترسل في حديثه معها، ناظراً إلى السماء، متكئاً على شجرة يابسة، قائلاً:

أكاد أذوب كالثلج الصامد على مرتفعات الهموم والأسقام، عندها شعر بأوراق الشجرة اليابسة، تنهمر على شعرها وشعره، فاستمر هاذياً:

أكاد أتساقط كأوراق الخريف على الممرات والأرصفة المزدحمة، ومن يذكرني بك، سوى بقايا المطر، وما تبقّى للربيع من جمال، وعندما سمع أغنية تتردد من بعيد، هتف بوجه حبيبته التي بدأت تبكي فقال:

لم تعد الأغاني الحزينة تخرج من شفاه المنشدين، بل اعتزمت أن تخرج لوحدها تتجاوز آلات الموسيقا وأوتارها وتخرج من كل مكان، وعندما لامست الفتاة أنامله بهدوء، شعر برعشة هائلة تخرج من روحه فتنهد هامساً: "كلماتي عنيدة تعاند أناملي، تتحداها"، فلم تعد الأصابع ولا الأنامل، تستطيع إرغام الكلمات على المضي حيث تريد، وأمام هذا التمرد الخفي والرغبة المحتدمة، حبك أنت.. صمت حبيبته أبلغ من كل ما قاله، كانت القبلة الصغيرة مختصراً لأحزان العاشقين، شعر بهذا الإحباط فظل يهذي بوجهها قائلاً: ما عادت الحياة سوى نقطة ماء، دمعة عين، نجمة تطلع من بين النجوم الخافتة، أصبحت الحياة مفترقاً متهرئاً يثير الغبار، دون أن نعرف الجهة التي قد يقودنا إليها المفترق، إنك معرّضة للعقوبة نفسها، وأتساءل الآن لماذا أعاقب، كل من يتمرد، يعاقب، ويكون خطراً على المجتمع والشرائع القاتلة، كل من يهب نفسه للحرية ممكن أن يكون أشد خطورة، من تجار الأفيون، ومن يفكر بصون الحب ممكن أن يكون أكثر إرهاباً، إنها مفاهيم الفاقة، تحيطنا كما تحيط الحديقة السياج، لقد امتزج الحب بالنظرات السقيمة، أصبحت أحاسيسنا مدانة، ولغة أرواحنا

عصية على الفهم، أفكر بوجهك الذي أعطى لحياتي العفنة فرصة أمل أخرى، أتأمل ملامحك الخرافية، أضناها اليأس والقهر، فأصحبت لغة قصية، هجرت بطون القواميس، عندها استسلم لنوبة صمت، أخذ يتأمل هذا السكون، حيث توقفت الأشجار عن الرقص، وهو لا يزال ينظر إليها متعلقاً بوجهها الباسم، حاول الصعود إلى قمم أحزانها افترض السقوط على هاوية الخيبة، فقمر فجيعته له سلَّم متهرئ، ليصعد من خلاله إلى قلبها، دموعه أغرقته، كلما ضمّها يشعر بالظمأ أكثر، كحاجة المحتضر في قلب الصحراء لقطرة ماء، اغتسل بغبار الشجرة وأوراقها الخريفية الصفراء، مشى معانقاً حبيبته فبدأ يهمس لها: آه منك أيتها الأميرة المتعالية على العشب الأخضر والسنابل الصفراء والأرض الموحلة والصحاري المجدبة، والجبال الوعرة، من شفتيك المتثائبة أتعلم كيف أحارب وأتحدى ولا أستسلم، لم يقدر على الكراهية أبداً، كان الحب دليله، والموت هاجسه، لم يكذب بحياته، لذا لم أقدر أنا المهووس بالكتابة والكآبة، على الانقطاع عنهما، كنت أتأملهما من بعيد فأعزف بقيثاري وأنا على مقربة من آهاتهما، وعدته بالكتابة، من خلال قصة أكتبها لكل من يقرأ، وللزمن أكتبها كي يرقَّ، علّه يعتبر من عشق العاشقين وبراءتهم، كلماته التي يخاطب فيها حبيبته، مدوَّنةٌ في سطوري، ربما الحياة برمتها مرآة نعكسها بالإطار الصحيح والمتألق أبداً، لا يمكن أن ينتصر الخواء، وينتحر الغنى الروحي، ولا يمكن أن يموت الحب مادمنا نتنفسه، أدباً وفناً وغناء، وما دمنا نعيش لأجل ما نحب ومن نحب..

طموح امرأة عاشقة

حبيبي المالئ من خزائن السماء دموع القرون البائدة من المطر.. تقبّل جسدي المتواضع بعريه، المقدس بنضجه، المفعم بطلاقة لفظه، وفصاحة قوله، الناطق بلغات العالم أجمع، تقبله كهدية جميلة، قد تكون هانئاً به ومن خلال حبي لك ألتمس نداءات الحرية على ضفتك، أستجمع عهود عشقي من خلال صلابتك أدعوك للارتطام بروحي مجدداً، لأن ينبوع الخلاص ماثل في أرجائي التي تضج فتنة وناراً، بفضل عينيك التي ظلت مأوى لإله البحر وإلهي الخير والشر، استطعتُ أن أتخلص من ضعفي، منتزعة من ذاتك نفخة تنين البحر ورعشة الكوكايين الممتصة لعروقي التي أدمنتك بأزل عميق.. أغسل نهديّ المغبرّين بمياه قلبك التي امتثلت لعرين السحر المخبأ فيهما، ملايين الاوجاع ترابض في روحي، تنتشي آهة على صبا، يترهل من صميمي، لا تعرفني بدونك غير الجدران، حتى طفولتي تتنكر لنعومة عشقي ونقاوة روحي، ليكن الصمت عنوان كلماتنا في الحب، ليكن العناق حلماً بيننا، لأن التعانق الحقيقي والمشتعل يظلُّ مشتداً قوياً في ساعات الشوق.. حبيبي.. يا من تكتبني رواية حب تناهض عري الزمن، تخبطه، جنونه، وتزمته، أنت المانح للتواصل آمالاً عديدة ومستمرة، المالئ رحابة الفضاء نجوماً ذات رهبة، من خلال انعكاس بريق عينيك الشهيتين بموسيقا العشق في عينيّ، تحولت لأميرة حقيقية، وحولي صديقاتي بتن يستهجنَّ عشقي لك وجرأتي أمامك، وحرارة مشاعري تجاهك حين ألمس يدك وأجبرها على الخضوع والتشبث بأصابع يدي..

عبــور

مرة، رأيت حنيني في السماء بين عينيها وقطرات المطر المتساقطة عليَ، فارتعشت بمرارة تجذب الكلمات لتموت على السطور وحيدة، عادت أناملي بعد غياب.. عادت لتثير أحزاناً جديدة وأحداثاً عابسة تشتهي الإطلالة في قدري.. هذا المطر يتابع ما أكتب! كتبتها في قلبي فتحولَتْ إلى ألم طفل صغير، يدغدغ شجوني بعمق رهيب، تلك الفتاة، لا تزال الأماني تنادمها، لا يزال التفكير يؤرقها، في كل دقيقة، وربما في كل لحظة، أصرخ، حبيبتي! فأراها تبتسم لكن بين شفتي، لأن طيفها من الصعب أن يتلاشى فقد أصبحت نقشاً أحفره في كل مكان وزمان..! هذا العشق الذي أحمله يطرد كل السماسرة، والتجار من حرم هذا العالم السامي، هو عالمي الذي يتسع شيئاً فشيئاً.. منذ زمن أحاول أن أكون ذلك العاشق الأعمى المتبصر في كل شيء، ولا أجد طريقةً لاستقبال الشغف غير أن أهتف للحب والولادة ما أمكن من خلال كلماتي، أسير على شتى الطرق، وأضبط الحب بمعيار النقاء فلا يرضخ أبداً، ويضحك في وجهي بكل دهاء.

أحلامنا تختفي وراء الغيوم، تنحني لشقاء الموج تسير حافية لتبلغ امتداد المياه، تتراقص المياه الفضية قرب جبين الحب، ويبتهج ذلك البريق اللامع في فم الغروب، لتتسع فيه بقايا همومنا وأحزاننا النيرة تتمنى ابتلاع العتمة، ذاك الذي يتراءى من بعيد كثقب في السماء هو القمر، إنه يسلط ضوءه على تلك المياه العاشقة التي ضاعت منذ أن نشأت وما تزال تبحث عن عناوين ضياعها بين كلماتي، وهذا الحجر يشعر بالوحدة واليأس نظراً لأن أحداً ما أو عابراً ما لم يتأملها بعد، وذلك البط لا يدري أين يختبئ فكل ما حوله ماء فهل يبتكر مياهاً أكثر صفاء يطفو بينها كبساط أزرق جديد، وهذه الدروب العاشقة تحلم كثيراً بأقدام عاشقين من طراز فريد، يجيدون محاكاتها، نظراً لأن المياه تفقد ماهية مدلولها مع مرور الوقت، إذ هي لا تعرف كيف تحزن، فهل تقلد طريقة البشر في الحزن، أم تقلد طريقة السماء بالانهمار؟! يقترب القمر، يتعلق بالأعالي.. لا يفكر بالنزول إلى النهر!

فماذا عني وعن تلك الأنثى التي تلامس التأمل في خضم تنفسه، حين ذهبت إلى ذلك المكان الذي التقينا فيه ذات مرة، لم أجد ما يذكرني بها، كنت واثقاً تماماً أن طيفها بالرغم من انطوائه، كان يشغلني تماماً، ففكرت، حينها، كيف يمكن لأحضاني أن تستعيد ذروة حيويتها دونها، أو كيف بالإمكان أن أعترف بعودة الربيع مجدداً لحياتنا، التقيت بنفس المكان بعض أطياف عرفتهم يكثرون الفضول بالأسئلة عني وعنها، ويكتفون بابتساماتهم الفضولية حين يقابلون وجهي الخائب، هكذا كانوا، كنت أعلن خيبتي كل لحظة وأعود للوراء، لأجدها قد ابتعدت تماماً، وركنت ضمن موسوعة الخيال العاطفي منهكة من سيماء وجوه المتسمرين إليها، والزميلات اللاتي كنَّ يمضين معي، يشغلهن نفس الهاجس الذي تشاركني إياه، يسألنني عن ابتداع رواية شبه واقعية ترصد الحياة العاطفية مع امرأة تسكنني، كنا يبررن خوفهن من أن تكون واحدة منهن مثال تجربة جديدة لي في الكتابة، كنَّ يكتفين أحياناً بالابتسامة التي تنبئ عن قليل من الرضا، وشيء من الاستياء فالتي تكون موضوعاً للرواية ليست مجرد حالة فحسب، بل إنها تعكس عالم الروائي وأفكاره الناقدة وتصوراته، هن نموذج أرقى تكون فيه عوالم الرفض والجرأة هاجساً يحل مكان الاغتراب والشعور بالسادية والعصاب..

فراغات

الحياة عبثية، كما تبدو، فلماذا نتأمل المعضلة القائمة، ونحن أنصاف رؤى، لا تكاد تنصف أو تسوِي إشكالاً! ماذا نتأمل غير حرائق الحاضر، زيف الغد وأوجاع الحواس والمخيلة.. غير تلك التقاليد البالية في هضم الألم المجاني ولعابه الفاتر.. كذبة الوجود تنطلي على أكثرية البشر، إنهم يترقبون الجميل المنتظر، وفي قلوبهم رائحة الأمل، ذاك الغريب العصي على الفهم، العاجز عن التفكير بحل ما.. إنها معضلة التصور في هذا الوجود القلق، من الصعب التوغل في مصائر الأشياء، ومن المستحيل إيجاد خرائط للكبرياء، في صميم أناس عاشوا العجز المكتسب فكان لهم شعار وقداسة، حتى إن الدروب تتلاشى مع أقدامنا – نحن اللائذين نحو الغروب، السائرين للقاء الغرباء – ومعانقة الظلال التي ترتعش، هذه مشيئة الجحيم في تلوين الزمن بألوان رمادية موحدة، هذه قبلة الانتظار على جبين المغتربين الذين أضاعوا دموعهم وقلوبهم في ذلك المنفى الوضيع.. هذه جمجمة الشفق تحتلم قرب خد القمر ساعة المغيب، والرجاء لم يعد ممكناً والحقيقة مزحة من غموض التعايش مع الوهم بات ممكناً ولكنه ليس مفتاحاً لخلاص جديد، إلى أين نتجه؟ سوى نحو النهاية حيث الفراغ الذي لم يُكتشف، هذا الظلام لا يقودنا سوى إلى حتفه، لا يقين للموت، ولا عهد له، ففي الحياة تتدرج كل القيم، الحب والنسيان قدر الإنسان عبر الزمان..! أكتب عن حياة مبتكرة، وأوجد حباً لم يسبق له أن عاش، حيث سأغلق ما أشتهي من أبواب بوجه الريحِ وبوحه المكفهر، إنني سائر نحو انكساري ودون خوف.. أنا وهي رمزان سِريان بلا شيفرة، نحارب هذا القدر الكسيح بعناق أو قبلة موقوتة، وننتصر على الحزن ببسمتنا المعهودة، نعلن على الوقت القيامة، ربما ننتصر، هل يئن الآوان؟ أم ليس بعد؟!

30 حزيران 2010م

نصوص قصيرة جداً

-1-

ذهبت لتُحصي أوجاعها لتجلس قبالة الغروب، علَّها تفتح قلبها لذاكرة العتمة، كتبت للصمت، قاموساً للمعاني التي لا تُفَّسر، وعندما تأكَّدت من صدق المواعيد الخائبة، التي يطلقُها الشتاء في حضرة الخريف، ملأت قوارير الشوق، بالحسرة الصاخبة!

-2-

أجمل ما فيه، أنه اغترب عن تفاهات مَنْ حوله من البشر، لذا فقد أحسَّ بوابلٍ من الشتائم الخفية من ألسنةِ مجهولين، راحت ملامحهم تتسَّرب ببطءٍ إليه، بينما شعر بإغماءٍ خفيف، وهو يتقلَّب في نومه، ساعات الفرار إلى النُعاس لديه صعبة، فقدَ يقبضَ عليه درك القلق قبل أن يفكِّر بالولوج إلى أحضان الحلم، فكتب للّيل عن مأساة السرير الذي بدأ يتقمّصُ أوهامه يقول:

ما عادت دقيقة الحلم مجانية، إنها باهظةٌ التكلفة إذ تُسدَّدُ دون شيكٍ إلى بنك الكآبة..!

-3-

أفرغ الوقتُ حمولته بباب ذاك العامل المتعَب، فهو يقفُ على مقرَبة من بوّابات المنحدرات ويُقاسي رياح حنينه دون أن يتقاضى، ولو فلساً من الأمل، لقاء انتظاره على مُفترق الذكرى فهو يسير طوال النهار الصاخب، كي يستكشف الرِزق والهناء، وليتخلَّص من شعوره ببشرى سماوية تنزل إليه إذا ما اَستدار جهة السماء، وأطلق صوته المتثائب خيبةً بكلمة: حرية!

-4-

أطلَّت كنجمة في سمائه الشاحبة فارتدَّ شعاعُ القمر من مساءات سرابه نحوها، بدأ يكتب عن ذاته على مساحة جدولٍ صغير فارتفعت، حيرته لتبلغ أقاصي الحنين، فتَّش عن الجمر المختفي فيَ أوصاله، سارع إلى قبض

الفزع من قلبه كيلا يغلبه هاجسُ الانكسار.. تخيّل حبيبته فرساً جموحاً يصهل بتواصل فتلاشت سبائك الغبار، عن ذاكرته! أغرق في النظر بعيداً نحو الأفق، غدا غيمةً زرقاء، ابتعدت عن بقية الغيوم هكذا بدأ يبحث عن ظلِّها المرميَ في ساحات حزنه الشاردة فانتحب على بوابة الخريف، مالئاً دمعه من سحابة عابرة..

-5-

بدأ يكتب كعاشق، تراوده فكرة، تجافيه جملة، تعانقه عبارة، تهادنه مفردة، هكذا ترك نفسه تحت رحمة الكلمات، فهو طوال عمره يعيش بين، أنياب المعاني يبحثُ عن سبيل يؤوي وحدته..

-6-

تذكر ذلك النهر العجوز الذي يمتدُّ خلف الوادي أنَّ له نهراً يتيماً، يتسوّلُ منحدراً بالقرب من جبل، فبكى أشجانه، ثم أخذ يمسح دموعه الذهبية، علَّه يحظى بتقاعد إزاء تذكره نهراً كان ينادمه نبيذ الطبيعة، على مرأى من أفواه الرعاة الذين استغاثوا به عبر ناي ثمل تتراءى من ضيق فوهته شهقات التُعساء والمشرّدين..

-7-

قالت له:

وحدهم الصغار وأشباه الرجال يعتقدون أن البحر بحاجة إلى قطرة ماء.

لم يجب، أكمل طريقه، وهو يضحك، وقفت خلفه، وهي صامتة كتمثال!

-8-

محاولاً الدخول، تساءل البحر في قرارة أعماقه عما يجول في داخل هذا الرجل، راح يتأمله بشوق وحزن وبعد هذه المحاولات، وجد البحر نفسه متداخلاً في بوتقة أفكاره، بدأ رحلته العميقة في تفاصيل حياته، بدأت الأمواج تقتتل في وجدانه، أحس بذلك فنهض، بدأ يمشي مقترباً من لوعة البحر أكثر فأكثر، تمنى البحر أن يعانقه حتى الموت، لكن فوجيء به، رأى فيه قلباً ميتاً، لم يسبق له أن ولد وعاش، فغيّر البحر رأيه، إذ قرّر أن يتركه وشأنه، حتى البحر رفض أن يغرقه، كان غارقاً قبل أن يولد، فكيف يفكر في إغراقه، لم يعد

في الرجل شيءٌ يفيد، حزنه بحر أعمق منه لذا منذ ذلك الحين أحسّ البحر أنه أصغر بكثير من بحر أحزانه فقرر البكاء إلى ما لا نهاية..

-9-

نسي الهواء البرد في رئتيه، تابع المشوار بين ترنّمات أنفاسه التي راحت تطلق نغمات وتأوهات ممزوجة بالصمت والأنين، تابع طريقه دون أن يهتدي لمكان فبدأ يفكر، يفكر على طول خطواته والدروب التي يمضي عليها، أعماقه تهتف، تزداد نبضاته، ويتابع مشواره البائس، وهكذا وصل إلى مفترق وعر، وتوقف لحظة، تساءل، مخبئاً دموعه في ذلك المفترق الوعر.. أسند صدره البارد إلى جدار متداعٍ، وبدأ يعزف على أوتار سعاله أغنية هذه الطرق الصقيعية، وهذا الليل الأعمى والطويل..

-10-

النار ترقص على الجمر، وعلى طول الأنين ترتسم على زجاجة البلور المكسورة، ملامح امرأة أرملة سكنها الجمر، لأنها أحبت زوجها المتوفى ملء زنزانة التراب الفسيح.. تناولت ذراعها، بدأت تعيش على رغبتها الوحيدة في البقاء وأمنيتها الطويلة الأمد في أن يكبر أولادها، قبل أن يداهمهم شبح العوز والحاجة، اختفت أفراحها وبدأت تروّض أحزانها ومصائبها، تقتصد في دموعها وتصمد من أجل الكرامة..

-11-

على طول المشوار بدأ الرجل يغني، وأحياناً يئن، فاختلط غناؤه بأنينه، بات موّالاً جميلاً، رأى الدروب الموحلة تتعرج في مخيلته أكثر، فأحب أن يستسلم لخياله، لألمه وفجأة! رأى من بعيد رجلاً يبطئ في الخطو، يسير صوبه، داهمته أطياف جميلة، رأى في ملامح الرجل الأشيب السائر ببطء ملامح أبيه فتبسّم بشوق، لكن سرعان ماتبدَّد ثغره ومالت بسمته حين أدرك أن تخيلاته مضت وأن هذا الرجل، ليس أباه المتوفي، والده لن يعود ثانيةً، وملامحه لاتشبه غيره، فالخيال عاجز على تجسيدها مرة أخرى فيه..

-12-

مشت الفتاة العاشقة يوماً على رصيف جراحها، قررت أن تلتقي

بشخص كان يحتل كيانها في زمن كان العشق فيه كل حياتها، لكنها لامست قناعاً جديداً فحبيبها لم يعد إلا صفراً على شمال الحب، لم يعد ذلك الربيع الضاحك، كان مشغولاً وحريصاً على تجاهلها حين اقتربت منه قالت له:

- مابك؟ مابها روحك؟!

- اغربي.. لماذا عدت؟

- لم أعد إليك لأنك متَّ منذ أن رميتني!

- والآن.. ما لمطلوب؟!

- لا شيء..

صمّمت الفتاة منذ ذلك الموقف أن تكون واقعية، أن تتصرّف بلؤم وتمرد، وقررت أن تمحو أسطورة الحب، وتتعلم من سخرية الوفاء الذي قادها إلى هذه النتيجة، هكذا، وبالفعل عاشت حياتها، وهي الآن موهوبة بانتقاء أجمل الكلام المعسول لتقدمه لشاب مثالي نقي، يشبهها سابقاً، لتطعنه، وتقتل فيه روح الإنسان، لقد أصبحت شرسة منذ أن انضمت إلى عالم آخر، ذاك العالم، كانت تحتج ضده وهي الآن صورة عنه!

-13-

يندهش الشرطي الذي يعمل في قسم المرور من هذه المخالفات المتكررة، فيفكر في نفسه لماذا وضعوني مسؤولاً عن هذه المخالفات، والأخطاء؟! الحافلات الخضراء تسير أمامه، ووراءه، يملك صفارته الجميلة التي تندهش معه كلما نبس بحرف، أو صرخ بوجه سائقي سيارات الأجرة، والحافلات، إنه يحمل المخالفات إلى هؤلاء ولايدري إلى متى سيظل الحصن الحصين لهذه الأرصفة التي تخجل من خطواته وآثار دراجته النارية..!

-14-

أمام كل المتاعب، تصرف الرجل المراقب الذي تلاحقه الأجهزة الأمنية كافة، بهدوء وانتباه، فهو لايدري متى تحين ساعة الاعتقال، وربما تأتيه الآن، فاختبأ في أحضان زوجته وضمّها إلى صدره محاولاً أن يجد في أحضانها دولة الأمان والديمقراطية أو يجد غرفة صغيرة غير سجن زنزانته المنفردة يدفن نفسه فيها إلى الأبد، لكن سرعان ما مرضت زوجته واعتلت وماتت، وأثناء

ذهابه وإيابه إلى المستشفيات ومن ثم إلى المقبرة لزيارة قبرها، شعر بأن مفرزة أمن تقترب من المقبرة فما كان إلا أن اختبأ وراء قبر زوجته تحت الرخامة التي نقش عليها اسمها وتاريخ وفاتها ضمّ الرخامة بعنف وخوف حتى استسلم لنوبته الأخيرة..

-15-

الحياة تبدو لعبة أمام ناظر الصبي الأبكم، قرر أن يلعب لعبة الغميضة مع أخيه الصغير الأعمى، حيث أغمض الصبي الأبكم عينيه فراح الأعمى يختبئ في مكان ما لا يمكن أن يجده فيه أخوه الأبكم، اختبأ تحت السرير وعندما بدأ الصبي الأبكم يبحث عن مكان اختبائه وجده، فأخذ يصرخ بفوزه لكن الأعمى ظلَّ مختبئاً ظاناً أن شقيقه لم يعثر عليه بعد وظلَّ الصبيان على هذه اللعبة حتى بلغا أرذل العمر..

-16-

قتل عاشقٌ رجلاً سكيراً في ليلة بلا قمر، وقد اعترف بجريمته عندما قُبض عليه، وقال:

إنه كتب أوَّل حرف من اسمه واسم حبيبته على حائط قديم، فراح هذا السكير يبول على الحائط، وكان هذا التصرف سبباً في قتله، لكنه راح يهذي بعد التحقيق بعبارة راح يكررها بجنون:

"حبيبتي أطهر من القمامة، والبول أطهر منها ومني!"

-17-

الأحلام تسكنه، تحرضه على التمرد، يحس بالانجذاب نحو الجنس اللطيف، كلَّما راودته فكرة أن يصرخ يرى نفسه في قمّة النشوة، أحسّ أن فصاحة لسانه تدعوه لفكرة مجنونة أخذ يتسلَّقها، آناً بعد آن يبدأ بحثه عن سر يزعم أنه يقوده إلى الجنون، حسبما يزعم الآخرون فقال:

بالتأكيد يظلُّ الحب هاجسي المطلق، لذا أحببت أن أنخرط في صفوف النجوم المضيئة، أقطع كلَّ ما يربطني بهؤلاء البشر المحنَّطين..

-18-

أعمق ما في المشاعر صدقها حتى لو كان الزمن غير دقيق بجداوله في

مكافأة الطيبين وعقوبة الآخرين ذوي الطبائع الرديئة، ظلَّ الرجل مذ كان طفلاً يتساءل بعمق، ويقول عن داخله إنها شبكة معقدة من التساؤلات الخطيرة والمثيرة، يقوده الظنّ ولا يخطئ طريقه إلى قلبه، أحسّ بإقياء فكري لأن شبح الريبة يبقى في متناول عقله يخيم بمجريات تفكيره ولا يلبث أن يصل إلى حل، حتى يقوم بفتح باب آخر على نفسه، حياته تبدأ من ظن إلى ظن جديد وهكذا..

-19-

تساءل المهرج في نفسه، لماذا يبدو مضحكاً إلى هذه الدرجة؟! تعرّى في الحمّام، لكنه لم يغتسل، بل أخذ يفكّر، بأنَّ جسده لايزال حيّاً، كأجساد الآخرين، وهو لم يفقد شيئاً من أعضائه، ولم يكن مشوّهاً أبداً أو له عاهة ما..! وغطَّ في تساؤل آخر، أحس بالضحك فضحك، أخيراً أحسّ بالارتياح، كانت ضحكته جواباً حتمياً لأسئلته، عندها، رأى أن ضحكته سرّ الحياة ولغزها الكامن في الكآبة، والضمور..

-20-

قال الحذاء الجديد لأخيه العتيق:

أنا أجمل منك، مصيرك في الحاوية! الحذاء العتيق استسلم للبكاء، ولم يستطع ردَّ إهانة أخيه: مضت الأيام والسنون، رأى الحذاء الجديد نفسه خرقة بالية، أمّا الحذاء العتيق فقد سخر منه وقال:

أنت أقبح مني مصيرك تحت قدمي في الحاوية..

-21-

أخذ السيارة بعد إذن أبيه النائم، غط في نوم عميق، وهو يقود السيّارة، خلال قيادته وهو نائم، دهس عامل تنظيفات، بائع حلوى مع عربته، قطة بيضاء هزيلة، وعجوز مسنّة، واصطدم بشجرة كبيرة حيث توقَّفت سيارته ولم يستيقظ من نومه..

-22-

حين ذهب لألمانيا لأول مرة عاش سنوات موته وعذابه محكوماً، غير قادر على العودة لبلده فهو محكوم لأنه أحس بصراخ لم يستطع كبته

كعادته، لم يُسمح له بالعمل، وكلما أراد العمل اكتشفوا أنه يعمل دون إقامة فمنعوه مجددا وأخذوا منه المال، وأخيراً ذهب قرب البحر جلس متأملاً دموعه وبكاءه وصرخاته التي ابتلعها البحر بفم ظالم..

-23-

تخرج الأفاعي الصغيرة والكبيرة من أعماق الأخرين، وكذلك البيوض التي تعيش فيها الأفاعي الطفلية التي تبدو عليها سمات البراءة والدلع الطفولي.. كل هذه الأفاعي تخرج وتتناسل من ألسنة البشر وطبائعهم.. ففي كل صيف وشتاء يفتح المقهى بابه فيجتمع فيه الناس ويتبادلون موسماً تجارياً أفعوانياً جديداً لبيع الأفاعي بمبالغ طائلة من الشائعات والأكاذيب والطعن بالناس. لكن أفعى واحدة لا تخرج إلى تلك المقاهي، إذ لها فرصة واحدة في الانقضاض على الفرائس لذا يصعب على المرء في هذا الزمن الوصول إلى هذه الأفعى لأنها تتصدَّرُ خوف العالم وارتيابه فهي تجرد كل سنة جيوشها لتفعل فعلها في عقول هؤلاء البسطاء وتنشر ألوانها، أفكارها، طرقها السامة ولتناطح تيهاً سماوات الفضاء لأجل أن تغيِّر لون الأرض، والأبجدية، والقدر..

-24-

أجمل أنواع الآلهة تلك التي تسمو إلى مراتب السمو بالعقول المبدعة، وليس لأحد الآلهات مرسوم يقتضي بحرية الشك والتمرد، فعاقبة ذلك معروفة، ولا حاجة إلى اثنين يتحدثان بها.. كل إله يقول أنا الواحد الخالد وسبل التقرب مني مفتوحة، فأصاب الإنسان موجة من ذهول وتساؤل، فقرر أن يقطع الشك باليقين، ويعبد الله الواحد الأحد، استجابة للمطلق المريح!

-25-

بدا الطائر الملون المائل للزرقة مندهشاً من منظر البساتين التي أخذت النسائم تتحرش بأشجارها الطويلة شبه العارية، وبدأت الشمس تبصق عليها بحرارة مقززة وعالية، إذ إنَّ الصيف بدا في أوج عنفوانه مع الطبيعة، ولمّا يجد الطائر بعد عشاً لنفسه، فبحث بين البساتين عن فرع شجرة يبني فوقها عشه، وتلاصق مع التراب تحته في مشهد رؤية محير، وبدت له

الأشياء أجمل في متناول بصره الدقيق، حدّق في الماء المغبرّ ككآبته، وتابع تحليقه متأملاً الأشجار المقطوعة، وطار حتى وصل مدينة كبيرة، استمر يبحث عن مكان يبني فيها عشه، بعيداً عن شباك العناكب، والدور الخربة أو المهجورة، استقر تحليقه فوق حاوية كبيرة مكتظة بالنفايات، واسترخى ونام عميقاً من فرط التعب، وفي الصباح باشر عمال النظافة بإفراغ الحاوية في مركبتهم حيث اختفى الطائر بين النفايات وأصبح منسياً منذ ذلك اليوم

-26-

ظلَّ شاعراً مجيداً بارعاً متفنناً بموسيقا البيان، والألفاظ تجري مطواعة على لسانه، لقبّه زملاؤه بالنابغة لإبداعه في الكلام، طلب منه أحد الزملاء المحمومين بعلاقة عشق كتابة رسالة عاطفية تووددية، فكتبها وأرسلها زميله للفتاة المعشوقة ووصل الرد سريعاً وفيه:

(أجمل مافيك يا فتى أنك كاذب من طراز جميل، مهما كان الكذب جميلاً، فلن يحوز على مكانة صدق العبارة والأثر الجاد، حظاً أوفر، مع فتيات أخريات).

-27-

الغباء يركبه من رأسه حتى أخمص قدميه.. تساءل يوماً عن سر فقدانه الذكاء، ولماذا يبدو عصياً على دخوله هذا الرأس، فقرر أن يدس رأسه في الوسادة متخلصاً، من وساوسه، فلم ينجح، وحاول النوم عله لا يستطيع الاستيقاظ بعد ذلك، إلا وقد عاد الذكاء ليدخل رأسه، من ثغرة يمكنه أن يتسلل ببراعة داخل مخه، لكنه فشل أيضاً فلم يستطع النوم.. وفي أحد الأيام، رآه يتنزه في الحديقة العامة، متأملاً الأشجار، وشاخصات تقول لا تقطف الورود، وأخرى لا تلق الأوراق، حافظ على الحديقة فهي ملك للجميع، والنظافة عنوان الحضارة، وما شابه من شاخصات، وشخص بصره على فتاة تقرأ كتاباً بعمق، وتتفحص في الوقت ذاته حقيبتها، لمح جمالها، ولون ثيابها وبشرتها، فتساءل عما يربط الحديقة بالفتاة، وشاخصات الحديقة، أحس بخيال طفيف جميل، مع تفكير بما يجري داخله، ومع الوقت أحس أن مفعول الذكاء تحقق في سريانه لأعصابه، ومشاعره وفكره..

-28-

- لا أريدك أن تذهبي، صديقي معي بحاجة للقاء حميم معك، عندها نظرت إليه العاهرة قائلة:

- لكنني راغبة في قضاء الليلة معك!

- مع صديقي أولاً..

- كما تشاء..

استغربت العاهرة إصراره، وتساءلت في نفسها، هل تصبح اللذة رابطاً سامياً بينهما، وكيف يمكنها أن تكون رباط ودّ يجمعه بصديقه!

-29-

البار يعج بالسكارى، والراقصة بدأت تخلع حافظة الصدر عن نهديها بتحايل وإغواء حسب طلبات عاجلة يرغبها بعض الأثرياء الجالسين، أحد السكارى سقطت زجاجة ويسكي من يده، نهض يتمايل بجوار الراقصة العارية، وبدأ ينثر رزمات نقوده الورقية المكدسة في جيوبه الفضفاضة فوق شعرها، بينما انحدرت دموع ذاك العاشق الفقير الذي جلس بانطواء عند زاوية البار، ظلت دموعه تتساقط تماماً كتساقط رزمات النقود على جسد الراقصة..

كلمة جديدة

ماذا يمكن للإنسان أن يكتب؟! إن الواقع في النهاية يفرض أسلوبه اللاذع عليه، والرغبة لدينا مستمدة مما نشعر به من إجبار حين نبدأ بالبوح بشيء ما.. لو بإمكاننا الكتابة عما نتخيله رائعاً لكتبنا.. لكنَّ القيود تحثُّنا على الحقيقة ووصف الموجود كما هو، لا اتِّباع عالمٍ متخيل بديل عن هذه الهشاشة والإعياء السائدين كواقع حتمي في الحياة.. لماذا نتشاءم؟! ولا نتفاءل؟! يتساءل أحدٌ ما غائب كلياً عن إدراك الوجع، عديم التذوق لحزن بات أناه.. حين يعتاد الإنسان على الصمت إزاء هذا الواقع ويصرّ على نكران ما حوله.. يسأل بهذه الطريقة ليس هذا فحسب، بل يقوده ذلك إلى التسطح وسماع الأجوبة أو اختلاق مبرر، إذا لم يجبه أحد، يغترب وقتها عن الحقيقة والحياة.. هذا زمن الشبهات والهروب عن كل ما يمت بجوهر الإنسان، الجميع تشرّب جيداً من منابع الهروب والضعف والخيانة على الذات والكذب المنظم، يبحث الإنسان الحر عمن يتكافأ معه، ويكون كمن يبحث عن إبرة في كومة قش، ويحاول أن يجيد التناسي، يفشل، يعتمد على شخص يعتقد أنه الضمانة فيكون كغريقٍ يتمسك بقشة.. بعضهم ينظِّر ويقول: إن أدبنا سوداوي وتشاؤمي، فإذا كان الأدب حراً فعليه أن يطبع الحياة ويصفها بشفافية، عندها لا بدّ للأديب أن يكتب عن معادلة الذات والآخر لابدَّ أن يجسِّد الحقيقة، يجترّ آلام الكلمة ليسبغ عليها ما يراه أو يتوجع به في بوتقة هذا الضغط اليومي، كيف سيكتب الأديب إلا عن احتجاجه على الأزمات التي يهتز منها، فلا يخفي ما يشعر، بل عليه أن يظل أميناً فيجسد الحياة، يكتب عن مواقفه بثبات وإصرار على رفع قيم الحب والإنسانية، فهل يعد الأدب على ضوء هذا المبدأ تشاؤمياً؟! يصف الأدب العمق في المواقف الإنسانية، يحاول إيجاد إنسان قادر أن يؤجج من مفهوم التغلب على الظروف والظواهر بشتى مظاهرها.. ليس الأدب إلا تصعيداً لاحتجاج الحب على قصر هامة المادة التي تعتني ببذور الكراهية والانقسام عبر التاريخ البشري، حيث تعتبر الحقيقة الأولية للمأساة فضيحة

الإنسان الأول الذي قام بخرق الذات النبيلة امتثالاً لما يدنِّس القيم الخالصة التي تنتصر له كوجود إنساني، وليس الأدب سوى ردة فعل ساحقة على مسببات البؤس في الفكر والعاطفة والغريزة الطبيعية فهو يفرز الوعي في عملية التخاطب الإنساني بغية حوار صاف من شتى أدران التشدد والتطبع الوحشي الذي يتقمصه البشر بسادية تجاه بعضهم حين تغيب العدالة عن ساحات النور، هذا ما يدور في فلك الأدب الشفاف الذي يعكس مجمل القيم الحضارية الأزلية عن طريق نص هادف يستخدم اللغة بطرائق مبهرة تنويرية، ترد الجماليات إلى سدة الحكم الإنساني، نصٌ يعيد صياغة الأشياء ويشكك في صحة المسلمات، يفكك المفاهيم الصورية، ينتعش في ظل ثقافة المتغيرات، يصعد متن التحول كي ينبئ بفيضان الإبداع نحو صحاري الجمود والترهل، ومحاكاة وثن الثبات المؤدي إلى تعطيل شبكية الفكر الذي ينزع إلى الحرية خارج زنازين العبودية والكبت وعقد المازوشية الممتصة لملكات العقل النزيه، ويفترض منا أن نتحلى بعناد المتصوفين والأحرار الهاربين إلى الطبيعة، متحدين سلطوية التلوث في دهاليز القاع الاجتماعي، من أجل حداثة متجلية بالسحر المطلق، حداثة تحترم الحركة التاريخية، بعيدة عن هذيان المنتحلين صفة العصرنة، والوقحين تجاه قيم الأصالة الحقة، بذريعة اللحاق وراء السوق الراهنة، وقد أساؤوا لمفهوم الحداثة التي تتنصل من ترهات المتبجحين والمصفقين لعبثية الوهن والتحلل الخلقي، حداثة تحترم منجزات السلف، لا تقدس أو تتقوقع وراء عظمة الأجداد، حداثة تحتج على ممارسات ثلة من شذاذ الآفاق من الذين يحتالون للصعود والتسلق والوثب فوق سور الأدب الحصين، فهم ليسوا سوى نعالاً مهترئة للرؤساء والسلاطين، حداثة تنتصر لأحرار الإنسانية فتجدد من ميثاق الحب..

2010

ما قبل العودة

أصعد قمة الجمر لأجلك، فالاحتراق هو غيابك، لأمحو الغبار، لونه المعتوه على شباك الفراغ.. أشهق باعتدال، غير أني في حنايا صدرك، أشتم بزوغ الندى، مثل شمس نهدك المتكور، وراء مجرة العتمة، وألتصق برحم الظل، فهذه مشيئة الخراب، لأن يعتذر لأهرامات الصراخ، والرعشة الدائرية المقيمة في أعناقنا المتعرقة من مشهد تلاطم جسدي عاند البحر والبر، أفك أبواب الموت عن السحب التي أطلت ببؤسها أمام جبروت الكراهية، وأفتح السراديب المقفلة لساعتي، وأغلق المشهد السوداوي المطل من بوابات هيروشيما، أنازع كغيمة أصابها احتضار النور بوابل بكاء، ثم أنتحي كفراغ شجرة عزباء، تقلص جذع قلبها.. أركل الدهشة الباهتة، أرجم المدى والسحاب الأسير لحجارة التعب، أمتزج بملح الغروب، مناجمه المنتحية ركناً قصياً خلف أوكار الأفاعي التي أضربت عن الفحيح.. أتوسد الرمل شراعاً، أستظل به جبيني، أرفع آهتي البعيدة وسط سهل وعر، أزج بقايا خيبتي في مستودع السر لقد تحول البكاء إلى سيرك، فجأة تساقطت دموعنا على فراغ الإحساس وتفاهة الفجيعة، اختفى الطهر، انتدب الصقيع على شجر الحب، فعد للموت يا قدري، فلم يعد موجوداً، ذاك الذي ستسوده، فالكذبة ميتة، والحقيقة ثملة، والعبث يوزع نعي موت الحب في كل مكان، يلصق حتى صور المنتحرين على حيطان الملاهي، وأزقة الشذَّاذ، لن أقبل أي توسل من أحد، فقد انقطع حبل الشفقة، حين حاولت أن أشنق به نفسي وفشلت.

أضعتك يا حبل المشيمة، أضعت آخر أحلام الرضع، سكنت الوحوش والأشباح زنازن أحلامي كل هذا للمدى، كل هذا للبؤس المجاني، للحقد الرخيص، لهراء يسمونه أملاً، آه يا أمل، اغتصبوا فينا البسمة وأودعوا طفولتنا الجحيم، ورائحة الألم تقتحم شغف العطر لتنهيدة الموسيقا، فهي تكتب محطات الحلم لتنثرها في مهب الصدى، يالغرابة الذكرى كيف تنكرنا!؟ حين طالبت حبيبتي بالوعد، تكسّر شجر الحب في ضلوعها،

وراحت تعلن عن حداد الحب، فكشَّر الغياب عن أنيابه، لطمت الحبيبة جرحها بالصبر وانتحرت نسياناً، موتها استعر في نواحي المنفى أغنية تأبى الوقوف على وتر الألم، هكذا نسترد توهج القهر من تنهدات امرأة، تختزن في عينيها أحلام الرضع، هكذا نصاب بتنفسنا للحب، حين نفارق الدفء وأنثى الخصب ونشعر بعقد الحنين وسرطانات الهواجس وحمى الأخيلة.. كل ذلك يستبد بنا، والآخر يقف بكامل غطرسته أمام أعيننا، مواسياً بازدراء يُتْمَ صمتنا، هي ذي غرابتنا تصطنع الوهم، وتستخلص من فتورنا العبر الذكية، قابلنا النهر الشجي، ارتفع القلب أمامه كطائر الحنين، اكتشف مداه الكبير في مرايا غربتنا، انتشى على ضفاف ثملنا، أيهذا النهر ياشريان صوتي القادم من دنيا الحرائق، أغث سحابةً بُكْمي بمائك وما تيسّر من دعائك فأنا ذاك الشقي المنتحي بزاوية قصية نائمة قرب جدران المقاصل الرديئة، حيث أعبر دون خوف على جسور ارتيابي وقلقي، أكتشف يقين المصادفة، وأحترق في كأس اشتعالي، كطائر اللقلق حين يسافر نحو مواطن الدفء، ها أنا أيها المسافرون المتعبون.. خذوا ما تبقَّى من رماد اشتهائي، فوحدي مَن أشتاق للعبور دون نصف التفاتة، دون أدنى استدارة، غايتي التحليق نحو امتداد لا متناه، يفصلني عن جاذبية قهري، ويمنحني فطائر معاناتي، فقد فتشت كثيراً عن سرَ امتلاكي للحب رغم تخليه عني، وفتشت كثيراً عن لحظاتي المتناثرة في الأماكن القصية فانتمى لشرودي الضياع بكامله، كم يؤرقنا الشوق لحظة التمني لعودة المنقذين..

مفكرة عاشق من كوباني[16]

لأنك في الحياة دقيقة حلمٍ أعيشها، قررت تذكرك، أكتب عنك بفضول الأطفال.. مللت الحياة بثوانيها ودقائقها، خرجت في 21 آذار، بحثت عنك، صادفت العديد من الفتيات ولم ألتقيك، بحثت عنك في الخرائط والكواكب، ولم أجدك، دموعي تتذكر خطواتي، آثار الوحل.. غزارة المطر، وألغام الحدود، وأسلاكها، آهاتي التي لا تنتهي، السيارة الآن تمضي بي عبر دروب جراحي، تقاطعني الأحزان أينما اتجهت، مثل محطات السفر، بعيدة، وهذا يبكيني، يمزّق فرحتي الصغيرة، برؤية الشمس في عتمتي والغيوم البيضاء في روحي.. بعيدة عني وأنا أشتعل كدولاب محترق في ليلة نوروز[17] فوق تلة مشتى النور[18]، أسير إلى الموت ولا أرى الحياة سوى في جبالك البيضاء، أشعر بك، أزداد قلقاً كصقرٍ وحيد جريح.. رجاءي بألا تحزني، رجاءي أن تبتسمي ، يا وطني

21 آذار 2007

16- كوباني: مدينة تقع في أقصى الشمال السوري/ غرب كردستان.

17- نوروز: رأس السنة الكردية، عيد الكرد القومي.

18- مشتى النور: تلة تقع في كوباني وفيها يقام احتفال عيد نوروز.

منغّصات..

الأغاني الجميلة والقبيحة تجتمع، تنضم مع بعضها تولّف دبكة شعبية، تمسك الأغنية الجميلة بيد الأغنية القبيحة، تدبكان بشكل مختلف عن بعضهما، يختلط الحابل بالنابل، وفق أمثولة الطبل بـ دوما والعرس بـ حرستا[19]، وما زاد الطين بلة، حضور العديد من الراقصات والشاعرات، ليقمن بأداء استعراضي شعري راقص لا مثيل له.. وتجتمع وفود الشعراء والقوّادين، ليقوموا بتأليف مجموعة من النقائض أشبه بنقائض جرير[20] والفرزدق[21]، وهكذا تتم ممارسة اللعبة بضراوة الأضداد، يتقاسم فيها الإنسان مع البشري تلك الثقافة المختزلة من جملة رؤى تتنافر ولا تتآلف.. تأنف المرأة من حال الزوج وفوضويته، تنقم عليه، إذ هو المسؤول عن عقدها وبرودها وانفعالاتها الكبيرة، يأنف الزوج زوجته لإهمالها شؤونه وتجاهلها رغباته، وامتناعها المشاركة في حياته الطبيعية، فينغمس في أجواء الخارج، ولا يعود إلا آخر الليل لأحضان مستسلمة لنوم عميق، البطالة تأكل رئة الشباب وتتبعهم كمخبر أمني، تلاحقهم تماماً كظلالهم، والحبل على الجرّار!

19- دوما، حرستا: من أحياء دمشق/ سورية

20- جرير: جرير بن عطية الكلبي اليربوعي التميمي (33 هـ - 110 هـ/ 653 - 728 م) شاعر من بني كليب بن يربوع من قبيلة بني تميم وهي قبيلة في نجد.

21- الفرزدق: (641م-732م) شاعر من شعراء العصر الأموي مولود في البصرة واسمه همام بن غالب بن صعصعة الدارمي التميمي وكنيته ابو فراس وسمي الفرزدق لبقاء أثر الجدري في وجهه ومعنى الفرزدق: الرغيف كثير النتوء.

استراحة فرح

أعرف أن أجمل الأحلام تلك التي لم نصل إليها بعد، فلا تكفي مساحة الحلم لتكون هاجساً لدينا.. الخيال عاجزٌ عن إسعادنا، الحب يطلع من شبّاك ليدخل إلى شبّاك آخر، باسم مستعار ولباس تنكُّري، كل وعد يطلقه لسانهَ لا تعيه ذاكرته.. أين يكمن الأمل؟ في ألبستنا التي يحاصرها الغبار، أم في مخيلتنا التي لا تريد أن تتذكر شيئاً، حتى إنها لا تسمح أن تفكر بالأمس.

أعرف أن كل ما يبتسم في وجوهنا كذبة، كل مأساة ترقص على أوتار همومنا خديعة، كل ملهاة تتعلق بصدى ضحكاتنا محض بكاء، حين يزجرنا أحد ما عن الكلام، نشعر بالصمت أو الخيبة، هذا عصر تكميم الأفواه الحزينة، لم تعد الآهات تطلع من صدورنا، بل من رغباتنا المستفحلة، برعشات لا تميز، بين رخامة الحس ودناءة الغريزة، في جلوسها على عرش التعاسة السامية، علينا أن نشك بحقيقة أن المشاعر والغرائز، تتبادلان الأدوار في مكان جلوسهما في كينونة الإنسان، الدعابة أو الجدية، لا خيار ثالث، المزاح الثقيل، أو العبوس المفضي لفظاظة قاتمة، ولا خيار آخر، إنه عالم يعاني سوسة التطرف والإدمان على حشيشة الكآبة، ربما يكون الإله الافتراضي مسؤولاً عن كل تلك الفوضى، لم تعد كذبته تنطلي على أكثرية البشر ممن سلكوا طريق تقديم القرابين البشرية باسمه.. إنه عالم غريب تعجز الغرابة عن تأويله، وعجيب يختصر بعقده ماهية الخوارق، هذه الكلمات كتبتها وأنا أحسّ بها بشكل دقيق، إذاً فالكتابة اجتازت لدي، الحالة التعبيرية المعتادة، باتت تدخل أكثر في صميم إطار البحث عن الأشياء المختبئة بداخلي، كلُّ ما أعيه، أني اتخذت حصاراً غريباً على نفسي، ربّما لأصل لدروب لم أبصرها قبلاً، أعرف جيداً حجم ما أبتكره، فغرابة الحدث تتقمصني، بالكامل.. وشجار الأمس كان جديداً علي، أن أدخل في بقاع متناثرة يصعب عليّ تفسير معالمها بوضوح، فهل هي النتيجة المعلنة ولماذا الآن.. ؟، الغريب في كل هذا، أنني أستدرج نحو تقاليد، تصاميم لا

أصل لها بي، تتلبسني، والذي بات جلياً، هو مدى تعايشي مع هذه الزلزلة الخارقة للغرابة، دهشت أيضاً بخيبة في اقتناص الملاذ اللذيذ، أما الأحلام فهي كما أرى، حقيقة الوجود المعلن في عالم الكتابة، والوجود هو ذلك اللغز المفضوح، يشير إلى أكثر مواقفنا المتعلقة مع الآخر.. نحن بحاجة إلى الأجواء التي من ابتكارنا، كي تنهض بنا التساؤلات، حتى لا تفاجئنا بالصمت مجدداً، إذاً فأنا أكثر العاشقين حباً للتساؤل والتأمل، وهذا يعود لحالات الإعياء والتعلق، أحس بمحاصرتها لجوانب هامة متداخلة في حيز تعاملي مع الأشياء، لكي أستعيد تفاصيل الحياة، أجيد معرفة الصلة بين القضايا، أجيد معرفة العقد التي تحرضني على المضي أكثر في البوح، يجب أن أقرأ ملامح ذلك الرجل أو تلك المرأة التي أفضّل أن تسود ذلك الحيز من أفكاري، هكذا تبدأ نظراتي بتفحص الآخرين، كيف أعرف حقيقتهم، هل هم عابرون، أم سيعبرون، أم إنهم سيبقون أكثر أو لوقت ما، لأثبت صحة معادلة الحب من مدى القدرة على البقاء والتشبث بالجذور الحية، الديمومة وليس كيفية العبور.. الفتاة التي أتنشق فيها صلوات الخلود، تبقى تغذي في الرعونة والنشاط، أو ترحل، عندها أكرر البحث عن أخرى والعملية في كل الأحوال متعبة ومكلفة.. إذاً فالحب هو خلق الديمومة في عالم فان، والآخر مالم يحقق لنا أطول ارتباط فهو عبارة عن وهم متلاش، كأن لم يوجد..

نداءات امرأة

منهكة من أنوثتي، لائذة إلى نصفي المنتهك، قلبي حديقة يعتقلها الخريف كل عام، حياتي تهتدي إلى ساحل الضياع، جسدي امتداد البحر والسماء، روحي سفينة تحمل في متنها أرواح النساء، أبحث عن رجل يجتاح ظلامي، يبعث في دجى صمتي موسيقا السعادة، ينفث على شعري الذهبي، ليحيي في جدائله بريق الشمس، يمسح بزيت أنامله، تفاحتي صدري اللتين أتعبهما الصمت، أشقاهما النضوج، أضناهما السحر المشتهى، عذريتي منهل العذوبة والنقاء، سرّ ألوهية المرأة وقدسيتها، خضوع الرجل بإرادته العاشقة لها، في جعبتي أفكار عن الحب، لكل امرأة تحمل على صفحات جمالها، ذكاءها، فكرها العاشق، جموحها صورة عشتار الخالدة، وأناهيتا ربة الحب، والماء العذب، أنادي بصوت يتوسده العاشق، بصمت العظام، إلى امرأة سقطت على مرايا الحب، فاستعذبت سقوطها، أرّخته على جبينها، جبين قلبها شهادة ميلاد أخرى، إلى كل امرأة دشنت عهود عشقها، علامة إخلاص واضحة، لرجلِ أحبته، إلى كل امرأة ذهبت ضحية مفاهيم موروثة من أسلافها المرأة الفاشلة أكتب لدى الشرق طعنة عصماء، تختزل فكرنا، تجعله واهناً وقاصراً عن فهم الرجل، جلَّ ما نتمناه من وطن وملاذ، لذلك كان الحب أكبر من أن نصفه، أو أن نتحدث بصفته، والخلاص الوحيد من الوحدة والشعور بالضياع يكمن في حالة الانصاف لشريكنا في الحياة وجلَّ عمرنا، في أنوثتنا ذلك الحزن، وفيها ذلك الاغتراب، والحنين والجنون، فلماذا لا نقرّ به في عالمنا ونعترف أن لقدسيتنا ضماناً بمزاجية ذلك الرجل الذي يحتلُّ لبّنا بكامل ما فيه، إنه العاشق لهداه في أحضاننا فلننقذه.. انه العابق بالحزن، المعتَّق بالكتمان فلنستنشقه، إنه الغائب عن أجفاننا منذ الأزل فلنعانقه.. لذا فكوني أتحدث عن نفسي التي تاقت للالتحام بمن أتوقه كامرأة ذات قلب وإحساس كان عليّ أن أثبت ذلك بأن أنثر الكلمات على اللاتي يشاركنني هذا الشعور الإنساني.. الكلمة الأنثى تنثر معناها البرّاق على ألسنة اللواتي يحملن النقاء الأنثوي، ليكنَّ مشعل الفكر الذي يتجاوز حواجز الذكورة المهيمنة على

عقولنا.. كيف نتأصل بثقافة العشق التي تحمل ألويتها منظومة الاتحاد الجنسي التي تلغي فكرة الوحدة كمفهوم شمولي فذلك نتاج حالة الانحياز لأحد الجنسين إزاء ضعف وتقلص منهجية الآخر. الأمنيات الجميلة تبقى كما تبدو، ولنا أن نسترخي طلباً لهذه الأماني الرقيقة الصافية، تلك التي تشعرنا بكامل معالم الانسجام والتألق والتماهي بالرجل الذي يصعد سلالم الرقي والثبات العاطفي الفكري المتحدين معاً، في داخلي أحلامٌ حقيقية تحجب الخيبة، تستعيد ألق الحياة، تعيد ترتيب الحلم، تدعو إلى نهوض المرأة التي تغسل الإخفاقة بالمحاولة وتخترق بفوضاها رتابة القيود فمن معرفتي بشعور الماء في شريان النفس إلى إدراكي بكل جزء دافئ في كينونة الأنثى التي لا تستجيب للتبلُّد في بيئات الكبح والتعنيف بل تعيش ذلك السلم الإبداعي، فهو مثار حركة وابتكار، تزيد الأنثى شعوراً بالألوهية والتفرّد بامتلاك الرجل العابد، لذرّات تلك الأنفاس الرقيقة، تنبعث منا، فكل ما أدعو له كفيل، بأن يعيد للمرأة ذلك الفكر الغائب بين فكّ إفراط العاطفة، واستنزاف الطاقة الأنثوية في حب العزلة وعشق العصابية والقبول بالأدنى بشكل خجول ومرتبك، لذلك فأنا أنثى حقيقية، أطمح لرجلٍ حقيقي وقلب قادر على حدة النبض وشدة الحب وغزارة العمق، بعظمة الرجل العطوف، يقيم وزناً للأنثى بعقدها، تناقضاتها، بمزاجيتها وتساؤلاتها المتاصلة بنفس الرجل، رغبتها المقترنة برغبة الرجل بالانعتاق الحقيقي من أسر التقليدية واللا انتماء..

إنها بقايا شجن عنيف في دنيا بكائي، تندر دموعها الآن في سنوات محلي وجدبي، حين ارتحلت، مضى معها النبض، وبمصادفة قذرة تلاشت، كقبرة راحلة..

-من ضيع قبلتك الهادرة في منعطفات سكونها ووجهها أخبرني؟!

- وأنا أتساءل أيضاً من ضيع قبلتي المزخرفة على جبينها، لا أذكر أي حضيض رماني بقرب حاويته، إني أمتص جحيمي، أمتص لعاب فرحي المسافرِ إليها

- مَن نفى ابتسامة الخريف الصفراء عن وجنتيك، أيها العاشق القابع في سجن غيبوبتك الانفرادي؟!

- لست أدري صديقي، أجزم أن ليس ثمة رواية، تستطيع تجسيد فظاعة إجرام التاريخ في معاقبته لنا، فأنا معلَّقٌ بشال قلبها الرهيف، ألف آه يعسكر في تعبي، مليون صرخة تستعدُّ للحرب في حنجرتي المكتظَّة المبحوحة، أكثر من مليار دمعة، تغتالني كلَّ ليلة، رغم ذلك ما فكر طيفها، بشقائي وغربتي الأنانية، أي شعورٍ لقيطٍ يحاول أن ينسيني صمتها؟ صمتها المختنق، يحمل عربات النعي، هيأ رخامة قبري، أحلامي تتلاشى يوماً بعد يوم، غدوت ضحية المجتمع الاستهلاكي، ضحية الجشع الدنيوي، لم يعد العالم فسيحاً، أمام ناظري لأحمل قلبها بين قلبي مدى الحياة، أحمل صوتها في تنهداتي المسافرة في رحاب الجمر، لتكن دموعي شموعاً، تضيء الكنائس والأبرشيات، لأحمل حناجر البؤساء على مرأى ضريح فيكتور هيغو[22]، على مرآك سأحملها ياصديقي الغاضب، سنكون معاً لو اقتلعت الريح، قلبينا لندنس عهر العصر، سأحمل روحها في قلبي وقبري لتكن ناقوس شفاعة في دنيا الخلود، دربانا ممتد لآخر رصيفٍ مهجور من أرصفة الاغتراب، سنروي الجام نبيذاً وتعباً

22- فيكتور هيغو: فيكتور ماري هوغو (بالفرنسية: Victor Marie Hugo) (ولد 26 فبراير 1802، وفاة 22 مايو 1885) أديب وشاعر وروائي فرنسي.

وتحدياً، دأبنا أن نكون ملاذاً لكل طير أضاع عشه، لكل نبعة تترقرق بصمت وخشوع، نتقاسم أسرار الطيور المهاجرة، لتعد لأعشاشها وصغارها، رغم أن دربي هو الجمر الحارق فسأمضي عبره للأبد، رغم أن نيران زفراتها تستعر في جليد كآباتي، فأنا بألف خير، جسدها المطَّرزُ بالحرير والنارنج يزيل دنس العري في تفاصيل الأنوثة، يرفع من سوية نظرات الذكورة، يحرض الفجر على التألق و الانبلاج من بين أهدابها ليسير متوثباً على ذرا حروفها الأنثوية السليلة للماء العذب المتوهجة، بلمعان الصباح الملتحف ثياب الزرقة اليانعة كالعطر، آه ما أقساك ياليل عمري، ما أشد خبثك وما ألطف خيالي حين يهمس مستحضراً طيف حبيبتي، حين يتكوّرُ الشذى حول أردافها الممتلئة، وبين شفتيها المعانقين عنفوان البحر، وفوق نهديها اللذين تقطَّرا عسلاً، ذاتي تحبذ الفرح الحقيقي لحظتها، لا تعرف طريقها نحو الخطيئة، جنوني مقدس لأنه يثير كمائني للحياة المديدة، ذلك النزق البارد، يعجّ في خلايا أنسجتي، كم هو حائرٌ وقاتلٌ بأعماقي، ذلك الأرق الذي يفصلني عن الطمأنينة والودِّ أتمنى لو أنعتق منه وللأبد..

- إنك ألقٌ بصفاء روحك ومن كان له الصفاء في هذا الوجود الصاخب فهو سيد الكائنات والأطياف، روحك تسبح في شطآن المخيلة، لتقتف تلك النجمة التي أثارت هوسك هي لم تنسحب من روحك، بل لا تزال تتعانق بروحك، خاشعة كنجمة الشتاء الباردة، قبالة أحضانك المرتجفة، ما تزال دموعك الرقراقة تحتدم بسجالات دموعها، ما تزال تقذف سوائل شوقها نحوك، تلتحف مرايا عينيك المشرقتين لتبكي حذرة وببطء، حيث تعيد شهقتها وهمساتها في روابي الحنين، لتتذكر أمسيات غرقها على كتفيك حين انحنت فوق سنديان حضورك، أسندت جبهتها لهضاب عطرك، -أنت تروي فضاءاتي بأقداح من خمر شفتيها المعتق، انحداري يرأف بوعورة سفحها ونقاوة فيئها وضخامة تنهيدتها، لقد صبغت أنيني بزفراتك الداعية للأمل، فأثلجت دنياي الحزينة التي كابدت برد القرون البائدة، إنها أناي الممتلئة شدواً وتحليقاً، فقد رشفت صميمي وثملت على هضبات سفحي وحنيني، إنها مفردة الشكوى، دموع الدُّرة، سبائك الصقيع، أدمع الغبار التي ما

بارحت موانئ ريحي، ياللغرابة أستبقى تغني على وتر الحلم بها، احقنِ نفسك بإبر الكبرياء الجميل حتى تتخلص من هذه الملمات القاسية، تمرّ بلحظات من عزلة، تعادل مئة عام، تخلص من هذه النزعة السلبية التي بدأت تنهشك وتمزقك، لا تعتد على كسل الأمل، خمول العزم فهما وليدا الانطواء والتشنج الروحي، فالعشق لم ينثر بذوره سدى في ضلوعنا بل لكي نعي حقيقة الرسالة الملقاة على عاتقنا نعلن بعثنا بصراخنا في وجه المستحيل للأبد.. لا يجب أن نتغنى بآهات المعتوهين بل يجدر أن نبحث عن ألوان آهاتنا قبل أن ندق باب آهات الآخرين، فلعلَّ استيرادنا أحزان غيرنا، نمتصّ مواقفهم المحبطة السلبية، ولا نملك أي خيار، أو وسيلة تدفعنا لتصدير مخلفاتنا الثقيلة، أحزاننا المتخمة بالكثرة، المزخرفة بنقوش الصخب الكوني، فالحب حين يجرنا لارتكاب الانفعال، سرعان ما يلبسنا أثواب التسطيح والخواء الداخلي، وإذا كنا سنرتدي أقنعة التضادِ الذي يتمازج مع أرواحنا المقنَّنة في خضم هذا العالم المادي، الذي راح يعبرِ من خلال النشوة الحسية عن توصيفِ للحب وإدراج المرأة الجسد في قائمة الحياة العاطفية، فطلب الحب من امرأة بات رهيناً للأجواء الساخنة، والشوارع المضيئة الجميلة بوهج الازدحام والأضواء المبهرة تطالب بفناء المحتشمات داخلياً وتصرّ على الصراخ المشبوه خلف الغرف السرية فصنف المتحذلقات لا يغنِي من جوع المتسائلين ولا يزيل عقد النقص في ذوات العشاق المراهقين فهناك في الشوارع المتآخمة في ذاكرة المبدعين أجساد خاوية سوى بإثارة طاغية يطمح لها من يبحث عن حب جاهز ومؤطر ضمن توقيت شبقي ينتهي حسب سرعة القذف أو بطئها.. يسألني أحد الغارقين بالمتعة والضوضاء المنتظم عن العشق فيجيب بنفسه: هو الشعور بالإشباع الجسدي والابتعاد عن الفتيات المثاليات اللاتي يشبهن الرجال تماما، فإن عمد عاشق ما على مداعبتهن أو مضاجعتهن فهو بذلك يمارس فعل اللواطة لا أكثر، فلماذا يسألني وقد أعدَّ الأجابة بنفسه دون أن يكون بحاجة في الأصل، لتعليقي حيث أضاف بأن المرأة الممثلة حياتها تصنع وتظاهر واستخفاف بالحياة وضياع لوقتها وهدرٌ للمواقف المتعددة، فإذا انتحينا لأروقة المجهول في الحياة وانشغلنا بتخبطاتنا

وأوهامنا متصنعين القيل والقال فإننا نعلن موتنا المؤكد في خضم هذه الحياة التي لم تعد تنتظر.. جولات هذه الحياة قصيرة والمواقف التي فيها سرعان ما تتبدد وتتغير فحياتنا ليست رواية أكثر من كونها قصصاً قصيرة جداً ترصد أحوالنا المتقلبة المتلونة..

نسيان..

نسيت كلَّ أوجاعها، هربت، هربت للأمام، للأمام وبسرعة، كي لا يصدمها هاجس العودة للوراء فماذا تريد منها أيها الطيف البارد!؟ تجنّب حرارتها وابتعد، لا تحدِّق بها كثيراً كي لا تتعطل حواسك، في ملامح تويجة الدمع انقل شهقة الأسفلت المتوجع قرب جحيم الطين، استرح قرب إناء من الوحل، اكتب عن اصفرار الشمس وابيضاض القمر.. كوردة الجوري أدعو أبناء شوك الصبّار إلى وليمة شهية، فأنا لتوقي أحتسي غبار الماء فوق جمار الشقاء، وكتنين مبدع وثائر أنفخ بكفي فتتحول لمخالب زرقاء تمنح السماء كبرياء معقوفاً، كسنديان غائر في الجرح أستجمع انهيارات الثلوج فوق القمم لأعيد للتوازن حبه الأول ورغبته في الانخراط لمنظومة اليأس الموحّد، كنمل أحمر يفكر بالثورات، أوزع كتائب المرح للرمال الساخنة، وأدعو جميع الكائنات البليدة للرقص في صباح سيأتي مكان صباح آخر، أيتها الأنثى التي لا تجيء إلا مع قدوم الغياب، امنحيني ذروة الحرائق في تجددها واشتعالها، امنحي إلهامي نار الحب التي لا تنطفئ، كما تقارعين كتائب الريح، تأتين راكضة لمعانقتي وتقبيلي، تكسرين زجاج الصمت وتفتعلين من الصمت لغات متعددة، قد قاتلت كلماتي زمناً، لا رغبة بالتحدي بل بالصراخ، كي تؤرخ من جدلية الصراع قلماً جديداً غزيراً بمياه الغليان والحقد على هذا العالم الفظ، لماذا كلما دخلت إلى غرفتي، أشعر بالوسادة تمشي، والسرير يزحف والبلاط يطير والسقف يتراقص كسكران، أهذه نهاية العالم! فهمت عليك.. إذاً فأنت تحبين احتراقي بطريقة مختلفة، لماذا لا تكون كما عهدتها على الأقل، لقد أحببت الاحتراق فوق الجبال العالية، أنت شاهدة على هذه الرغبة التي لم تحترق بعد بداخلي، سأحترق وسيعاد تكويني من جديد، الذين مثلي ومثلك لا يحترقون لمرة واحدة؟!

نقص

مع أناشيد السهر تفتتن النجوم بأحداقنا الثملة فننهض وقد حملنا ثقل اللهو على ظهورنا، وأكتافنا الرشيقة تأخذ حزمة الضوء لفتيل رشيقٍ يحصد البهجة ويوقع على المعتم من أجوائنا النفسية، أمد جسور التآخي مع كل من له علاقة بالإنسان الجوهر الحقيقي كباحثٍ ومستقصٍ عن الحقيقة برمتها، ولأن النسبية تحتم على الحقيقة الانزواء والاختباء في طيف ضبابي يظل يلازمها ويحدد مسارها في الظهور بهذا الوجود، فقد بقيت بالنسبة لحياتي هاجساً أشبه بالخلود والسعي إلى كمالية الأشياء من خلال الاستمرار بالتواصل مع المرأة النموذج وهجر المرأة الملاذ، أي الجسد، تلك التي تجعل معرفة الجوهر النقي أمراً ميئوساً في كثير من الأحيان فكل حالة عاطفية لا تكتمل ناجمة عن الانشغال الحسي بالنزوات العابرة، وكل عشقٍ ينتهي نتج عن استهتار العاشق بقلب حبيبته أو استهتار العاشقة بكدح الحبيب من أجلها كجوهرٍ أسمى، إن أطياف البشر تتجسد كنماذج تميل إلى المرأة فهي التي تسكن المتاهة الكونية التي ندور في متنها، والحديث عن لحظات الدهشة كانت أثمن من أية أحاديث أنقلها على مسرح السطور، وما دامت المرأة تتصدر قمة الإبهار فهو هاجسي الدائم الذي جعل كتاباتي تتمخض في حقل المذكرات والسير العاطفية، فالحديث عن الحب في مجتمعاتنا الشرقية أشبه بالدوران في حلقة مفرغة فكل مافي ذاك الحب مشبوه لدى الرقابة الاستخباراتية التي دشنت عهود الاستبداد والفساد الأولى، فالقانون هو العهر والحكم المبرم، ففي الحب نهضة وفي الكبح شذوذ و هرطقة فهي التهمة المفضلة الجاهزة كأبواب جهنم التي تقول لروادها هل من مزيد، فما دامت الكتابة مسرحاً مونودرامي المشهد في الأصل التكويني للإنسان فقد كانت ذاتي هي التي تتناجى وتتحدث استكمالاً لمراسيم الولادة وهاجساً من هواجس خوفي من الفناء والترهل الداخلي، فهي محض عالم تتردد فيه الأهواء والنزعات وتلعب فيه حيلي البصرية الدور في محاكاة المادة والواقع من أجل استنهاض الحياة على ما ينبغي أن تبدو عليه، فكل

ما أبوحه يلخص هواجس الصبا وعنفوانه الباحث عن التواصل، ما يجبرني على البوح جعلني رهين هذه الأسطر التي لا هم لها أوغم سوى أن تحصد كلماتي دون أن تدرك خصوبتها أم رداءتها فهي تظل تفتح قلبها الواسع بشبق وتضم حروفي المتناثرة بحرارة امرأة لم تمارس أنوثتها المشتهاة طيلة عهودها المنصرمة، وكذلك بدت لي الأسطر عالماً يخلو من إشارات المرور وأنظمة المشاة، لقد أعطت جل ما لديها من حريات للكاتب واختارت أفخم ما تلبسه لاستقبال كلماته الوافدة من أماكن مجهولة في باطن الكاتب، الولادة الأكيدة للحب خارج متاهات الكتابة والمخاض الذي يجري في كل رواية إنما هي قراءة لسلسلة طويلة مأساوية تحدث عنها القلب الإنساني طيلة إصراره على البقاء عبر العصور، باتت الشوارع تغدو ذات ليلة تمضي هادئة وكأنها في حالة هيام مزمنة، خطوات الذاهبين والغادين في حوار مستمر مع الآفاق المعتمة المزدانة بالازدحام والنور فالنجوم مشغولة بمكياج بناتها والرياح مشغوفة بحكايا القمر والشباب منشغلون بلعب الورق سوى بضع قلوب تحتفل بمشاهد عشقها وهؤلاء بدؤوا يفكرون بانبعاث المشاعر وتدفقها كظلام القبل السرية.. معضلتها تلك المرأة الخائفة المنطوية على نفسها وحبيبها، إنها تحجب نفسها عن حقيقة نبضها بهراء يسمى حب الذات والأنوثة المغرية، لم تقف يوماً على مرآة نفسها لتتأملها من الداخل بل كانت تحبذ طوال عمرها الوقوف أمام المرآة وتأمل زيفها الكاذب وطلائها الباهر، فكيف لمثل هذه المرأة أن تكشف جدية فكرها من هرائه، كيف لها أن تدرك مالها من الرجل وما عليها أن تفعله إزاء ذاتها، قد تثرثر أمام باقي الرجال بالمباهاة عن عدد العشاق الذين بكوا على ركبتيها، ولم يستطيعوا أن يمسوا شغاف قلبها، وتتصنع النرجسية كما تتصنع المتعة الجسدية مع زوجها أو أي عشيق سري، ولو سُئلت امرأة ما كالتي سألتها عن رأيها في جان جاك روسو وموقفه إزاء المرأة بأنها خادمة وضعتها الطبيعة في خدمة الرجل لقالت: إن روسو بذلك عمد إلى تدليل المرأة وتجميلها للرجل، كأنهن يملن في هذا الرأي لعبادة القوة لدى الرجل تمويهاً لنقصهن العضوي، لو أنني أستطيع أن أصور أو

أجسد نظرات حبيبتي وإشعاعاتها الخاطفة لبريق عينيّ لكان عليّ إذاً أن أعمل في مختبر إيكو الشعاعي أو في أي مخبر فيزيائي، أو لتتلمذت على يد أحد المشعوذين ربما استطاعوا أن يجعلوني عرافاً أو ينصبوني في نهاية الأمر أميراً على سبيل الافتراض والمجاز، فتنهيدة الصدر لها ألف عبقٍ قد يكون هذا العبق مركباً من شتى زهور العالم ونباتاته السامة منها أو المجدية للنفع، والحديث عن المرأة التي أحبها أو التي أجسدها أو أتخبط باسمها أو ليكن ما يكون إنما هو مبعث ارتياح ومحاولة لتخفيف عبء الأنوثة ما أمكن عني كي لا أصاب يوماً بديسك الشعور أو التهاب المفاصل القلب أو نقص المناعة العاطفية، إنني أعرف تماماً أن الحب يمارس ولا يكتب وإن أكثر الأدباء تخبطاً وإفلاساً وغباء هم الذين ظلوا فريسة الكتب والقواميس والحجر الأكثر رطوبة وفوضى، لكنني ولأجل الأمانة العاطفية وللتأكد من سلامة نبضات قلبي، أعمد إلى فحص طبي دائم عن طريق الكتابة لأطمئن على صحتي ولياقتي في الحب ومن أجل أن أنال من الزمن الذي يدينني طوال العمر، وبذلك أجيد ترويضه تماماً وأكبح جماح غروره وفظاظته.

2009م

هاجس الغد

بعينيك خبّأت السحاب كي يهدأ، قبل أن يسكب دمعه، وطرقت أبواب الحكايا الغابرة، كي أرويها على مسمعك، علك تخرجين من عنجهية الوهم وعبثيته، كلانا سليل العشب والماء، نسير في الحياة كظلي شجرتين، نطالب الغيم النجاة من طوفان الشوق.. لحظات من الشجن تنتاب مخيلتي، اعتدت أن أعتذر للشجر الظليل في حضرة السكون، قلبي يعتقل الشوق ويخفيه بعيداً عن أعين الموتى.. الألم بدأ يأخذ مناحي أخرى، تسرّب من شقوق الخوف لينتهي بعيداً، باحثاً من ثغرة أخرى تسربه، شارف الصمت على إنهاء عزلته، ليصرخ طويلاً دون توقف، تشرب البؤس مياه القسوة، مالئاً معدته من جحيم الكآبة، كم فكَّر بنهاية سعيدة لذاته، لكنه فشل، لم يعد لديه خيارٌ لاستقبال النور، للبؤس حكايا لا ترتوِي من سمع البشر، تقتلع المرح من حدائق الحب، فتزيد الحنين بكاء، تقوض أركان التفاؤل، كم مبهمة أحزان البلابل والطيور المهاجرة، كيف لم تستجب لدقات شجني، وهي تعزف للغروب نشيد الوداع الأخير، نافذتي ترمقني بحزن، تنساب على طول ذلك الطريق الجبلي الوعر، مبهمة كالفكرة قبل خروجها من مخاض التساؤل، وبين حوافر الرمال الصفراء تصرخ أقدام امرأة عاشقة تحمل في ملامحها هذيان الأساطير، جسدها يلامس أقطاب الجهات، حين تذرو الرمال في وجوه الطواحين، فمن أنا!، ذلك الذي لم تره ذاتي من قبل، هذا لأن اكتشاف الذات، عصيّ كما الاستحالة والعناد، أيتها الصعبة كوثبة الغزالة حين تهرب من فحولة نمر هائج، لا تهربي، ليست لدي مخالب الوحوش ولا أنياب تسبح في بحيرات الأفاعي، أنا قاتل الموت في أوج استبداده.. سأمنحك جبروت الثلج في عناقه وترويضه للجبال الثائرة، لن تحتملي برودة المحيط أيتها الذهبية الشعر، المنقوشة كالصقر في رقم المعذبين، ضعي مسك عينيك بأحداقي المتعبة حتى أبتكر للبكاء، مشاهد دموع لا مثيل لها، خذي معطفي، إذا ارتطم بك البرد الغريب عن الحب سأسير أمامك قبل أن تصلي لأعماق هذا السرداب.. الجنون العميق ينثر صقيعه في قلب الزهر، أمامك

بحر من ذهولي حاولي اجتيازه سباحة، لن تتعلمي ذاتك مالم تستنفذي عواطفك الخامدة، وتستنفري نبضك ذلك الشقي، أيتها المهملة في بوتقة الفراغ الآسن، يا وشم الكبرياء المرسوم على كتف صخرة صلدة، تحركي كوابل برق من أتون التجمد وانزفي ألقاً، هذا جبين الأسى يرسل أشدَّ أنغامه من فمي ليموه هذا القبح الراهن بمياه الذهب والماس، اجعلي من عينيك قنديلي عشقٍ يأبيان التكسر بحجارة الوحل والكلس، أخرجي شالك الحريري واقذفيه بوجه الريح، هكذا سيحالفنا الحظ، وننجو من صمت السكون المريب، أحتاج شجني ليحرضني على ارتكاب الجنون ثانية، دون الإحساس بنوبات الفزع، هذا لكوني خارجاً من متاهة القاع المتلاشي، سأحدِّث الأحلام طويلاً عنك أيتها العاشقة الخريفية الجموح، سيتعلم التاريخ هدوءك، سيعتبر من صمتك، ويبوح بموسيقاك لأجيال الغد، سيتذكرنا الجيل الآتي، لن يحزنوا على طريقتنا، لن يكتبوا ما نكتبه، ولن يأبهوا لهذياننا، ولآهاتنا فهي ملكنا لكنهم سيباركون عشقنا لأنه الإرث الذي سيساعدهم على التجدد والانتماء للجذور التي ستربي فيهم الرغبة في الحياة.. ماذا عن طفلي، سيتواضع كثيراً لوقار نرجسيتي، لكن سيحمل خلف ظهره عصا غليظة ليكسرها على رأسي إن نبست بكلمة كذب، لن يتقبل الجيل الآتي تحايل السلف عليه، ولن يهتموا بالمساومة أو بقليل مما نعتقده صالحاً، للجيل توليفته الخاصة به، وكذلك أفكاره وحماقاته التي هي امتداد لحماقاتنا وحماقات آبائنا وأجدادنا وما أجدادنا سوى أحفاد لأجدادهم وما أجدادهم سوى مريدين لأجدادهم، ليحفر الجيل القادم أخاديد التمرد لنا، وليحدثني طفلي عن هذا الكون في أوج رؤيته له، وسيمتطي شيئاً من أفكاري وكثيراً من لعناته، علَّ الغد يكون الأفضل، ليكن الأفضل عزيزتي، هل تراودك هواجس الغد حبيبتي!؟

وقفات اعتبار

في لحظة، تتناثر الهموم غيمات في الأجواء من خلال مخيلة مرهقة ومرهفة أعياها التأمل، واستنفرت همم العبيد في ربيع السذاجة العربي، وكل الثعابين استفاقت لتعقد المخيمات للاجئين والاتفاقيات والمعاهدات على الطاولات المستديرة، وفي ظل كلِّ هذا الهراء والنعيق المنتشر في كل مكان، أخذ الترسل في التأمل منّا مبلغاً، فبدأنا بنثر الحروف هنا وهناك وبدأ التساؤل عدَّه التنازلي، علّه يوقظنا من هذا السبات الذي طال أمده، واستجمعت الصفحة البيضاء كل قواها، لأجل أن تستقبل أثقال الكلمات الكبيرة التي تحمل جوع المحاصرين في حمص[23]، ومخيم اليرموك[24]، معاناة الأطفال الذين تربّص بهم السقف المتداعي، وكذلك البرد الأفعواني الذي التفَّ حول أعناق أطفال الزعتري، ومخيمات لبنان، وما زال هذا النباح المتصاعد يخفي خبثاً ولؤماً عميقاً في أرصدة منجزات المجتمع الدولي إزاء الثورة السورية، ومازال هذا الورم السرطاني يطأ قمم قاسيون ليسيطر على الحمائم البيضاء التي حاولت لأكثر من مرة أن يواكب هديلها عزف الحرية، وبدأت قطعان الشؤم الجاهلية تعربد في قطع الرؤوس وإحراق الباصات والشاحنات لتدك حصون النور من جذورها، كل ذلك استكمال لمسلسل الرعب السوري.. لم تصدأ البوارید بعد ولا الأسلحة الفتاكة ولا سيما التي هي من صنع روسي، لم تصدأ المعنويات العنترية ولم تتلاش بعد صرخات المعتقلين الذين ترهلوا وهزلوا وصار منظرهم كمنظر القطط التي حلَّل تناولها شيوخ المعضمية كبديل عن الطعام المنقرض هناك.. من منّا يستطيع الثبات في ظل واقع أرعن، عمره سنوات، وراح يلفظ أنفاسه الأخيرة لديه..

المقياس الحقيقي لمعاناته التي تتعدى خمس السنوات بكثير، إنما هي عقود من الفزع والجبروت والصمت الجبان قياساً لدمعة طفل وأنات أم أو

23- حمص: مدينة سورية.

24- اليرموك: مخيم فلسطيني في دمشق، سورية.

أبٍ، وغيم نرجسي السواد، فاقعٌ البؤس المتكاثف. ماذا نسمي هذا الاغتراب الذي تأصل في ذواتنا، نحن السوريين، الرابضين في قمم الوجع، رصيد حضارتنا التليدة لا يشفع لنا.. نحن البائدين كقطعان الوعول والأسود التي تكاد تنقرض في جنوب أفريقيا، نحن اللائذين بحياة تشبه دفء المعاناة في شتاء مكتظ بالزمهرير.. أروي حكاية سورية التي استفاقت على مطرقة الاستبداد الفولاذية، التي نامت بالتزامن مع المطرقة في أخاديد الصمت والتكميم.. الآن تعلن حربها الطروادية على النفوس العارية من أثواب الضمير البيضاء، للموت عدة وجوه، وأجمل وجه للموت هو الموت المعلن الواضح الذي يداهم الإنسان في ساعات ترهله الجسدي، بينما ألدَّ أنواع الموت هو موت الإحساس، الكرامة، الضمير والذاكرة، والقلب، موت العقل! وهذا ديدن القتلى والقتلة ومخططي المشاريع في شرقنا الوطيء..

ومضة ضجيج

الشارع مزدحم بالمارة، أصوات الباعة المتنقلين، صخب السيارات، تبتلع الهدوء بشراهة، غبار يتداخل برائحة الخبز والسماء، يركب أهرامات النور في ساعات الظهيرة العصبية، ثمة أغنيات تملأ الازدحام المروري الذي يعجّ بعرق المتنقلين وخواطرهم التي تعشش في النفس، سرت عابراً متعثراً بالوقت الشتائي، ينشر معاطفه باسم المطر، وعلى نفقته، أبحث عن وجهها المتسرب كقطرات الندى خلف النوافذ البعيدة، أخاف من ضباب، من جمال يهيم في المسامات، تنتشي في ممرات الخيال الفسيح، أتجرع نبأ الولادة من الهواء يتكاثر كالبخار في هذه المدينة المتخمة بالنعاس وبالفوضى، ذات مساء، نرتاد من خلاله سهر الأربعاء بدفقة إحساس يبديه لنا الثمل الشفاف، اعتدت على الضحك الطويل مع همسة تكاد تختفي وتتداخل مع أنسجة المتعة والمرح، أصدقائي نسوا الوجود والبرد لحظة اللقاء، فما عادت أسطوانات عبد الوهاب[25] وأم كلثوم[26] وأسمهان[27] والأطرش[28] تذكي على نفوسنا الغذاء الروحي المتكامل، بل كنا نخمد جوع الليل بإيقاعات الديسكو وموسيقا المارينز والقيتار وأنات شاكيرا[29] ورعشاتها المتقنة، وهلوسات جاكسون[30] التي تلبي في ذواتنا النشوة المجنونة، وكانت أناتنا تتلاقى مع شذوذ العشق ونكهة الجنون الموسيقية، تلاحقنا طبول التدفق والإغواء ونتلاقى مع أعقاب

25- محمد عبد الوهاب (13 مارس 1902/4 مايو 1991)، أحد أعلام الموسيقى العربية.

26- أم كلثوم (الاسم عند الولادة: فاطمة إبراهيم البلتاجي)، هي كوكب الشرق، سيدة الغناء العربي مغنية وممثلة مصرية.

27- أسمهان: (25 نوفمبر 1912)، (14يوليو 1944)، مغنية سورية، وممثلة، شقيقة الموسيقار فريد الأطرش..

28- فريد الأطرش (21 أبريل 1910 - 26 ديسمبر 1974 [1])، موسيقي ومطرب سوري

29- شاكيرا إيزابيل مبارك ريبول (2 فبراير 1977 -) في كولومبيا برنكويلا هي مطربة بوب (Pop) وروك (Rock) كولومبية من أصل لبناني.

30- مايكل جوزيف جاكسون (بالإنجليزية: Michael Joseph Jackson)؛ (29 أغسطس 1958 – 25- يونيو 2009)، موسيقي ومغن وراقص وشاعر ومنتج أغان ورجل أعمال وناشط إنساني أمريكي.

السجائر ودخانها المنزوي بضياعنا، نشعر أن نبضاتنا إلكترونية وعواطفنا مبرمجة، ربما لأننا من عشاق الطرب الجديد، نتلهف لأخبار هيفاء وهبي[31]، ونانسي عجرم[32] ونتفاجأ بنبأ زواجها بطبيب الأسنان، ونفتن بغنج أليسا[33] ودلعها، وبولع روبي[34]، ونفجع بشدة لوفاة الفنانة الملاك سوزان تميم[35] أكثر مما نحزن على رحيل جنرال أو سياسي بارز، عشقنا للحياة تسلل في رغباتنا المملة، نغرق في اجتماعات الثلة التي تبحث عن جديد، ومخفف نستلذ به لدقائق معدودة، أجمل ما يلفت في أحدنا قناعته الغريبة والفريدة في عشق المرأة، فبعضهم لا يرى غير لذات الحواس لغة في تبادل الأهواء معها، والآخر يراها روحاً مفقودة في زمن المخدر، زمن إعادة العذرية والعلاقات المعلبة، لحظات نسردها تبقى في البال كأجمل لوحة تضاف لمسلسل بقعة ضوء الرمضاني، وتضاف على السطور كحادثة طريفة يلقيها رواد الزمن على فضاءات الخواطر، أحلاماً تخاف طويلاً من بقائها فتتبخر وتهرب مع النسيم الجاف والبارد معاً..

31- هيفاء وهبي (10 مارس 1972 أو 1976 مغنية وممثلة وفنانة استعراضية لبنانية.

32- نانسي نبيل عجرم وُلدت في 16 مايو 1983، هي مغنية لبنانية.

33- فنّانة لبنانية.

34- روبي (8 أكتوبر 1981)، مغنية وممثلة مصرية.

35- سوزان تميم (23 سبتمبر 1977 - 28 يوليو 2008)، مغنية لبنانية.

هواجس قلب..

تباً! شيء ما يصيبني بالغثيان، بالهذيان، أفكار تداهمني، تستوطن الهواجس نعش مخيلتي، طيف فتاة بلهاء يدنو قربي، وطيف شاب أبله يخيم فوقي.. يخيل لظله أنه مجنون، ظل يتساءل هكذا، بينما راح يحاول النوم أخذت الهواجس تراوده، يزدحم طابور النعاس بجفنه فينسى ويستسلم لشيء يشبه الموت أو النعاس ويشبه أحياناً الحلم، قال في نفسه عندما بدأ التعب يتسرب داخله: -عذراً سأتوقف عن الكتابة، ساعدني يا ليل على النوم فأنا الوحيد الذي يستحق النوم كأمثالي من الذين ليس من الضرورة أن يبقوا يقظين، حيث لا جدوى من يقظة لا تفعل فعلها في إدراكنا لما يحدث في هذا الوجود، وحيد ذاك الرجل الغارق بمحيط تأملاته ومعضلاته الفتية، يملأ وقته أحياناً بمجالسة صديقه الذي يشاركه تقاسيم عوالمه فيغدوان معاً وحيدين، يمضيان كل في طريقه يبكيان بطريقة مختلفة ويضحكان على نحو متشابه وعلى حدة، المدينة التي يقيمان فيها، تسكنها الوحدة ومن في المدينة وحدهم، وحيدون يسهرون في أزقات الضجيج لهم نفس الملامح عديمو السمع، يتناقشون بصوت مرتفع، ومن غير موضوع محدد، فقط لمجرد أنهم يتناقشون، حول أزمة ارتفاع سعر المازوت، وارتفاع أسعار الخضار، وحول البطالة والرشوة في المؤسسات الحكومية، وعن البغايا في الطرقات، وزيادة عدد المخبرين، وسوء أوضاع البلاد! ذاك الرجل الوحيد يميل إلى أحاديث النساء، ويشتد حنينه لفتاة وحيدة تشاركه رغباته مثل كل امرأة عذبة جميلة.

وحيدات يمشين في ناظريه، متأرجحات القوام، يطأطئن نهديهن للظلال التي يسيل لعابها، يختلفن لأتفه سبب، يضجرن من صمتهن! وحيدة أنغام تلك الشابة التي تقرأ نفس الآخر، تتوقه بحكمة العطشى في استجداء الماء تعشق ذاك الغارق فيها غرقه بتأملاته ومعضلاته الفتية، ظل عشقه يتلبسها، كجني أزرق يخيم في زرقة عينيها، تندب أرقها وتقلق من نظرة عفوية يصوبها أحد والديها إليها فتشعر بالانفعال وقليل من الرضى.. تأتي سعاد إليها

فتبقى معها لفترات غير قصيرة صامتتين وحيدتين، تخلعان سراويلهن من شدة رطوبة الغرفة المطلة على الشاطئ من بعد أمتار قليلة وينمن بعد أن تدلك إحداهن ظهر الأخرى، يشردن فترة.. بعدها قبل أن ينمن، ويحلمن بفارس أحلامهن، عدا أنغام ففارسها مروض كالفرس من حب أخذه أخذ عزيز مقتدر، الوحدة ملكٌ لرواد هذه المدينة التي تختزل الوطن الوحيد والكون اليتيم، حيث يمضي نادر الغارق في محيطات أنغام العميقة وتمضي معه أنغام تتفحص ندرة الشوق الذي يعتريها تجاهه، يفكران من خلال لقاءاتهما عن سبل النجاة والخلاص، فيقعان في أفخاخ سوء المصطلحات وفهمها، يفكر أحدهما بالموتى الأحياء والأحياء الموتى، وفي أتون هذا الصراع الدائر تتعانق في أرجاء روحهيما تلك الزوبعة الملتفة حول خضاب دم الحب وسواد الليل، ليبحرا بحبهما طويلاً وعميقاً بامتداد المدى الأبيض، وفي شتاء عاثر أضاع فردة حذائه، فبدأ الحوار الإنساني يثب على قدميه لحظة بادلت أنغام شرود نادر بهمس هادئ يحاكي جنون العاصفة قائلة:

- لا شيء يشبه صمتي، ولا حتى ضجيجي سوى هدوئك وهمسك.

- لأن الكل هارب من زنزانته والكل يفكر بالهرب، لا أحد يدرك حريته حين يهدأ فجأة..

- أحتاج إلى ذراعيك كي أنمو زهرة في ترتبتك..!

- أحتاجك أيضاً.

هكذا بدأت الأنامل تهتز سروراً داخل بعضها، يدهما تتشابك يمشيان معاً، ظلت وردة الجوري البيضاء ترقبهما، استدارت قربهما، بخجل يشبه خجل البرق حين يلامس أعلى شجرة طويلة.. همست الوردة البيضاء لهما بعبق كثيف، فامتلأت براعمها بشوقهما، هناك في الحقول، كل الأشجار تملك ذاكرة الحزن، تستولي على الضجيج والأحلام التي لا نهاية لها، حيث تمد روائحها إلى النيران التي تأبى الانطفاء حين تعلن نهاية الخوف، وحده الصمت يعقد قرانه مع الريح لحظة شرود ثقيل يهبط من ثناياه الدمع كسطل مطر شتائي، كل الزخات مخدوشة، كل الخطوات ممزقة الآثار في هذه المدينة التي تجر أذيال خيبتها العريضة تخبئ حمّاها وسط شوارعها

وخلف حاوياتها، دروبها تنكر أقدام الذين اعتادوا على الفرار عليها، والموسيقا تطلق حواراتها في مهب الحب، حين تعزف الألم أنشودة صاخبة، تطلق خيول أعماقنا لجري طويل، حيث يبقى نادر لساعات يحفظ فيها روتينه المتقلب، مزاجة المتبعثر من هيئة غرفته المبعثرة وجوها المغبر، ارتدى الشجن بارتخاء، بدأ يعقد حلقات دبكته وأنغامه، في قرى حنينه النائية، خلف هضبات الجحود، سفوح خيبة عرجاء، هنا في هذه المدينة الوحيدة يجر الباعة آهاتهم المتصاعدة، خلف عمال البنايات الذين بلغت شهقاتهم ناطحات السحاب، كل رواد المدينة يعيشون وحدتهم، حيث يخرج من بين الصخب، سرب أطفال صغار أخرجوا طائراتهم الورقية وأخيلتهم الفضية ليملؤوا التأمل، من مياه المرح الفاترة، ظلت أنغام مترسلة بشرودها وهي تنظر من خلال بلكونة شقتها، لصمت نسج غزله المتقن في ملامح نادر، الرجل الذي أخذ يعاين أورام شوقها من خلال المدينة التي تتجلى بهمساتها المعروقة تعباً وشحوباً، قتامة الكون وشهوة البسمات

منبج – حزيران2011م

مـوت

يجري الغروب ماءَ، بين أناملها، الفتاة المنطوية الجالسة قرب النافذة، تتأمل المغيب ببطء المتيقن حين يفكر بعمق، الوقت الفائت من اليوم يقلقها، فهي تخوض في دوامة من الشرود الحزين، لا تعي ذاتها بين شواطئ الحيرة، وبحيرات التساؤل، نسجت صمتها ببراعة حول تلك الغيوم الممتدة، بعيداً إلى حيث الجبال، فتشت في قيعان اليأس عن سر حزنها، لم تستطع الكآبة أن تواسي نظراتها المائلة نحو الأعلى، نحو ذاك الشحوب، بين لحظة وأخرى تلتقط ذاكرتها العديد من الصور المؤلمة، مع كل صورة أخذت قطرة دمع من عينيها، تنتحر على خدها، وقطرات أخرى سقطت بعيدة عن أناملها، وأخرى ارتطمت على النافذة بجوار الستارة الزهرية، هكذا في قرارة أعماقها، تتكلم، تصرخ دون صدى، لم يعد في الأرض بياض، تلاشت السماء، تبدد الحلم، تابع الحزن كسيره بخطا ثابتة لا تعرف الالتفاتة يميناً أو يساراً، تابع الحزن مسيره نحو صدرها.

- ما بي لماذا كل هذا الألم، لماذا لا تكترث بي إلهي، همست ببطء وأنين، شعرت فيه لحظة ما بالبكاء، فقامت نحو سريرها، وغفت عليه كطفلة، تحضن وسادة وتغفو على أخرى، خرج البكاء في تظاهرة لأجلها، اعتزم الحزن أن يتابع زحفه، دون توقف، وفي ساعة أخرى مبكرة من الصباح، لم تتحرك، لم تتحرك أناملها الناعمة، كانت قد فارقت زمناً أسود لم يستعد البياض من الفجر، ماتت دون أن يفتش حبيبها المنسي عن قلبها، ذلك القلب المتعب كتلك الدروب الطويلة الموحلة، وتلك الأشعة التي يفرزها حقد الغروب من عينيه.

شيء يشبه الحلم

لا أدري ما الذي يمكن أن يحدث لي حينما أفتح على نفسي باب الحنين، باباً عتيقاً قديماً لابد أن يوصلني إلى تذكرك، تأمل رسالتك الوحيدة التي كتبتها، قبل أن يندلع فتيل النزاع في سورية التي تحولت إلى مقبرة أحلام تنهشها الكوابيس، الشتاء على كلٍّ طويل كما ينبغي، حديثي عنك لن يكون جديداً وقصيراً، عبد القهّار، تقضي ساعات طويلة في مقهى الإنترنيت، برفقة حديثك مع تلك الحيزبون التي وصفتها، سلوى فرح، تلك التي امتهنت عقيدتها، تناسخ الأرواح وما شابه من تخريف في حين تقضي معك، حالة الاستمناء الحسي الجنسي في حديثها معك ومعي على حد سواء، إنه موسم الكلام الثقيل في هذا الزحام الذي تمدد كأفعى السل في طريقي الشاحب، أسترسل في الكلمات الزاحفة كلحى الدواعش[36] الذين اكتسحوا كل قرية أو بلدة في بلادي، ولا أعلم آخرة ذلك الحنين المرتدِّ علي، كالصدى الماكر، وأنا قبلها، أمزق الورقة تلو الورقة، علني أعثر على ما يسمى بأمان مؤقت لتذكرك، أيها الهزيل النحيل كحكاية سورية مزقتها جحافل الاستبداد التي ما دأبت تقتل البياض في ياسمين بلادي، أخبرتني أيضاً في آخر آونة أنك انضممت إلى كتيبة عسكرية تقارع النظام، لكنك أحسست أنها مجرد ثغاء على أسطوانة صدئة، إهانات الأخوة قد لا تستطيع تحملها، الكل يلهث وراء الرصاص والموت والسلب والنهب، وأنت ما تزال تتغذى على حلم شنقوه، من خلال صرخات تردد الله أكبر، وأيد هستيرية تحز رقاب آخرين يلزمون بتنفيذ سيناريو قديم ومدروس، بينما أنت، تجمع كل أوراقك واحتجاجاتك لتخرج من منفى إلى منفى، حتى منافينا تتوزع بين حواجز اللصوص المقنعين، واللصوص المرتدين لباس الجيش الرسمي، مقهى الإنترنيت، لقاؤنا هناك في بداية ما قبل الموت العام في وطني، إذ صرنا نعرف شيء يسمى بالفيسبوك، أخذت تعلمني طريقة استخدامه، كذلك

36- تنظيم مسلّح يتبع الأفكار السلفية الجهادية.

كيفية إنشاء إيميل: (بريد إلكتروني) على الـ "هوتميل" كان ذلك من أجمل اللحظات الممكن، الحديث عنها نظراً لسذاجتها وبراءتها، قبل أن تتمادى الأفعى في الطول والضخامة في بلادنا البائسة كرغيف خبز فقرائها وأيتامها، التذكر طويل جداً، قبل أن ينسفوا الذاكرة نسفاً، قبل أن يوسعوها لكماً بأيد عريضة، هذا المدى لا يكفي لصرخاتك، تنتظر بشارة، تنتظر انبعاث دماء جديدة وعقول جديدة، تنتظر حلماً كنا نغرد لأجله طويلاً، خارج السرب، لكن مدينتي منبج[37] المعجوة بشوكولا الحب والمشدوهة بنظرات غريبة صغيرة، ترصدها وترصد حركاتنا، ما أجمل مطر منبج، و"نادي الباسل" في القبو، و"مكتبة الباكير"، و"شارع القنبور"، ملامحك، وأنت تلهث وراء قصيدة، كتبتها في "منتدى النيل"، وأخرى في "اتحاد الأدباء والمفكرين"، هكذا أحلامنا على قدر ممشانا، وسعة الخطا، حيث أرتاد كل حلم صغير أو لحظة باسمة، حين أتوجه لمقهاك، أتناول الحنين كفطور، أمسك بقلمي، وأبدأ الكتابة.. تحدثني بملامح دافئة، ككأس الشاي الذي تعده مبتسماً، وهأنذا أكتب مثل أي طفل ما يشغله فقط، أن يجمع حقيبته المدرسية، قلمه، ممحاته، ومبراته ودفتره ويذهب، ليخلد لنوم يليه دوام صباحي، الكتابة شغف، جنون وطرب، حين أمشي في كل ركن قد يتيح لي تداول أي معنى، لتعانق الشعور مع الأرض، لحظة المطر، كنا نعبر الحلم تلو الحلم، الطيف تلو الطيف عبر ممشانا الطويل لحين وصولنا البيت، تتعطل حواس الكتابة حين تحاول مجابهة اللحظات الجميلة برقابة عنيفة على كل ما مضى أو مرّ، ولداك اللذان يتحركان حولك مثل قطتين تعاكس إحداهما الأخرى، بينما أكون جالساً قرب طاولة الكمبيوتر، أشحذ الثواني والدقائق في الدخول للإنترنيت، إلى صفحة الفيسبوك التي باتت تنظر لما نحاول إخراجه، وكذلك إيجاد الممرات ما بيني وبين الآخرين، لقد سلب الغوغاء والجبناء جوهر الثقافة من مركزها الثقافي، فعلى يمينه شعبة الأمن السياسي، وعلى يساره شعبة الحزب العتيق، ولم نجد بين المصفقين والمطبلين والكاذبين

37- منبج: مدينة سورية قديمة وأثرية متوسطة عدد السكان والحجم، شمال سورية.

مأوى لغرورنا المبارك، لذلك رأينا في الفضاء الافتراضي الفسحة الأكثر حرية في العزف الحر والمنفرد، على عتبة الرفض وشعلة الحلم الذي لا بد أن يتحقق، الآن وبعد مرور سنوات على الانتفاضة السورية، تسألني عن لصوص جدد لبسوا عباءة الدين وبدأوا ينشرون الرائحة ذاتها التي لطالما هربنا منها، وتسألني عن كتائب الإشارة، والمداهمة، والثوار، التي بات كل منها يتصرف كراع رسمي لشعوب اعتادت النزوح بحثاً عن مأوى لأحلام تم اغتصابها بانتظام. وللحديث بقية..

تلميذ الجحيم

المساء الغامض يلفنا بأعقاب سجائره، تكاد ممرات الألفة تنطفئ في ملامحنا المعتدلة، بينما تحاول يائساً عبر ملامحك الرمادية، أن تلقي علي محاضرة، مللت من سماعها! تحب الفلسفة؟ جيد! لا تقصر في أن تحوم كطير مراهق حول المصطلحات، والحيرة الساذجة، تكتب بكل ألفة، بينك وبين المقال ذراع من الوهم تحاول وبخفة ممتلئة، أن تزجر خيبتك المستطيلة بوشاح من التساؤل، تتحدث عن الزمن بتشاؤم رجل ناهز الألفي عام، لتقول لي أحياناً:

"المساء كلمة ويل تفتح جذور الأمل، والحب كلمة شوق تبدأ بأشعار الويل..!"

أفكر بهذا ملياً، إذ إن الأمل مرادف كل ويل، أو أنين، يضعنا أمام تحد القدر لحظة الكتابة، مجدداً تقول:

اعلم أيها الشاعر أنك مولود من رحم الشقاء ومن جوف الألم، والمعاناة.

إنك تملؤني بأسئلة مسيجة، بأفكار تسبح على سطح غيم، تدخلني لبوتقة الصدف، حينما أحاول استرداد شيء من طفولتي في الريف، وأنا على ظهر حمار يجر الحبل المربوط إلى وعاء بلاستيكي كبير ينزل إلى قاع البئر، ظهر الحمار مؤلم لمن يجلس عليه دون سرج، ضيعتك المثخنة بالشجن، المليئة بالتنهدات الحمقاء، كم أتوق لهدوئها من خلال حديث بسيط معك، دون تبحّرٍ في مهاوي الفلسفة وأسرارها! ما أجمل التلة المجاورة لبيتكم، تحكي الكثير من الأشياء عن نظراتي البعيدة في السماء، بعيداً عن براثن الخوف والتعقيد من الآتي، أكتب عن أجمل المواقف وأكثرها بساطة وعفوية، إنه الرصيد الذي أحتفي به، رغم قتامة الأيام الضحلة، تعج بالحوادث والمعارك، ندرك عويل الحزن في الحرب، حكمة الشروق، الموت بات الحكاية المكررة في حياتنا، الآخرون يتقاذفون السكوت والاغتراب عن مدارك الذكريات شيئاً فشيئاً، بينما نقصّ القصص، كالواضعين لفافة التبغ في أفواههم، مستمتعين بتناول الألم المعتاد، فلم ننس حياة بائسينا عن الدوام،

لكننا نجترّ آهاتهم بدقيقة من تأمل وتمرد، نعلم عن الحقيقة إنها مدعاة سخرية هادفة لحياة لا نملكها، لا يمكن احتكار اللحظات التي تعبر فيها، لخلو حياتنا من أي نكهة، سوى المرارة التي تشوي الحلق حين البكاء، وددت الكتابة لك بلا سابق إنذار، لتعرف تذكري لك كأي هاوٍ للتصلصِ على ما مضى وبتحايل مكشوف، نعم عزيزي، أيها القروي المتمرد، الفارّ كعادة كل المتمردين والمزارعين، من فلول الجماعات التكفيرية التي حلت كالسرطان في بلادنا، نحو انطاليا[38] المدينة اليونانية الفائحة حضارة.. تتجه، أنطاليا التي انتعلها الأتراك، حداة الجياد، لتقطف الرمان، تعود لبيتك منهكاً بحلول الليل، ألا تباً وسحقاً لهذه الحياة، تباً لفلسفة الجوعى وشعاراتهم، ألا سحقاً لجهاد النكاح أيضاً.. أنت قلت ذات يوم، وكأنك تروج لدعاية الكآبة، حين باغتني بهمس شحيح وكئيب مفعم بالتأوه، نحن أبناء الكآبة، نعيش في مجتمع، الحر فيه مضطهد، تباً لهذه الحياة البائسة، ليس ثمة حرية إنها من أوهام الضعفاء، الذين امتصوها من عباءات النبلاء الأقوياء، اعتاشوا عليها، دونما ماء يسدُّ الرمق! كذلك هو الجحيم يا صديقي هو أب لمن يعاني، وأمّ لمن يطمح، وأخ لمن يفكر، فبئس الجحيم، كم توقفت مراراً، قصتي هذه كانت مثل محطة مؤلمة، نبض قلبي يعلق ظهره في عقرب ساعة جدارية ضخمة، وأنا أقوم بنثر كل الأشياء التي تصاحب انقباضة الوجع وتقلصاته حين قص الألم، ومع هذا فلابد من تذكر بيتك المهدم الآن، وحكايا القرية التي كنا أنا وعمي متفقين على تسميتها، (ضيعة الموتى) وهي الآن أصبحت بالفعل أحد الممرات الحربية والجبهات التي تصارع فيها الموتى، حتى ترملت أسماءهم في تلك الأماكن ومغاراتها المترعة بشائعات كونها أثرية، تكتنز بالذهب، لم أجد أملاً في بلاد الفزع، وبلاد المخيلة الفضفاضة، حيث رجالها يجلبون البطولات بالكلام والعنتريات من

38- أنطاليا: أنطالية[3] أو أنطاليا (المعروفة سابقا باسم أداليا أو أتاليا ؛ من اليونانية البامفيلية [بالإنجليزية]: أطاليا Αττάλεια) هي مدينة تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط في جنوب غرب تركيا.

خلال شتم نسائهم وضربهن، فلم أبصر سوى صرير القلم يحاول أن يشفي غليله من كل شيء مدعاة لألمٍ أكثر يسراً على التذكر والإسهاب، إنك تلميذ (شوبنهور[39]) في التغزل بالجحيم، فلطالما أخلصت للجحيم من خلال ركونك طويلاً من الظل، حين قلت هنا لا تقنع بشوك اليأس من بين الزهور، فوراء أوجاع الحياة عذوبة الأمل الجسور، لم أقنع بشيء سوى بما أكتبه وأبثه من لواعج الحنين، ها قد وصلنا لشاطئ الموت، ماذا بعد يا جحيم، خذ ما شئت واحرق ما تريد، لن يأخذ منا سوى أعباء رغباتنا التي أثقلتنا بكل الخيبات والدموع، نحن لا نشعر بالغيرة من الأموات، ولكن لا يمكننا تغيير طعم المرارة التي خلفتها جراؤهم، وأثناء حوارنا هذا، حلب[40] تغص في مشهد الكثافة المتظاهرة والرصاص المشتعل الذي كان ينبئ بالمزيد من التصعيد والموت، أرى الجحيم ينادي ويعلو نداؤه في حي الشيخ مقصود الغربي، حيث مقبرة السريان القديمة، تستمع جيداً للمزيد من الموتى، تارة باسم الحرية، وتارة أخرى مسبوقة بهتاف الله أكبر المكتظة بالعنف الهستيري، وفي كثير من الأحيان كنت أسترق السمع لأصوات تعرج إلى السماء دونما براق.. ولأقدام تبحث عن أحذية للخروج من بيت قد يقصف بعد ثوان، وهنا على ممرات النزوح تتصاعد أحلامنا كأبخرة الهواء والدخان الخارج من أفواه يحاصرها برد الشتاء، على طول الحدود النائية التي يواكبها وقع أحذية العسكر..

39- شوبنهور: أرتور شوبنهاور (1788 – 1860 م) فيلسوف ألماني، معروف بفلسفته التشاؤمية.

40- حلب: هي أكبر مدينة في سورية[5] وهي عاصمة محافظة حلب التي تعد أكبر المحافظات السورية من ناحية تعداد السكان. وهي تقع شمال غربي سورية.

شريط دخان لامرأة غيمية

تكون الحروف جحيماً، سقاماً وأحياناً تنقلب على صاحبها، كصف كتيبة منشق، وفي كثير من الأحيان لا تصير الخواطر إلا مضادات ضد ما نخجل من بوحه، أو نحاول استعادته، هكذا تسمر القلم لحظة، ناعتاً إياي بالإنسان الفوضوي، إذ لا يمكن أن أدس كل شيء داخل نص، فجأة صمتُّ، لم أتابع الكتابة، تبهت الحيطان خلفي، تتجمدُ مفردات الكلام، تنام بفورها الهواجس، خلف الأفكار متربعة كحبلى، تعبت من الجلي أو نشر الغسيل، لا أود ذكر روعة، تلك الفتاة القصيرة، تفضل ارتياد الأماكن الأكثر انغلاقاً، كنفسيتها المنهالة على الشخوص، الذهول، المتعبة من أي شيء، الخائبة كفنجان قهوة بردت على مقعد حديقة، تنشر اكتئابها، فوضاها، نزق حروفها في صولجان الروح، لم تعد تفقه، حوارات العميان، أنين الطرشان، خرجنا من الجامعة لتناول فنجان ميلو، لكنه برد خلسة، إثر حوار بارد، قصير، كقامتها، لم يكن يشير إلا عن تأخري لموعد امتحان أحد المواد..!

- وداعاً الآن! سنلتقي!؟ رغم أن اللقاء لم يكن أجمل مما ظننته فيك!
- واو، لماذا تقول ذلك؟
- لا أعلم اسألي نفسك ؟!
- أنا أحبك!
- وأنا أيضاً.. !

خرجت لامتحاني وعدت، تسمرت في كل الأمكنة المزدحمة بالطلاب، حواراتهم، أحاديثهم، بهتانهم من الأسئلة، ذاك يلوم زميله، عن رداءة نقله لإجابة الإسئلة عن طريق سماعة الغش، وآخر سعيد بإجابته رغم أنه لا يأمل النتيجة المرضية وهكذا، أنشر ويلات الحيرة، ساخراً من بعض المتفرجين على الحوارات التي دارت وسط ضجيج مأهول، في فراغ من الحلم واليقظة، الامتحان قضي ليس على ما يرام، أتفحص وجومي مثل ماكر

يحاول أن يتحايل على عصبية لم تخرج بقيت تنتظر إذناً من صراخي العابس بنزق، اتصلت بها، ردت، قلتُ:

- تعلمين أني لا أحب الضعف ولا أحب أيضاً ارتياد الشرود، فهو بيت أسوأ من العراء

- وانا أيضاً، لا تجلب لنفسك الشرود المتكرر، لست من اللواتي يمتهن تجارة اللهاث وراء شيء ليس ملكهن، أعني به أنت!

- قلت ربما، لن أتشرد في خضم ذاتك الملتوية!

- وداعاً إذاً..

- وداعاً.

في ذات مغيب طال غيابها، إذ تتعمد إطالة الغياب بين فترة وفترة، أطلت بعد سنة، اتصلتْ، خريفها، أكثر حنيناً، أخبرتني أنه يسكنها، يرغمها على الحنين إلي، قلتُ:

-لقد أغلقت شباكي بوجه الحنين!

-فيمَ أغلقته؟!

- حان رحيلي، تأخرتِ! لطالما كان داخلي حاراً تجاهك، لكنه الآن..

- لكني قلت لك إني ضعيفة ولست قادرة على احتواء داخلك المنتفض!

- وأنا لا أقدر على التماشي مع ضعف، لا يحقق لك شيئاً مرجواً، فوداعاً.

- وداعاً..

رسالتها الأخيرة كانت توحي بخيبة سوداء تناسب ملامحها المفضية، لمزيد من طرقات خجلة، لا ترتوي أو ترعوي من شراء التخمة حدَّ الثمل، غادرتها، لم أقم بدفنها غير الآن، لتكون عنواناً لشريط دخان لامرأة غيمية!

كنت ناظرةً إليه، عيناي تخطت جدران كآبتي، حدثني للوهلة الأولى، حيث لم أزل وقتها غائبة عن فهمي بما قد تفعله النظرة الأولى، بإنسانة، تتعامل مع الآخر بشفافية لا حد لها، شرد قليلاً، راح يحدق بي، كأنه بات يتنفسني، يقرأ أفكاري، باتت مبهمة بالنسبة لي، ما الذي يريده؟! رحت أتساءل بخجل طفولي، وحيدة أتابع خطاي، اقترب من الرصيف قبالتي، حياني ببسمة وانصرف، بطء خطواته دليل، على عدم رغبته في الذهاب بدأ الحب يسري بي شيئاً فشيئاً، بدأت بوادر الإعجاب والاستلطاف تظهر منه ومني، ما تزال عزلتي تفرض علي الانزواء، حيث أطبق باب غرفتي بهدوء، أغوص ضمن حلقة من تأملات راحت تدور بي، بسمته تتسلل بين ثغري، مرح أنامله راحت تصافح يدي بطراوة، تغفو بين أناملي، لحظة شوق ولقاء ناعمة، استولت على أحلامي المبهمة، إثر غمرة من حلم سرت بين صدري، كقطرتي عرق صغيرتين، تسربت في جسدي خفيةً

- ما تزالين صغيرة على الحب يا بنتي!

أوه! تباً، لا أحد يفهمني، والدتي ترفض معرفتها، أني كبرت، جسدي اكتنز جاذبية وسحراً، حيث نمت على غصن صدري تفاحتان، تحدثاني عن أنوثتي الطفلة، لقد كبرت، بدأت أدرك أبعاد ما يعتريني من إحساس ينثر باقات الحنان في مسامات مشاعري، تجرفني الأحلام، تنتزع مني شعور الكآبة، تسترد بي مفاتن السحر، تتلعثم عقارب الوقت خجلاً في داخلي، أستيقظ على وقع موسيقاه، تنتشلني من أعماق كآبتي وتنهداتي، تغزل لي من الصمت نشوة خفية، راحت تسري فيَّ، ببطء لم أعهده، للكون في غرائبه، لغةٌ غامضة، أخرج، أغادر غرفتي، بعد أن أرتب سريري، الوسادة، الشراشف، أمشي.. أتبع خطاي لذاك الممر الجميل الذي تصادفنا فيه أول مرة، كان لقاء غامضاً وجذاباً، التقط روحي بنعومة، حالمة أنا بدفء يهبط لقلبي، متأهبة لسير ربما يطول، لكن مازال بوسعي أن أملأ ابتسامتي أسى، أبحر في فضاء همومي، سائحةً ترتقي باسترسالها للأماكن الجميلة، أصوغ

من خيالي تاريخ رجلٍ، لم يأت بعد!، فكل محاولاتي هو العثور على ملاذ حقيقي، في ذات رجلٍ جديد، يعيش الحياة بأسلوب لم يعهده الرجال، لم تعرفه الأنوثة منذ سجنها الطويل ألتمس منها الأماني، زرعتها في حديقة روحي كي أسترد منه ما أمكن من حرية غير ممكنة الحدوث في عالم القيود، حاولت الصديقات منعي، من إنجاز ما رأينه مستحيلاً، في صنع علاقة متينة مع رجل، تقول لي إحداهن:

- ما تعرفينه عن الرجل في الواقع مختلف تماماً عما تنسجينه في خيالك معتقدة، أنك تستطيعين إسقاط أوهامك على رجلٍ بعيد عن ذاتك، فأنت حالمة، وقد تصابين بخدش في مشاعرك، إذا أصررت على التشبث، بفكرة تصور رجل خرافي قادر، أن يروي جماح رغبتك الهائجة في الحب والاستقرار، هذه إحدى ما سمعته من كثير من نصائح وتوجيهات ومحاولات في ردعي، تنبيهي من ضرورة ألا أحاول، فكل محاولة بمجرد كونها محض محاولة لا تجد، إنما تزيد من مؤشرات الإخفاق! حسناً، كل ما يقال عن الرجل صحيح، إنه الأكثر استئثاراً بالمعشوقة ساعة ضمانه لها، صديقتي، روان، أكثر تطاولاً ومغالاة بإحساسها تجاه تطرف حبيبها، صار خطيبها، ثم أعلن فسخ خطبته منها، لا كتشافه أنه مخدوع تجاهها، وتجاه النساء اللواتي خاض معهن تجارب متعددة، تباً! لماذا يتم بخس مشاعرنا، حتى في مراحل حساسة، كالخطبة حيث يكون الزواج وشيكاً، آه من حماقات الرجال، "سلاف" تزوجت أيضاً، فعدت أسألها خلال زيارتها الأخيرة لي، عن سبب تركها لزوجها، فقالت:

- إن مزاجه مزاج هتلري، طباعه كحيوانات الجبل، لا يأبه لها، كل امرأة ولها طبيعتها، وحبها لتحقق الانسجام بينها وبين الرجل الذي تشاركه عش الزوجية، آه من تلك الحياة كلها مقت بمقت، ثمة أشياء تجعلنا ننسحب وراء المرايا، نتردد إزاءها عن اقترابنا من الآخر، فلا نضمن تغير مزاجيته بين حين و آخر، حدثتني مرة وقالت لي:

- آه عزيزتي سهى قلت لك وأؤكد: إن العثور على رجلٍ كاملٍ بات معجزة أو حتى معضلة، فأراك تغوصين بتصوراتك عن رجل يقاربك أو

يشابه كتاباتك وأنت قاصة كما أعرف، لن تدركي حجم المهزلة التي نعيشها، ضغوطات الحياة، حيث الواقع يختلف عما نود أن نعيشه، أو يفترض أن نعيشه، فلا بد من التأقلم، فزوجي يذهب بداية النهار، ولا يعود إلا آخر الليل، وأحياناً لا يأتي، وقد وُجدت مرغمة على هذه الحياة، فلا خيار أمامي سوى أن أحدثه مجسدة استيائي بسبب تأخره المعتاد..

- لا يمكن تحمل ذلك أبداً!
- هذه ليست مشكلتي.
- مشكلة من إذاً؟

حينها يصمت وبعد برهة يطالب بالعشاء، فأنظر إليه بلا جدوى مستاءة، كارهة نفسي معه، كأني أعمل في أحد الفنادق وأخدم الزبائن! لا قيمة لزواج افتراضي شرّعه العرف وكذَّبه السلوك، لقد حكم علي بالكآبة طوال وجودي معه فاخترت الانفصال، كانت حياتي قبله انتظاراً وترقباً، أضعت نفسي منذ إخفاقي في الحب، يستمر الإخفاق في ظل عزلة شللية، أجد حالتي لا تختلف عن الكسيح، فلا تتعبي نفسك بالحلم يا صديقتي!

- مادام داخلك صافياً، فكري في أكمل نمو له، فالآخر المكمل آت لا شك!

- أقصد لا تفرطي في الحلم الذهبي، حيث تتضاءل مساحات الحلم أمام الواقع المعيش لتصبح أقرب إلى الهذيان.

وحين انتهت سلاف من حديثها، أطرقتُ صمتاً، رحت أتابع رشف القهوة قبالتها، بابتسامة حائرة تنم عن شيء أخفيه بتردد، روان تلك الفتاة التي رافقتني ذات رحلة مضت منذ أيام الثانوية، أذكر في قراءتي لملامحها آخر مرة كيف عاشت بشكل مؤلم، توفيت والدتها وهي في مطلع ذهابها للجامعة، الوحيدة التي اقتربت منها كصديقة وأم حنون في آن، خلافاً عن أي فرد في أسرتها بما في ذلك والدها، وإثر وفاة والدتها بسنة تقدم حبيبها لخطبتها لكن والدها لم يوافق لأسباب طبقية، اجتماعية وعائلية وبعد ذلك بسنوات، اضطرت لترك الجامعة والزواج والسفر للخارج، وبذلك تغيرت حياتها بالكامل حيث دفنت في الغربة وطنها والدتها الراحلة وحبيبها

البائس في صدرها، وعادت بعد خمس سنوات من انفصالها عن زوجها لأهلها وهي الآن أسيرة أشجانها وذكرياتها وأحلامها، أدمنت أشجانها، عاشت حيرتها خلف آلام القهر ومواجع الماضي، أفقد مرحي حين أتجرع آهة الغياب من جسد الحزن، أعيش زخم الحب، غير عابئة بما تعانيه ذوات التجارب المريرة ظلٌّ ذاك الشاب لازال يمتد بشغف صوبي، أنا الهامسة في أذن العزلة، للبؤس مكانة راقية في ذوا تنا، لملامحي عطش الأسى في ترقبه لأمطار الأمل، نافذتي تسترسل بومض هادر، تطل على المارة، أضم تفاصيل المكان أجزاءه في ملامح – روان وسلاف – أسترسل شاردة باتجاه العتمة، غائبة في حلقات التساؤل، منهكة من عد همومي وهواجسي، حاجتي لحنان الآخر رغم كل ماقيل وقال، أتناول الوقت ترقباً لحياة قادمة، أكتب بتأمل كل فكرة، كل جملة أو شبه جملة، أعيش مؤمنة بنفسي، للتعب في ذاتي حكايا وللتنفس في زحمة الهواء لدي تحليق في دنيا الإغماء، تستردني لوعتي، إذ أكتب خاطرة عن بقاع مهجورة على هيئة قصة قصيرة، أتنفسها لأبقى أسيرة لحلم ذاك الشاب الذي يسيل قلبه عاطفة وسحراً، أهمس بشجن وأتدلى كغصن زعفران على ساقية، أتلمس الدفء، لا أجده إلا حائراً، عبثاً أنتشي في بقاع الأسى حالمة بكون بهيج وسعادة تستلذ من خلالها الروح لتحلق في عالم يحلو معه السكون والتأمل، ذاتي مشدودة للغد، حيث يراودها الإحساس بالأمل، وفجأة وإذ بوالدتي تباغت سيل مداد القلم وتفتح عليّ باب غرفتي تتسمر قائلة:

- ابنتي أنا سعيدة بما تكتبين

- صحيح أمي؟!

- نعم، ها قد كبر الحرف بين يديك وأصبح فناً.

- أمي قد سمعت طويلاً قصص الخيبة والعجز الذي ينبعث من ذات أحرقها ركام اليأس.

- سهى ابنتي استرقي النظر لزهور الغد حيث يبللها دمع العطر ولا تلتفتي لليأس.

والدتي جعلتني مولعة بالبنفسج وحزنه في ساعات المغيب الأولى،

فبدأت أتأمل الحكاية الموجعة من منظر رحيل الضوء، حيث رغبتي في الضوء مديدة بالشكوى، مفعمة بالتحليق لرحابة هذا الفضاء النحيل، حيث أن نداء النفس أشد اتساعاً من رهبة الأثير، فاللون الضاحك ينبعث من سلاسة خطوات ذاك الشاب الذي بدا يهفو لي فيحدثني:

- يا لسلاسة الماء المنساب من وعاء النبع، البريق الذي يتراءى من وتر مشدود بسحر وجهك يضج بآلام العالم وآماله أيضاً..

- حالمة بك وفي لغتي نبض الخجل وصرخته وفي دقيقة حزني استكانة للندى الوارف فوق ظل الكآبة.

- هل ثمة ما هو أهم من الحياة، تلك التي نريدها وتضمحل أعماقنا تعطشاً لها رغم كل ما يحدث، لامفر من طلب الإنسان الحقيقي الذي بيده مفاتيح السعادة، يحيي فينا شهوة انتظارالغد، في داخلي تتشابك الأكف البائسة لتمنحك بعضاً من غفران الدفء رغم مرارة الواقع

أجيبه:

- كثيرات مثلي يرغبن في دفن الكآبة، ليزرعن في القلوب شتائل ابتهالاتهن في سماء تذرف دموع الفرح..

-ربما!

-بلى..

منبج 2012

ذات جنون

أكتب إليك، أجر توابيت الصمت، حسرة الوادي، كبرياء الجبل، بكل الأحرف التي تتراصف بقوة وذهول على أرصفة الوجع التاريخي، تسطر بصمت آهات التائبين من الحب، العائدين إليه بعد كسرِ عصا التوبة البالية، أشكل من آهاتي إيقاعات متناسقة الأحزان، لتسمو جليَة أمام روعة بكائك، أحلامي متصلة بروحك، تتآلف معها كل وقت، تعزف سيمفونيتها على وقع سجال الأحلام المنتهكة، خصلات شعرك تضم الرياح، تدرك التعايش مع النسيم الطلق، الذي يعيش هو الآخر، أسير كآبته المتنقلة فينا، أسعى أن أكون بلبلاً يستقي تغريده من صوتك، يهيم عشقاً بك، ينثني كآبة نحوك، يزرع روحه في روحك، يُجن على إيقاع تنفسك، يستقي أشجان تغريده من صوتك، الطيور تحدثني عنك، تزفُّ أخبارك لي، ترفرف على أسطح المنازل، الأشجار الباسقة، ويلتف القرميد حول مداخن الأبنية، تسمعني أنغامها الشجية، تحنو عليّ، لأجل أن أهبها روائحها في رسائلي، فأنقياء الحب، أحرار الوجود الحقيقيون، يحملون الحب، رسالة خالدة للبشرية الملونة، وفاتنات الحب يزدن الشعلة توهجاً ووميضاً في ظلام الكراهية البشرية، تهيئ لغمار حبٍ عظيم.. في زمن الضوضاء، حيث يقيم الانهيار في مواطن الصخب، أبحث عن مكان يتسع لحريتنا يا حبيبتي، كم كلماتي تعشقك، كم همومي دافئة منعشة، تسبح في بحر الحب، بشراهة الماء وشراسة الغياب، أرسم وجهك بشوق، في دفتر الانتظار، أهزأ بالملل، داكنة أيام الهجرة، حبنا يوشك أن يوقع المرارة بفخ الأمل، يجعل الياسمين على صدرك مزهراً، لدفء حضنك مذاق الخلود الجميل، لنكهة القبلة الدافئة لون لاتساع المطر في أحداق النوافذ المطلة، على الممرات القصية، إحساسنا بالحب يطيل من أعمارنا، يجعل الأمل خاتماً بإصبعنا!

أعبر مفترقات الدروب ومحطات البراري السوداء، أصعد عمق أحزاني ألمس ارتفاعه، أرتطم بجدرانه مخلفاً ورائي دموعي وهي ترتجف رهبة أمام سحرك، تتناثر أشواقي لآلىء ممزوجة بالماء، أتخطى زفير أنفاسي، أسعى

باتجاه ذهابك وإيابك، أضمك رغماً عن الموت و المجهول، أرسم صورتك الجميلة على صفحة الغيوم، فينسكب مداد الحب مطراً على أشجار الزيتون والكروم، ياوردتي الحمراء، رويتني الندى سقيتني ألحان الينابيع، حين تتراقص انسياباً في مخيلتي، نثرت بوجودك أشلاء جراحي كثلج يغطي قمة شماء، همساتك تصحبني للحقول والبراري، تدفقي من ذاتي أسئلة وهواجس، أنت العطر الذي يدين التلوث في زمني الآسِن، يحاكم قبح الأشياء، الأقحوان يحيطنا ساعة اللقاء، القرنفل الجبلي يهيج أحلامنا، كم يتكاثر بسرعة على شفتيك حين ألتقط أصابعك الناعمة، أستعيد فيها الدفء الذي يحتاجه كل من يقيم وسط الثلوج، هذي الغيوم تترصد كآباتنا، تقرع أجراس السوار في معصميك بالرغم من اشتعال الذهب بفرح فيك، فأنا أشم زندك، أطبع قبلة على كفيك، أتبعثر في أجزاء جسدك، ألثم خجل البحر في توجسه بك، ألعق عسل الكآبة لوحدي، حين أنفرد به في جهة منزوية شاحبة من هذا العالم الاسفلتي، في وجود أصم ألغى الموسيقا واكتفى بالدمار، أقصى فيه البلابل، لوّح باستقبال الطائرات، أشدك نحو صدري، أرفعك إلى السماء، أفر إلى أعماقك المبتلة عزف صدى وموسيقا لا تتوقف، أجلس منتظراً مجيئك، أتململ قرب طاولة الترقب، أسترق السمع لصوت الينابيع، مصغياً للبلابل التي هجرت آفاق عينيك، أرحل كطيفٍ عبر الظلال، مشرّداً في تضاريس الألم، تتناثر الكآبة فوق خدودي نشيد مطرٍ وقوس قزح، تنهمر حبال السحب على معطفي الأزرق، وتنمو كل الزهور الحمراء من أجلنا، لتتساقط أدمع الندى فهذا الحزن طويل وهذا الشحوب يسير بذاكرتنا وبطرقاتها المكتظة بالفناء، ترعانا الولادة وتعتني بنا المرايا النقية التي تتهاطل علينا من شفاه السماء، أغنيتي الشجية أنت، وميلاد لآمال الشعوب في الحرية ومحو الظلم، منديلي الملوّن الذي أمسح به جبيني ودمعي، هذه الأنغام والعطور والبرك الجذابة تغمرني بدلالها، الأغطية الدافئة تدعونا لنلتحف من خلالها، الشراشف البيضاء تغمرنا بانسياب حين تغمرنا بعناقٍ شجي، عطرك يصل إلى نبضاتي البطيئة، خصلات شعرك قيثارة أرنمها طوال الليل، أخبريني عن الهواء العذب،

أبوسعك أن تحميه بأناملك فهو ملوث في الفضاء، في فضاء لا يحمل صدى عطرك، أطلقي عنفوان الكبرياء من نهديك إلى قمم الجبال، رصاصة سحر تعتقل البرد للأبد.. رسائلي تتناثر غرقاً في بحار تموجاتك، تستقر نشيداً تائهاً مثل الياسمين الأبيض على سريرك وقميص نومك الأبيض، دقيقة واحدة من عناقنا بوسعها أن تحدث شرارة متوهجة في بحر أحزاننا، فليتسرب شعاعك كالشمس إلى عينيّ، لتتحولي إلى قمرٍ يزفُّ البشرى إلى ناظري، لتنهمري كالمطر إلى قلبي الغارق في الظلام، إن عالم الحب ينساب ملء رحابة الحزن وروعة الجمال، ففي جنباته حدائقُ غناء، ترتفع النوافير الفائضة في كل ركن من أركانه، تلقي أضواءها بقربنا تجعلني أقف بكامل سروري أمامك، حتى أن كل وردة باتت تحلم أن ألتقطها لأقدمها لك، في كل مدائن العشق تنساب أخيلة الروح عائمة في طوفان الشوق، تأخذ ألقها من وحي ارتطام الموسيقا الهادئة بشحوب الليالي الثملة، تأخذ إيقاعاتها من الأغنيات، ترافق ترنيمة قلبك، ترنو للحظات قادرة على إبعاث الدفء والأمان فينا مجدداً، في إيقاعٍ شجي يسبح تيهاً في آفاق العيون، تأخذني في مساءات الحيرة، تباعدني إشارات الضوء المزدانة في المدائن ترتفع أصوات المارة، لكن وجهك يطلُّ بهدوء ريفي متواصل يزف إلي عطور الجبل ونبضه في مخيلتي، لم تغيرها ضوضاء المدن وازدحاماتها وهياكل السجائر المتعبة في منفضات الرماد، بحبنا العميق غيّرنا مواقيت الفصول فأصبح الشتاء كوخاً مغطى بالثلج يجمعنا قرب موقدة الحطب، و الربيع حديقة خضراء تجمعنا معاً بدقيقة عناق وشوق أبدي، حيث غدا الصيف فسحة مليئة بالسهر الخفي الذي يلتقطنا من أعماقنا نجمتين تنتشل بحراً غارقاً بعبابه، حائراً باتساعه، نعبر أزقة الهواء كملاكين، فيأتي الخريف ليعبر أمامنا، يتأملنا، يرتدي طقوس حبنا، يثمل، يكون شاهداً على ميثاق الحب الذي صعقنا به الوجود، فنكون عبر مدارات الفصول فصل غرام خالد.. في بحار المآسي أرفع جبهتي النازفة بصمت نحوك أتأمل ما خلفته الدموع على خدك من لوحات الألم أتأملك طويلاً، فأشد أصابع يدك، أضم رفات قلبي من خلال وقوفي الأخير أمامك، أتأمل الطبيعة، اختلطت روائحك بالزهور، أصبح لعبير الزيزفون المبلل

بالمطر نكهة أنفاسك المتعبة، حتى أن الشلال أراه اتخذ من عينيك مصباً له، وأمام البحر أراك ملتحفة أمواجه كفراش، أصبح البحر الأزرق سريرك، غدت الأقاحي والوديان شيئاً منك ومني، ترمقني عيناك خارج كل المتاهات، تلاحقني أضواء ابتسامتك في كل الأمكنة النيرة والمعتمة البعيدة والقريبة، تخرجني من قاع الأسى والأنين لحلقة أخرى من حلقات الحرية والتأمل، أستجمع كل تنهدات النجوم من أجلك، أحلق في تفاصيل الخطوط الزرقاء التي يرسمها فستانك في الأفق الداكن، بينما أتامل مفترقات السماء، أشعر برغبة في الغناء، كم أعشق تساقط المطر الآن، جرحي غزير مثل تساقطه الشهي، أدق أجراس السفر والترقب أحزم ما أستطيع من خواطر وأحاسيس ودموع، أسير لوحدي متذكراً كل مواقف التعب، كلما يتساقط المطر ألمٌ آهات الأفق وزنابقي المريضة، أنثرها حول ابتسامتك ساعة المشوار الهادئ، أتأمل عمق الزمن ضفائرك الكستنائية، أقلام شفاهك محفظتك، مرآتك الصغيرة تتموضع في زاوية ما من هذه النافذة التي تمد ضوءها من بعيد لـ نافذتي، حاجتنا للأمان والهدوء لا حد لها، اقتحمي عليّ أبواب الخيال، أوصدي عني منافذ العتمة الحمقاء، جرديني من أحزاني المعتادة، اقتحمي علي الذكرى وأبوابها الملعونة، تلك التي نسجتها لي الأيام، لا أريدها أن تبقى حائلاً بيني وبينك، اقتحمي علي مطارات السفر، دنسي الحقائب، ارميها بعيداً، خبئيني بعيداً عن مرافئ السفن وأماكن الحرب، بودي امتلاك البحر بلمسة حب، بمصافحة يد، بقبلة من ثغر، خذي من حنجرتي المتعبة كل ما بقي لي من صوت، وخذي من قلبي النبض، ستظلين مرآة المطر التي تعكس لي الشمس الغاربة على الأفق الشاحب، لي بين السماء بضع غيمات وكلمات ولي على الدروب قوافل أحزان لا تعدّ. اختفت مواعيد لقائنا المقررة تحت وريقات الخريف الصفراء، حبنا مثار تصميم الطيور المهاجرة في كسر قيودها، والعودة من منفاها إلى أعشاشها، حبنا تمثيل لإرادة البلابل في صنع حريتها داخل أقفاصها، لست التي تغربين كالشمس وتغادرين من ضفة الليل كالقمر، ولست الخالية من العطر كشقائق النعمان بل في ذراعيك ما يكفي ليكون الربيع خالداً حاضناً للبرد والدفء معاً، أيتها

العصافير فكري هذه المرة بالرجوع إليّ سأروي من خلال رسائلي وحروفي لك قضية التشرد في مدائن الصخب التي تجتاحنا اكتئاباً، أعيد ترميم صرح الحب الذي ما يلبث أن يتداعى زمناً بعد زمن، أشكو لهذه الكلمات اغترابي وأكتفي بتمزيق دموعي والاغتسال بملوحتها وأضع ذاتي أمامك كي تنتشي ألماً فبعد كل الحب لا خيار سوى الألم، قلبي يخفي نبضه بين هذه الأمكنة، أنادي النجوم والطيور المنفية بين السحب، وأسير بلا هدى لتلك الفراشات البيضاء، أحدث الحقول، أنحني لفروع الياسمين، كيف جعلت من الدموع للحظة ما فصلاً ماطراً؟ وجعلتها بين قصائدي بركة ماء، تحرسني ملامحك، كيف لي أن أحلم بدونك، كيف سأعيد رسمك في ذاكرتي، دون أن تكوني قربي، دون أن ترافقني خطواتك أثناء مسيري، إن لي قلبك المشدوه دوماً، لا ترحلي كأحرفي التي غادرت شواطئ التذكار، فلستِ الوحيدة مَن تتذكر حزن الليل ومسير آخر النهار، أصبحتُ أخاف الدمَوع وهي تجري على خدك، أبحث عنك بين تساقط المطر في سجلات الخريف وجداوله السوداء، أقتفي رائحتك بينما أمضي على الدروب الموحلة، حين أضم الزنابق المبللة بالندى والمطر، كيف تمد أشعتها الليلكية لتجعل من الفرات نهراً أعجوبة، أصبحت أكثر تيقناً من أن عينيك هو الموطن الذي أجد للحب فيه ملاذه الأوحد، وطن لا ترصدنا فيه أعين الجواسيس والمخبرين، أشتاق رؤيتك، فنجان قهوتي يعرف مدى شوقي لعناقك فانفعلَ، رسم قلقي على بنطالي الأسود منسكباً، من أجلنا نثر الشتاء المطر على حقول لم تودعها لقاءاتنا، لم تزدها همساتنا إلا اخضراراً وازدهاراً وحياة، معاً مع المطر في ساعة السهر ؛ كمجانين الليل نبتاع قبلاً، أشاركك الصمت والتأمل عهدتك فصل حبٍ مبلَّلٍ بالندى وغابة ورد وعنب، أخط في شفتيك قوس قزح بقبلة حزينة تترجم معاناة العاشقين في البقاع الآسنة، يثيرني صمتك الطويل العابق المخفي في ظلام الليل، رعشاتك تتسلل من بين الأبواب المغلقة إلي، مَن سواك بوسعها أن تفجّر براكين الروح، مشتاق حتى الموت أن أسمع صوتك يهز العالم القاتم المجهول، لم أخف أبداً من محاولاتي في رسم وجهك على حيطان البيت، اقرأي حزني في زوايا غرفتك، استسلمي لصراخ الحب لحظة العناق

بجسدنا الناري، ادفنيني نغمة صماء في خفقاتك، تمنى قلبي ذات موت أن يكون فراشة على ضفائرك دبوساً أزرق في فستانك المزركش السماوي، شريط حرير يلتف بخصرك ببالي أنت أنشودة طويلة تموج في بحيرة، كسمكة صغيرة، والنهر الغجري يجري بنعومة بين نهديك وصدري، كنسمة تتخفى بين السنابل، بين الأشجار والسلاسل الذهبية التي يحاصرنا بها الضياء، تثور غيمات صدرك في قارورة العطر التي أهديتني إياها في عيد الحب، كموسيقا كردية تجري ما بين دجلة والفرات، كقوس قزح بين (عفرين وكوباني)، كشعلة نار عاشقة تلتهب بين (قامشلو) وآمد، كنجمة حمراء في سماء ضبابية، ميلاد لأبجدية الحرية، في عوالم القهر والعبودية، أنت آخر الكلمات آخر النبضات، آخر ابتسامة أودع بها الحياة العبثية.. معشوقتي.. قلبي يحضن شفتيك الرقيقة وهي تشرب فنجان القهوة السادة التي انتشت حلاوة وعسلاً، بينما عطرك يسبح في الوجوه البهية، الصخور تنتفض ثورة على البرودة والوعورة بين الجبال الفضية البعيدة، والغيوم التي تحتمي بين النجوم المهمومة تبتهج جداً في 15/1، استسلمي لقلبي، لقلقي عليك، لخوفي عليك، استسلمي لحنين يدي، وهي تمسح شعرك، لحنان ذراعي، وهي تلفك رغماً عنِ أنف البرد، أطوق الهواء الذي تتنفسينه إنه أوكسجيني الوحيد فهل أنا حيِ دونك! مدينتي مملَّة متعبة وثملة تجرّ همس نزيفي لحضيض العذاب، وحدي أحمل تاج البؤس، رغيف حرماني، أخشع قرب موكب الحب ونعش الكآبة المنتظر، أخشع مضطرباً، أمشي في مفترقات الوداع كشبح المقابر، أطلُّ كملاك راقدِ وسط زكامٍ ثقيل، أطارد العدم وأطارد ما يشبه المستحيل في فضاء سحيق الوهم، حيث الضياء يفتش عن حنجرتي الضائعة بينِ فلك الظلام، أنت حنونة كالدمع حين تحرضين مشاعري بهدوء من عينيِ، أنا والحزن توءمين عاشقين نسير بأعبائنا من ممرات الفرح لنبتسم من جديد، كتابان نحن على خشبة المسرح، نثير أزمنة، تتسلل الغيوم من نوافذنا لتخرج إلى السماء وتُزيِّنه وتحكي العصافير النائمة حكايتنا قبل أن تنام، مواعيدنا ممكنة حدوثها مثل أيٍ لحظة متوقعة لتساقط مطر في أواخر نيسان، أين يختفي صوتك تحت إناء

النجوم أم فيه أم يتدلى في عناقيد الكروم، بددي سواد الليل بأبيض صدرك، أكتب عنك كلاماً يخرج من كل اتِّهاماته، كلاماً يرفض جلوس الصمت على ركبتيه، أكتب عن فوانيس مكسورة عن أواني الخزف الضوئية التي تتساقط من شفاه القمر، فلتنبهر أنوثة الحقول وعذرية الحدائق لأننا وردتان فوق تلة مشتى النور، الضوء يسرق حكايات الحب بين عينيك العاشقتين مازلت أحلم أن أظل معانقاً انتفاخات نهديك وامتلاءهما وانسيابات أردافك حرارة شفتيك لحظة قبلة مرتجلة، تحكي عن أحزان الشبق، أطل عليك من يمين النهر الذي ينبع من بين نهديك ليتجمع في رحمك بعد جريان بطيء، ليتساقط أخيراً كشلال بسيط بين فخذيك فأدخل من وراء النهر المبارك لمعبد يجاور الشلال البسيط، فأشعر بإغماء يشعرني بالسجود واللذة، أغفو بين رمشيك كفراشة البشرى أرتفع نحو ضفائر شعرك الكستنائي العابر في مدن الظلام، أحاول أن أسير على درب الحب دون أن أترك يدك للريح تجعلها تبرد وترتجف، نرتعش معاً، نذوب عشقاً، نلتقط رسائل المطر التي تتسلل من معاطفنا وأنفاسنا، ستعيش الكلمات بك حبيبتي تمهيداً لعالم خالٍ من الوجع الإنساني وعنف الظواهر، لعالم ملوّن بألوان العاطفة وسماحة الحب وروعة البكاء مهما جعلت من دموعك، نسيجاً يزخرف الحياة إلا أنك لن تغيّري من عادات الشتاء وبرودة مزاجه، فوحدنا من نحلم وحين نستيقظ نبتدع الحلم الأكبر ليكون المنافس الأوحد، للزوال والألم، لماذا في مدينتنا تتجمد الأحلام؟، تُدمّرنُا أساطير الأجداد تجعل منّا أناساً محنَّطين نسترجع حبو العظماء القساة على مصاطب الظلم والمعاناة، أتكلَّم مع الحجارة أنادي النجوم المنتفضة لتشاركني تظاهرة الحب، آه من هذا الغد إنه يجتر الكآبة والويلات أهواك فيه ياسائحة تجول في قلاع البؤس تتأمل نقوشه، وآثاره الجرباء أهواك كسائحة تمنح انطباعاتها للكنار والعصفور، تسجد للسحر تهيم عشقاً بالزهور، ألتقي صوتك يهزّ عروش الصمت ويخفي في صوتي عنفوان الضياء، أحب هذه الزنزانة كم لي فيها أدمعٌ مكدسةٌ وصرخات أقلام لا تموت وصفحات من كلمات ثائرة، حرّكتُ في صدرك كائناً يسمّى الحرية، زنبقةٌ توشك أن تذبل، امتشقتُها وتراً غارقاً

بالحزن، حزني أنا، عرفتني مقيماً في روابي التحدي أرفع راية الحب الحمراء من دمي، أقبلُ شفتيك حتى الرمق الذي تعلن فيه البشرية موتها الأخير، وبينما تحترقين تولد من ناري سلالة احتراق أشدُّ أواراً، كلانا نتدفق ينابيع حمم من بعضنا من تيه دموعنا وقبلاتنا التي تُصنِّعُها شفتانا فتأبيان الابتعاد عن بعضهما كأن قدرهما أن يذودا عن بعضهما للأبد حضنتك بشدة وتمنيت توقف نبضي عن الخفق لأني أدركت ذروة اللذة الكمالية في الحياة من خلال لحظة اتحاد لا مثيل لها، في حياة الإنسانية، إنك الصفاء الذي يجعل من كتاباتي بساتيناً وغابات معاً ننتزع حريتنا ونفتح في ظلام زنزانتنا المنفردة كوة صغيرة يتسرب منها الأمل، بوجهك أبصر فتنة الزمن، من بين المسافات الثلجية واتجاهات الرياح، أناديك يافتاة البراري من بين الغابات الشاسعة، أناديك بعمق، أشتعل بنيران الموقدة التي أجلس بجوارها أصبح خشباً، أبحث عن عالمٍ يُوصلني إلى جسد الأرض لأوراق شجرة أو نبعة ماء صغيرة أو لأكون عصفوراً يبوح للقساة الأغاني ليمكِّنهم من أن يسترجعوا طفولتهم في كهف عالم آخر، أسترجع دائماً طفولتي في عينيك ومذاق السُكَّر في شفتيك، أسترجع براءة الحلم في قطرات الماء التي تتسرب من وجهك وشعرك، أجبر دموعي على الإقامة الجبرية في عينيك أحترق فيهما للأبد، أطلق سراح الحب من زنزانته الخالدة.. ينبض القلب، ويبكي حتى تجِفَ آبار الأعين من مياه الحزن، تنساب روائح الأمسيات الباردة بخصلات شعرك الكستنائي وأبقى أناديك، أحتار في الجهة التي أمضي بها إليك كعادة كل من يعشق ويلوذ به الحنين إلى التشرد عبر الأرصفة وميادين اللقاء المهجورة، أسير هذه اللحظات، أسير هذه المساءات الحزينة، أسير هذا الصوت الجميل الذي يأبى الخروج من صدري، تحتلم طفولة الحب بين أوراقي وتنسدل ستائر الحب لتدوي لحناً من ألحان كلماتي النيرة هذا الزمن، يجعلني غارقاً فيك عاشقاً لأحلامك ولشتاءات الثلج قرب شباكك لتظل أنشودتي خالدة مدى رحابة الفضاء، لتنغرس الحروف في خرائط الإنسانية التي تبحث عن النجاة من طوفان المجهول المرتقب، مشعلة انتفاضتي في قلب الورق اليابس المتساقط من أعلى الشجيرات،

مقدمة نبذة للعصافير عن تغريدي ذات صباح خريفيَ، تشتعل نيران جسدك في حضني، أشعر أنك ملتصقة بي، مرتميةٌ بصدري، يشتعل اللهيب في ملامح القلم وهو يتمرن من جديد على الجري وراءك ينتظر تساقط الياسمين من نهديك، كتساقط الحروف والأوراق من زنازين التعلُّق بالأغصان، في همومك أورقت غصّاتي، فخلقتُ لوجودك معنى أن تظلَّ حالماً بالمياه الزرقاء في وحل الطرق السوداء، أبحث عن ذاتي فيك في عينيك أبحث فيهما عن وطن كل الخرائط وهمية والجغرافيا أكثر رعباً وسراباً عيناك كوكبي الذي لا يزول من بين الكواكب ولا تصطدم به المجرات ولا الشهب، إننا فصول مآسٍ تتكرر في الحياة باعتياد.

2007

فيك وجه الحياة، طفولتها، نقاوتها، لوعتها في جبين القلوب، نشوة اللهث وراء الحلم، فضاء من الفرح اللذيذ أنت!، همسات المطر على ظهر قوس قزح، أنصبك شجرة بلوط على ارتفاع شاهق في مخيلتي أستحضرك في نفسي كلما شعرت برغبة في الاتحاد بك، موغل فيك، منساب كخطوط قلم الشفاه على شفتيك، انك المغشية عليها من حمى اللهث خلف الاحتضار، ودِّعيني بطيئاً، أورقي من أشجار مشاعرك قصائد لا تندثر، فيك روح السكارى ان طاش فيهم صوان الطعن حتى الجنون، فارفقي بشتائل الجوري التي أودعتها على صدرك، في محراب الألم نقتنص من رهبة الفقد حباً، لا يكاد يفرقنا، اذ كلما توغلنا داخله فاحت روائح الجلنار في روابيه الفتية، لطالما أردنا مباغتته برحيل أسود، بيد أنه متيقظ أبداً، جاهز لتلقي ضرباتنا الخاسرة، إلى معبده اليوم نتجه، نتوسل فيه أن يعطينا قوة الحكمة في الحب، لا بؤس الضعف وجزالة ملامحه العاقرة، لا نتوسم منه سوى أن يهبنا للأرض غرساً أخضراً يانعاً، حيث الوجع في طريقه للتهالك على وقع خطا لا أعلم فيم تتعجل الرحيل، وها نحن نرحل كل يوم، لايرثينا أحد، اذ الموت أقرب المنتظرين، أكثرهم توقاً لرؤية أجسادنا تتآكل بين يديه، فيما نستعجل رحيلاً لاريب قادم، ليوسعنا عفونة في قاع لا نعلم مكانه، اذ ما من خريطة في الغيب ترشدنا إليه، بئساً لذلك الانتفاخ، ذلك التهاتر. فيما يغزل خيوطه الواهية أمام حقيقتنا، نحن الراحلون إلى الوهم، ذرات من أكياس الطحين نحن، رواسب من شقوق السقف، آثار أرجل الديدان وهي تزحف من حلوق صدعتها مخالب الكوليرا، إننا لا نجني من هذا الدهر. سوى الغبن.. فإلى العدم، حيث ستصحبنا الشهقات من ثم سترمينا لأخاديد السبات الأبدي، فلتنعم حينها يا حب بالخلود، ذاك القلب الذي أدركته سكاكين الخواء، فتمنى لو يصيب بعضاً من ثمل العاشقين حتى الموت، وهو في زنازن الحنين لاجتياح العشق المتين، يستغرق تأملاً لمحطات من الوله، ارجميني عشقاً لأوقن داخلي، إني مسكون فيك. ومترع بمياه مشاعرك

فأطلقيها عل بسمتي تعود.. حيث لم أعد أبصرني، تسكرني غمرة الفاجعة فيك، تجعل أصابعي ترتج ككؤوس السهر القصير، كأن ارتداد صوتك من جعل الصدى يئن منحسراً، كأنه البحر ضاج من مبسمنا فارتفع ليبتلع السفين، انني كطائر اللقلق، أتأمل زاوية الغروب علني أحظى بشفقة الو داع علي، وحدي المعتق حزناً، أنسل من الفرح رويدا رويدا لأبلغ كنه حزنك، انني كالمستغيث من الشوق أنادي ميعادنا القريب البعيد، أنزف من تلقاء استجدائي بطيفك. أتثنى كالبرعم الندي لاستقبال شعاعك، ما أنا إلا من ابتسامتك ان شعت أشع وإن غابت أغيب. لك كل مالم أكتبه بعد، لك عنفوان النسر في وصوله للأعالي، لك قلبي وقت يحاول اعتلاء قمم قلبك الشماء، يا عروسة الكبرياء، على جسدك يقام أكبر محفل لجميع الآلهة ومن بينهم الله يقف مذهولاً أمام جنونك، في قلبك تُنصب أعواد المشانق لطغاة اعتادوا ذبح العاشقين، إننا أولى سلالات التمرد، ودعاة عصر النور في زمن الظلام، انت المنثنية على جسدي كلبوة ثملة، بددي جفاف المسافة بكثير من نبيذ الكلمات، قربي أنفاسك مني. أتناثر كشامات تدور حول صرتك، تجعلني مغمى شهوة وحنين إنك الأغنية التي تتسابق مع الأمطار، لتؤلف سربا من الانشداه بالحياة، تفتح في بسمتها حيوات العشق الذي يستعد للانبعاث وسط حياة أوشك فيها إفلاس الضمير أن يأذن برحيلها، أشتم في رائحتك كل العطور التي انقرضت منذ رحيل الأسلاف العاشقين على أنسجة أدمعنا وأرواحنا التي لاكتها أسنان عصر البرمجيات، معاً نوقد شعلة الغد معبودتي، ولا يبقى التساؤل إلا خادشاً لعورات الصمت المتبقية في أوعية الدفء، رغم ضحالة البرودة، وانشطار المخيلة من تيه المسافة ما بين الهاجس والبوح، فيك الوطن حلم كل من ماتوا، ومن عاشوا، ومن سيولدون، أراك بكل أشكال الوله أنثاي، معك تورق الخصوبة في كل شيء جاف، هذا العالم القاسي ما أفظعه، يدق حناجر أغنياتنا، يرفع صلباننا، لكن حبنا يعيد إلى الخراب لوعات البناء، العالم.. يذرف حطامه فوق جبين الأبرياء، ونحن نغمر بعضينا برذاذ القبلات الحالمة، نرتجل الغيث والصحو وبارقة قوس قزح، نعلن عن عالم جديد عن كون أخضر، نرسم أبعاداً لا

متناهية من حبنا نهزّ بساتين الآهات، لنخرج لوحة باسقة مكتظة بالحياة الجديدة، أهواك أيتها العاصفة التي تقتلع بي موتي

حيث أهزأ بالقيامة حينما تنتفض نهداك تحت شفتي، تعلو رايات الفرح مقابل سواد رايات الأحزان، أبصرك رغم الدخان، فصل أمان وحنان، ردني إليك أيتها الفضاء، قلبي على عرشك استوى، روحي باتت على مفرق تنهداتك، تنعي موت الموت قاب قوسين أو أدنى، هي الأحزان تأتينا من كل فج عميق، فإذا زلزلت الأحلام أرض الهواجس، وأخرجت من رحم اليأس أثقالها، يخرج منها حينها غل القيد وحقد المسافات، فكوري نهديك. دعيني أخون الله في عينيك، أنسف هذا الصراط، أنال زئير الشيطان احتجاجا على إله لا يرى، يقتل من يشاء ويعذب من يشاء، دعيني أنهره حينما أستميل شفتيك في قبلة، دعيني أجعله نسياً منسياً وأنا أرتجف تحتك، أو أغيب في أجداث روحك، أيتها الإلهة، لامعنى للقيامة دون عشقك اذ يعوم مع المحيطات القصية، يبتكر أفراحاً لدوار البحر، لست أمتهن أحاييل البلاغة ومتكلفا لها. فقبلتي على شفتيك هي المختزل الوافي لهيئة تعانق الأرض والسماء، أحتاج عينيك أتوارى من خلالهما عن الأحزان، أحتاج صمتاً يخفي بين شفتيه أحلى الكلام، عشقاً ينقلني معك من زمان لزمان، لا عبوراً، أو فتوراً، لا قحطاً، لا هوان أتنفس في صدرك الملآن، جنان الحب، أشدو حنيناً، أغني لألف وردة جوري بيضاء تستوطن حائط بيت جدتي، أزرع على شفا ذاكرتي، أشواق الدفلى والرمان، بلادي أنت، حيث الهواء والتراب، والاقحوان، قلبك هو الطريق والخلاص والدليل، عطرٌ يستوطن أمنيات شقائق النعمان، أحتاجك نهراً جوار هديل الأغصان، مسرحاً يهتز بصدى حنجرتي التي تناديك، كأن صوت قلبي صدى صدفة بحرية، ينادي اسمك وأنت غافية لا تنسي، إني لا أغفو إلا قرب خدك. اذ يستحيل الأمان غمام، أنت وجع ما خلف السطور، بوح يتشظى في حزن الكمان، معك أبني بيوتا تسبح في الحلم، بواخر يحاصرها عباب الحنين من كل مكان على وقع خطواتك، تتموسق الأحزان والأفراح، تنسج موسيقا لامست شدو الحياة، معك يبتدئ المعنى ليخرج حليبا من ضرع الكلام، معك الكون الهرم يمسي خضاراً

متموجاُ معشوشباً بأحلام البحار، ما تلك الخطايا الشمطاء، سوى محض خراب يستوطن العقول الهشة، فتسلحي بفلسفة العشق خاصتنا. تجنبي محاذاة ظلال الموت الذي يتوشح جهل اللاهوت بشرقنا، هبي نفسك للضوء، اغتسلي بأمطار -كوباني- لا تخشي فحيح الخوف المفضي لبئر العهر، اننا نخلق زمناً يعوم فيه المحيط على ظهر جبال، بعلو أعماقنا فلا تبتئسي، قدرنا أن نسترد ابتسامات الآلهة، ننقذها من موتها المتكرر، معك تئن الأبجديات كسحابة تحفل بيواقيت المطر الأزرق، معك أيتها العابقة بألوان الغواية أسترد جأش اشتهائي، أنتصب ألفاً أسترخي كياء، ألثم في نهديك غيمات السماء، أمتطي قممك الشماء، أروّض الموت بين ركبتيك ليتلاشى، أنت القيامة المتأبطة مرافئ الخلود، أتشبث بحبال الضوء المنبجس من فوهة حلمتيك، وأستعيد طفولة العاشقين الأوائل، أنبش في جحيم القبلات دموع -كلكامش -، أصافح في عينيك أنوثة الماء، أزجر اليباس واليباب في أحزانهما، أنهر الفناء، رائعة أنت كنهر حب جار، بصمت الحكماء، وطن أنت للدفء والندى والزهر العابق في مساءات القبلات، لك حنيني، لنهديك نشوتي التي لا تموت، كحق لا يموت، انك اللوعة المشتهاة، في ذروة الهذيان، الجسر الفاصل ما بين الحقيقة والسراب. الوصال والعذاب.. اسكبي لي شهد شفتيك في قدح نهديك. دعيني أثمل وبجنون.. افردي لي سـ اقيك كنهري دجلة والفرات، آمنت بالنشوة رباً وحياة. وبالرعشة حكايات ميلاد واحتضار، آمنت فيك آلهة، لكل من يأتون حاملين حتوفهم نحو الوطن. وإلى الجمال يصعدون أفواجاً أفواجاً، خفافاً وثقالاً، لك تلك القبل التي تنتفخ بالقرب من انتفاخة النهدين، ساعة القذف المتأخر، لك الذروة التي تأبى الانكشاف، لك اللحظة المختزلة الحياة التي لم تولد بعد، نرتقي في الوجع، نغمر شتاتنا من فيضان القوة، ننسلخ عن المألوف، كي لا تفر منا دقائق الحياة سدى، دون صرخة تشي للسماء عن رغبتنا في الانبلاج والتناثر في أديم الغيمات البيض، بعيداً عن مفارق الوجع. أناجيك، أتخذ منك عاصمة للانسلاخ عن كل قيد سفاح. أتماهى بمسامات جلدك. أضمر النور في داخلي، لا أخفي بسمتي أمامك إن طل علي وجهك مثل لوحة الطبيعة

الخريفية، لا تتكتمي عن نداء الحب، إن فيه الربوبية والألوهية والسمو للآفاق البعيدة. لن نفنى. لأننا نصغر في الحب، لربما من فرط الحب. سنحبو مثل دودتي قز على ورقة دفلى خضراء قاتمة، حتى نغدو بحجم قطرة الندى في صباحات آذار، هنا على هضبات عشقك السامي أناجي، لشفتيك اهتزاز الخمر بين الخوابي. وبوح الشبق، لعينيك دفء الحنين للمطر. وعشق حتى الرمق، لنهديك شدو البجعات حين يلطمن البحيرة. ويثرن غيرة الزنبق، لخصرك بوح النبيذ المعتق، إنك اللازورد العائم في سكر والمكتظ بشدو الشفق، فيك أعوم. أستنشق في ويلات البياض وبعثرة المناديل عمراً، أقضيه على حافة الغرق، إنك الأنشودة التي لا ينهكها صخب الموت المتجسد في عصر معلَّب، على مرأى من زوابع الحب أستنجد بك، إنك الحمى الجزلة، رقصة الثعبان في الوريد الجاف، دمعة القرنفل في أول الربيع، نشيد الاخضرار العذب، أعيديني للولادة حيث بدأت، واستبدلي الصرخة بالرعشة التي تدندن الحياة، هكذا نصل لذروة الافتتان بما نحمله من طهر، حين نتشبث براية الحب خفاقة في سماء النقاء، نوقن الوجود، نكمل رحلة الصفاء. ندمن العناق والقبل. نهب للشوق روح السخاء، أستمد من عينيك ملاذاً لموت شهي كالولادة، في أنيني صرخة البوح حتى المخاض الأخير، أستمد من جسدك، رحيق الغابات التي تشتعلُ، بتدفق النار في روحي، وفي ذروة الجنون، أستحم بطهارة عشقك حتى يموت الفناء، لك ابتهالات قبلاتي التي تلتف حولها النيران، كل مساء.. أنت من أخفُّ إليها ساعة ازدياد الوله الكثيف، تتعرج الخطا، يستفيق العشق أضعافا مضاعفة عندما يحين بزوغك، تتسرب روحي في خافق السطور، أناشيد عشقٍ لا يستكين لذبذبات الفواجع، أباغت الزمن في انتفاضاتي، أعدو إليك، كوابل نيرانٍ تكتوي عشقاً حتى الرمق، أنسى فداحة التلوي في رماد العدم أهيم لتقبيل جسدك في المكان والزمان، حيث يستقيم الكون في الحب، ينحني النسيم الشهي في قبلاتنا المعشوشبة بالندى، أشتاقك ولا أنحني للموت في سيماء العزلة التي لا تعرف من الحياة، سوى الموت وأخواته، أنت أناي التي تسبح في بحر من الحب الهائج، ترسم في قاعاته ومدرجاته،

صور العذابات والشوق. الضياء الذي يرعد بوجه الحلكة المعجونة، بغصات سجناء الحرية. أفر إليك من زمن، يداهم كل أغنية عزباء لا تنحني لأعاصير الاحتضار، أقتلع عبرك أشواك سنواتي الخاوية. أسطو على ذهب الغروب الفاقد للوعي، قبل أن يغيب في بطن التلال الصفراء. إنك اللبن الصافي الذي يحمل جثث العطش السحيق إلى الهاوية.. إني أسير صرختي والضوء، الضوء الذي أرسله إليك، عل الحياة ترتقي لمستوى ما نبثه من جمال ومغزى فيها، لعل الحب ينتصر لخلجاته وغصاتنا الكثيرة، إننا غارقان مع اتساع المدى، ندنو لبعضنا، نمسي جدائل محبوكة من قوس قزح، نطير ملء فرحنا، يقترب لقاؤنا من خلوده، نحن نترنم، نبتهل، نقتل الفناء، نحول بينه وبين قلوبنا، نهبه أحزاننا، نتعرى من قوانينه التي وشمت روحنا الجريحة، نتعانق نتأصل في التوءمية، ننبذ خرافة البكاء قرب الغروب، نُلبس الخريف بعضاً من قلائد الربيع، وفي لحظات القبل نسترد صوتنا المبحوح، من تحت رماد الصمت الضبابي الكثيف، دروبي تعلن الفرار من خطواتي، تنتحب على الجنبات القصية مهملةً، دروبي تعبر بي، تسرق الشدو المسافر في حياتي، ترتجف وهي تحيي خطواتك من بعيد، حيث تجلس ملامحي بمفردها، تغني مجيئك، تهتف لبزوغك، تهيئ نفسها غير آبهة، لتجهَّم الخريف النزق، تستغيث أيامي من لوعاتي وتقف مترنحة محتضَرة، جراء أحداق شوقي المتورمة حزناً، تعاند الحطام، تسترق النظر للفرح المهمل، في قارعات الطرق الشاحبة، معك وبدونك يغدو الفناء ضيف الساعات الأولى من الصباح، كما لا تغدو الولادة دونك سوى معراجاً يدخل من الموت إلى الموت، بصبر الجياد المعلقات في الإسطبل، تأهباً لسفر مجنون الكنه، أهيم على محطات أنفاسك، أستعد لعدو طويل الأمد، على صهوات الشبق. أزف لك قوافل الالتياع التي تستأصل شرايين الموت الممدودة بين غيابنا والدرب الموحل، أسترق النظر إلى عينيك، أبصر الطريق الذي يكتظ بزغاريد الزبد، ألثم في بياض نهديك، عورات الثلوج فوق جبال الأولمب، أستنشق على سفوح جسدك أحزان طوروس، وموسيقا الزمهرير التي تتلعثم، بأصوات الريح في قمة إيفرست، تنقل الأعاصير المحملة بعشقنا من بلد إلى بلد، تنتصب

"كوباني" ألفاً، فوق براكين عشقنا، ترمم من خرابها قصوراً، تبتكر نقوشاً تبقى للأبد تكتبنا لتحيلنا إلى خلود. بين دفة المواعيد، تخشع لموسيقا قبلاتنا، فهي تحترق سحراً. تشتعل ابتهالاً. تنتفض لتخرج النور من عباءات السهد. ألج فيك واحات السحر، تصطف كأعمدة النور في غابات بعيدة تصطك خلفها روافد العمر القصي، تلتهب فيها مرافىء الأغاريد، بأدمع تشتهي السجود لابتسامات الرغد، عناوين بلادي أنت، ونفخة تنين البحر في عنفوان العشق. فيك تتجسد أحلام اللذة العمياء، تغمى على مرأى عشقنا الصافي، بحور الشدو وأحزان الجسد، أتجلى على قمتي صدرك حصاناً مجنَّحاً، و بوادي شفتيك وطناً، يسائل الكون عن عشاقه، يا موج الحرائق، من أين يأتي النور، كل الأسوار مؤصدة، كل الطرق صدئة الملامح، حبك البربري، يخطُّ على قلبي وشماً ميدياً، وعلى جبيني أحزان كوردستان، يقودني الحنين إلى ذاتي، أتعبتها الحياة على مسرح الحب، ولا أجدني سوى مطراً على مسطبة الحرائق، اذ كلما يهتز فيّ وترٌ موسيقي، أراني أفر إليك، وأنا أدق طبول الشوق وراءك، لا يسعفني سوى فنجان قهوة باردة الظل، أنا أستخلص كنهك من ملح المرارة التي ترتكب لعنة وجودي، تسلبني الوقت عنوة، لأجري وراء العبث الرخيص، سلواك أميرتي فأنت الأصل والمنبع، نقاء سلالة الأميرات، انتصاراتنا في مخدع البراري، تكشف لنا عن قامات السوسن المبتهج، في كل قبلة نبثها بحرارة على جسدينا، رائحة الزيزفون على نهديك تشعلني، تجعلني أستغيث بشفتيك التي تشعلني هي الأخرى بوابل قبلات شهية، تصعقني، تبددني، تحولني لوشم يبحث عن هوية، في بساتين بهية، أنت الغجرية الممتطية نواصي انتصاب يعيد الحياة، إلى انتفاضته العتية، عائمة في جسدي كدلفينة أليفة، تخوضين الأساطير فيّ ولا تتعبين، تنبذين الوقوف على خشب الارتباك الهش، تصارعين كل شحوب يقف حائلاً ما بين شفتينا، ذلك ديدنك معي، صوتك الذي ما يلبث أن يوغل همساً شهياً بي في ليالي آذار البطولية، أيتها المشعل الخافق في دمي، هات شفتيك وعربدي في اللذة الحكيمة، إننا نستميت للوصول لشبق العالم السامي، ها نحن أمام التاريخ، نشهر سيوف الرغبة والنشوة،

والحنين إلى الطبيعة قبل انجلاء الكائنات الإنسانية، للبعيد حيث ترافقنا أصوات الكائنات التليدة، ها نحن عاريان من الكذب من النفاق، من الموت كله، والجحيم يرغي احتضاراً على وقع هيجان شبقنا المطل، كقدم طفل بين الركام، إليك تعود النبضات مهما تم استنزافها مع السراب الكاذب، على أبوابك تصطف قوافل الحنين إلى الأبد فهات يدك، فهي تتحسس يتمي، فتملؤه بالدفء، ساعة تهاجمنا جحافل الصقيع البشري، غيرك من النساء، هن بغايا يتوسلن الرعشات الكاذبة، تحت أجساد سوداء، لا تملك سوى فحولة العفن، سواك وهم يحيط بي، وعبرك أدك حصون العهر في كل طريق ومفترق، أطلقك اللغة العنيدة، أعيش بك تمردي كي أوقن أن الحياة هي ابتكار النار، وانتحال النور في مسالك الظلام، إنك الجبل الراسخ في وبدونك الدهر عجز وبؤس ودمار، فهات ثغرك لأغيظ به اخضرار الأنهار، وزرقة البحار، أشهد أنك نبية الزمن الغائص في أوحال الانهيار، أشهد أنك نار النار، إني سليل اللعنة التي حطت على عشبة الخلود، بفم أفعى تكالبت على الخلود مزقاً وحطاماً، فإذ به كلكامش يقف عاري الدمع قرب شلال العويل، أغوتني أوهام الغواية كما فعلت بأنكيدو.. حتى ماجت الأرائك في عواصف الموت، تثني القبح والقيح في وجه رقطاء أدبرت كسحلية، أخذت من الثعابين حراشفها، ومن العقارب وبرها العفن، ادعت انها ضوء القمر.. فكانت لمح أضواء المواخير وهي تحوم فوق أجساد عاهرة تبخل على الحب بلحظة صدق، غفرانك إلهتي.. نحن الخطايا من سابق الأزل. و أورام الكائنات وهي تتسلى بمجاراة الفناء عبثاً، رحماك معبودتي.. اني الخائر قرب تنهدات بسمتك الشجية. كيف لم أتشبث بها إبان حلول المتقيحات براز الغربان، لتسقطي "ميدوزا" إنك النعل الذي تمتطيه أحلامنا الباسقة، لينتفض بركاني على الجذور المنتمية للصولجان اللاهث خلف السقوط، بك أحارب القبح الكامن في رغبات تودي بغصات شوقي لك لمجرة الغبن، أعزف في هواك ابتهالاتي.. إلهتي، عل نصاعتي الفاقدة للوعي.. تنجلي في نبضات لا تعي إلاك، لا تكتظ إلا على وقع خطاك، تصطك أنفاسي في لهاث دميم، يرجم بسماتنا الفضية المضيئة بين الدخان، كقنديل ذهبي معلق على صدر

الضباب، تلك الدموع فيمَ تعبر شرايين الألم، هذي المرايا فيما تتكسر على مرآى ملامحنا، لحنيني معنى خفي خارج تآويل الفناء وذبذبات الاحتضار، ولك ذلك الجنون الخادش لحياء تورد الحب، ففيني وجع السنابل وهي تتعشى الشمس في وضح الصباح، وفيني أغنية لم تمت، تلامس كل ركن من أفياء الدار، لكنك النزق المكتظ بالعبق.. أسيرة حلم يتباطأ ليصل، خطيئتي أني اعتاش على طيفك ليبلغ كنه الرؤى. ليستحيل سرب أعياد مشتهاة، محمل أنا بباقات الياسمين.. وطاقات الثائرين، ومناي أن أبلغ فيك عرش الشمس، أتبوأ الركن الصاعق للقبح في محاكاة حبك.. أعاني ضروس المواجع، بعيداً عن زخرف الألفاظ وكمائنها، أقول انك النشوة الخارقة لحذلقات الكلم، والعشق الخالي من شحوم البلاغة وكوليسترول البديع، يدر القلب شعوراً، تدر الشهوة رغبة، تدر المنافي رهبة، وهكذا على مرأى الإدرار، أعتكف في صلاة اللهفة، أستودع المسارات الشاحبة، ولا أرجم اللذة، كي ترضى عني جداتك المشعوذات، وراف هو الالتحام، داكن هو الانفصام، وفي التقابل والتوازي هندسة الانتشاء الجميل، لا أسمع سوى حطام دمعاتك الخريفية، تستجدي صراخي، وعلى أكتاف المسافات أصد رغوة الغبار النتن، أشحذ من صبري حكمته، ومن جذور حبنا سنديانة، ومن سندان الغيب بارود الحرمان، غاربة، باهتة، شاحبة، تلك الأماني، تستوطن قطارات حافية، لاتحني اتجاهاتها لملوحة دموعنا الصدئة، لأسئلتك خيوط واهية تنجب البؤس، وذعر البوح الخائب، للتيه أعمدة القلب تنتصب في الردهة.. تنجلي في السواد، ترسم خيباتها، تنغرس الألحان خارج الكآبة، مثل أقدام النعناع داخل الكأس الزرقاء، لاغترابي شكل آثام تقمصتك كفروة خراف، أو كعاج سميك، للسأم البيادر المتبعثرة، لعوالمي الألق، لها عرين الأزرق، وسط عويل لا يرى.. أرداني العشق اللهبي على شفتيك، خريفاً رخواً، ورماني فوق تخوم الآه. برعونة أصوات حرى. بليونة ينبوع منساب، بين تفاصيل الطرقات. أحجية أنت وأمنية، عاصفة بين الأعماق. وطفولة مبسمك الحافي، تخترق السفن الملقاة، ببحر أوشك أن يغرق، وحروفك تنتهك القانون الأسود، في ألواح الموت.. بين حواشي الغيب، أسير. أواكب أحلامي الأولى،

أجنح نحو الأفق الأعمق. ارتطمت همساتي حزناً، بين الأوتاد المزروعة، فوق يباب الجمر.. تراها تحيا بعد رقاد، أتراها ترد الفرح الغائب. منذ عهود الأنات.. أبحث عن أمن وأمان، منسي بين الكلمات. وأبصر ذاتي بين دخان، يتخطى غبن الأوراق. مرآتي العزباء تنادي، وتخيم صمتاً في قلبي. أتعثر في حزن شتائك، أبحث عن قلمي الأزرق، أبحث عن ممحاتي.. أبحث عن مبراتي، ألهث ألحق ركب شتاتي.. لا أركن أبداً، لا أحيا، إلا في وجع المأساة.. اني من أتبخر ريحاً تخرج من أنفاسك برداً، تلهو مثل دموع جفت داخل مدفأة شاحبة، يا لون الريح بأعماقي.. هات شفاهك أصلبها أحرقها في نار حنيني.. أحتاج جنونك يأخذني يشعل لي كبريت الثلج.. أهذي باسمك.. أكتب عن أحلامي وأنسى.. كم كان الكتمان ثقيلاً.. قبل بزوغك يا آلهتي، أنت المطلق في تكويني.. والزبد الأبيض في عيني. فتعالي أنثاي نصلي.. في معبد حزن وحدنا.. لامس قلبينا ضمدنا، معك الدنيا فصول خلود.. وبدونك نار ووقود، من بعدك لا فرح يعود!

2016م

1-عفرين، كوباني، قامشلو: مدن تقع في غرب كردستان (سورية)

2-آمد: ديار بكر- مدينة تقع في شمال كردستان (تركيا)

3-مشتى النور: تلة تقع في كوباني، غرب كردستان (سورية)

ما وراء النص

قراءة نقدية في النظرة الإسلاموية لدى الكاتب وحيد راغب

في استعراضنا لمقال للكاتب المصري (وحيد راغب) والذي بعنوان (القانون الطبيعي والطبيعة الفردية أو الخلق) يمكننا أن ندخل في سياق رؤية تأملية تحليلية حول نقد نظرته وبيان محتواها، ولعل كل كتابة متحيزة وقابلة للنقد وفق ذلك، وطريقة النقد تعتمد على مدى قرب أو بعد أي مقال من الموضوعية العلمية، وفي تناولنا لنظريته الدينية هنا نكتشف النظرة القطعية في بداية قراءتنا لمقاله، دون أن يقدم ممهدات تدخله لعرض النتيجة بعد تقصٍ وكعادة كل نظرة دينية شمولية فإنها تنتقد ما سبقها من أديان، لتبني بذلك نظرتها كبديل تام، لا جدال فيه، فمفهوم -التحريف والضلال، مفهومان دينيان تصفويان غرضهما هدم نظرة وإنشاء البديل عنها ولا شك أن تلك النظرة تدخل في خدمة النظام السلطوي المؤسس على تلك النظرة الشمولية التي كرست لما يسمى بظاهرة الإسلام السياسي حيث يقول الكاتب وحيد راغب هنا:

(وهنا مفارقة يعرفها الغرب، بعيداً عن التعصب المقيت، ويعرفها الشرق كذلك، أن ما سبق الإسلام من ديانات أصابتها يد التحريف البشرية للأغراض والأهواء، وحب الجاه والسلطان والعظمة والكبرياء والعروش الزائفة، ومن ثم كانت ظلمات العصور الوسطى، فتحكمت الكنيسة في السلطة الدينية، بل تدخلت الغيبيات، إنها تدخل الجنان، وتعفو عن أهل الخطيئة من دون الله، صك الغفران وظل الله على الأرض)

ولعله هنا يجسد الإسلام السياسي في نظرته الإقصائية، تلك النظرة الممتزجة بالبعد الإيديولوجي القومي المرتبط بقوموية الدين والتصور السلطوي الإسلامي في النظرة العدائية للغرب وكذلك التوصيف الضيق للديمقراطية، وكأن مفهوم الفردية لم يكن موجوداً ومكرساً قبل الإسلام، ولعلنا نستطيع أن نوغل في التاريخ ما قبل الأديان الإبراهيمية الثلاث، لنرى أن الأساطير اليونانية والإغريقية والرومانية قد رعت مفهوم الفردية لأجل

استخدامها وسيلة ناجعة لرفعة الإمبراطوريات وتوسيع رقعتها، فمفهوم الفردية مكرس لحماية الطبقات الحاكمة، حيث أننا نجد العديد من الشخصيات الأسطورية التي ذكرتها لنا الملاحم مثل: القديسة كاثرين، وشخصية هرقل اليوناني، وبروميثيوس وكلكامش، وأنكيدو، وسبارتكوس، رمز ثورة العبيد أيام الأمبراطورية الرومانية، وأسطورة الملك البريطاني آرثر، وغير ذلك من الرموز التي رسخت عظمة الفرد ودوره في تغيير أقدار الشعوب، والممالك نحو الأفضل، ونرى الكاتب وحيد راغب ينقل لنا أمثلة من هنا وهناك عن وقائع وحوادث معاصرة لأجل إدانة الغرب متناسياً محاكم التفتيش الإسلامية ودورها في محاربة المعرفيين من أمثال: ابن المقفع، ولسان الدين بن الخطيب، وابن رشد، وبشار بن برد، وغيرهم، وقتلت الكثير تارة باسم حروب الردة، وتارة آخرى نعتهم بالشعوبيين، وهذا شأن كل دين أو سلطة حاكمة مهما كان شكلها عبر التاريخ غربيين كانوا أم عرباً، حين تحول السلطات الحاكمة الدين أو القضية القومية مطية ناجعة بيدها ويد أرباب المال، كونها وسيلة ناجعة للاستمرار في الحكم وزيادة النفوذ فمذهب خلط الأوراق بعضها ببعض، مذهب الساسة المسترقِّين ومن والاهم من منظري الأديان لصالح مكوثهم وانتصاراً لهم، فالكاتب وحيد راغب يذكر لنا أمثلة وشواهد وأمكنة مثل "سجن ابو غريب" دلالة على فظاعة الأمريكيين وعن ديكتاتورية النازي "هتلر"، وتعميم ذلك على الغرب برمته، والتعميم مقياس خاطئ بامتياز يفقد كل معالجة موضوعية صوابها ومصداقيتها، إلى حيث تستلزم تأنياً وحذراً تفادياً لأي مغالطة ولبس جارح وباطش، متناسياً أن في التاريخ الإسلامي شخصيات ديكتاتورية من أمثال "عمر بن الخطاب" و"أبو بكر الصديق" و"أبو جعفر المنصور"، و"أبو العباس السفاح"، و"يزيد بن معاوية"، وغيرهم، ولعل ذلك طبيعي في ظل طبيعة المجتمع السائدة حينذاك والتي ذكرتنا بمقولة ونستون تشرشل حين قال: كل شعب في العالم، ينال الحكومة التي يستحقها، ولعل هذه العقلية الإقصائية التي نشهدها اليوم في العالم العربي هو امتداد لما سبق، إنه يروج ويسوق لبضاعة التصور الإسلاموي القوموي

وليس قراءة موضوعية تحليلة تحاول إخراج شيء حقيقي ومؤثر ونرى الكاتب وحيد راغب بعد تدبر وعبوس وتأمل يفصح عن نتيجة مفادها أن كلام "أهل الجنة عربي" حيث يقول هنا

«**فاللغة العربية من أهم لغات العالم، وهي لغة القرآن ولغة أهل الجنة**»، فلا عجب مما قاله، وليس غريباً أن يقول هذا فلطالما قال المتنبي:

وإنما الأمم بالملوك وما، تفلح عربٌ ملوكها عجمٌ

لأن الشوفينية تعمي البصائر، والنزعة القومية المغلفة بصبغة سياسية دينية، إنما هي خير تعبير عن ركوب الشعوب ودوام خضوعها باسم السيادة الدينية العروبية فلا يعقل أن يقول الله: "وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا"، ومن ثَمّ يأتي وحيد راغب وما سلفه ليقول: إن كلام أهل الجنة عربي ناسفاً ولاغياً حالة التنوع التي أوجدها الخالق وفق الآية المذكورة والتي تحض على التنوع، ولا شك أن كل نظرية لابد وان مخرجها ومنشأها قد أسبغ عليها بزخرف الكلام وجميله حتى كانت تعابير سمحاء ونبيلة، بيد أن حقيقة الحياة السياسية والنظم الحاكمة قالت دائماً وبواقعية أن ما من عالم مثالي، فالأديان (السياسية) وتوابعها النظريات الشمولية التي ارتدت زي العلمانية مجّدت الحاكمين على مر التاريخ وأفرزت الكوارث والمحن وقد أفسدت الدين الذي في مضمونه السمح النقي يتلخص في علاقة الإنسان بموجده، (الله)، ولاشك أن الشوفينية التي تصل بنا لتأويل الدين وفقاً للنظرة القومية العرقية وقول ان كلام أهل الجنة كلام عربي، يقودنا نحو الذرائع التي أعطت وجودية وأحقية لقيام الحركات الدينية المتشددة ومهدت أرضية لتمددها في أوساط العقول التي تعيش في الماضي المتصحر، ولعل هذا هو إفراز للإسلام السياسي الذي له مقومات وجودية لدى أغلب المنظرين الإسلاميين ممن يصفون أنفسهم بالمعتدلين مدعين أنهم على طرفي نقيض من داعش وأخواتها، فمن الاستحالة تطبيق الدستور الديني على الفئات اللادينية، حينما نصفها بالمضطربة نفسياً والمريضة، حين يقول وحيد راغب واصفاً لها:

«**نتيجة التربية الخطأ أو الكبت، أو سوء معاملة الآباء أو جنوح**

المجتمع لعدم تقبّله في نسيجه، فالأمور لديه مشوشة والأفكار مختلطة، وتخيلاته مرضية، فهو نمّى بقوة داخله رفض كل شيء، فهو صفحة لتقبّل من يأويه ولو بالباطل تحت جناحيه»

فهو يصف اللاديني بأنه شخص مريض وعديم تربية أو يعاني من الكبت بالتشوش والاضطراب فمصيره وفق الدستور الذي يرتئي له القتل لأن تهمته جاهزة وهي الارتداد عن الدين، فكيف يمكن لدستور ديني أن يكون عادلاً وهو يفرض نفسه على كل الشعوب المتنوعة والتي يراها عربية إذ دخلت الجنة، وكأنه ذهب للجنة فعاد منها مؤكداً أن كلام أهلها: اللغة العربية، وهو يحارب الديمقراطية ولا يراها سوى بدعة أوروبية؟!

مفهوم الإرادة والتحرر في فكر البارزاني

يقول القائد المعرفي مصطفى البارزاني: «**إن ما أذكّركم به الآن، لا تحسبوه انتقاداً موجهاً إلى أي شخص معين، إذ أنني سأنتقد نفسي أيضاً، إذا بدرت مني أعمال تسيء إلى الثورة، وتلحق الضرر بها أو بالشعب، يجب على الكل أن يعرف واجباته، فيؤديها بدقة فائقة، وإن أي مسؤول في الثورة لا يعمل لصالحها، ويهمل واجباته، يصبح في هذه الحالة عدواً لنا وخادماً أميناً لأعداء شعبنا**» من مقولته نفتتح الحديث في هذا المقال عن مبدأ المحاسبة والانتقاد الذي ارتأى البارزاني إيضاحهما كونهما قاعدتين أوليتين لاستمرار النضال العملي المستند إلى معايير أخلاقية تمثل حاجة كل تنظيم صحيح يريد أن يكون الخادم الحقيقي للشعب ومصالحه، وقد انطلق البارزاني في خطابه هذا من نفسه، معلناً أن المحاسبة هي مبدأ يشمل الجميع من الرئيس إلى المرؤوس وانتهاء بفئات الشعب وأفراده، فكل عمل بطبيعته مُنتقد، وكل حركة جادة لا تتحقق لها الاستمرارية بين الجماهير عبر التاريخ ما لم تضع في حسبانها مبدأي المحاسبة والانتقاد، كمبدأين أساسيين حقيقيين يضمنان توارث الالتزام والتماسك عبر مراحل التنظيم المختلفة، من خلال معرفة المسؤولين والأعضاء طبيعة الواجبات الموكلة إليهما، وبيان القصور والمساوئ والأخطاء الناشئة وتصحيحها على الدوام عبر سلوك مبدأ تحقيق الواجبات تجاه الآخرين، فالإهمال المزري والمستمر يفضي تدريجياً إلى خدمة الأعداء والمتآمرين ويضاعف من إمكان قوتهم، ولقد وضع البارزاني معياراً حقيقياً بدأه من نفسه ومروراً بالمسؤولين أدناه وانتهاء بكل عضو أو فرد من أفراد الشعب، وهذا المعيار يصحح كل الخطوات والمساعي نحو بلورة العمل التنظيمي ليصب في خدمة الجماهير المتطلعة للحرية والحياة القويمة.. وقد اعتمد مصطفى البارزاني على اللغة الواضحة التي تدخل بسلاسة وسهولة نبض الإنسان الكردي، التائق للحرية والخلاص من الأزمات الجسام التي تداخلت في صميم واقعه المعيش، وتبلور معظم حديثه حول إنعاش الروح القومية

المتآلفة في عموم الشعب الكردي، وتطلع إلى ترسيخ التآخي بين الكرد والشعوب المحيطة بها بحكم الجوار والترابط التاريخي، ووحدة المصير المشترك، وفي هذا المقال سنحاول التسليط على جملة مقولات نقوم بتحليلها واستخلاص مضامين جوهرية من خلالها حيث يقول البارزاني هنا في أحد خطاباته المرتجلة: «أفتخر كثيراً بأبناء شعبنا الذين تحملوا كثيراً الصعاب والآلام الجسام في هذه الفترة الطويلة منذ اندلاع ثورتنا إلى يومنا هذا، هؤلاء تحملوا الحر والبرد والاعتقال، والموت والتعذيب»، نلحظ هنا بساطة اللغة وهالة تأثيرها الشفاف في داخل المتلقي، ليجذبه إلى حمل زمام المسؤوليات والتشبث بالواجبات في مرحلة حساسة ومهمة، وكذلك التسليط على حجم المعاناة والمرارة التي يذوقها الثائرون في الجبال، لأجل شحذ الهمم استجداء النفوس، لتعمل على تخفيف الأعباء عن الكواهل، والالتفاف حول الانتفاضة التي من وظيفتها الأساسية، إزالة مظاهر الاضطهاد والظلم عن رقاب الشعب، إنه يؤمن بضرورة الالتفاف والتضامن وحمل المسؤولية التي لا بد وأن يحملها عموم فئات الشعب كافة.. ويركز المعرفي مصطفى البارزاني على الإعلام الكردي وشح تأثيره على العموم العالمي لقلة الإمكانات وضآلتها وينظر للإعلام على أنه الوسيلة القوية لبث نقل الأخبار والحوادث التي تجري في محيط الواقع الكردي المتخم بالمآسي والويلات، حين يؤكد: «إن ما حصل للشعب الكردي لم يسمع به العالم الخارجي إلا بنسبة 4% ولكن نرى إذا ما حصلت ثورة في الخارج وحدثت أربع بطولات فحسب، أظهرت وكأنها مئة، لأن هناك من يساعدهم ولهم وسائلهم الإعلامية وهناك من يدعمهم ويقف إلى جانبهم، إلا أن ما حصل في كردستان، حصل دون مساعدة ودعم من أحد بل بسلاح متواضع مقابل قوة كبيرة غاشمة وظالمة»، فيشير إلى مدى تأثير الإعلام في نقل الحدث بوتيرة متسارعة، تساعد العالم على فهم ما يجري ويحتدم في بقعة جغرافية، أما عن الكرد فإن الإعلام لم يكن موجوداً لينقل نضال الشعب الكردستاني وكفاحه المعرفي الطويل لأجل تحقيق الحرية والاستقلال. وقد عمد القائد المعرفي مطصفى البارزاني على إيضاح نقطة مهمة في نجاح أي

حركة أو انتفاضة في العالم من خلال آلية نكران الذات وتقمّص معاناة الجماعة والذود عنها حين أوضح قائلاً:

«في كل ثورة أو حركة تقوم لخدمة شعب في الدنيا، من الضروري أن تناط الأمور بمسؤولين يضعون خدمة الشعب في المقام الأول، ويعملون بنكران ذات، وينسون مصالحهم ونزواتهم الخاصة، ويقدمون على أي عمل فيه خدمة الشعب، حتى وإن تناقض ذلك مع مصالحهم وأهوائهم الذاتية»

فهو يؤمن بضرورة نكران الذات كآلية قوية فعالة لدرء الخطر عن الجماعة الموجودة على أرضها التاريخية، ويتحدث بوضوح عن سوءات الأنانية ونهج المصالح الشخصية على حساب الشعب وقضيته، ومن خلال التشبث بمبدأ خدمة الشعب ورفع مستواه وإبراز شخصية الجماعة، خير دليل على سلامة قيادته وسعة خطاها، من خلال التمسك بالمبادئ والقيم الأخلاقية التي هي عماد انتصار ونهضة المجتمعات ورقي أفرادها ووعيهم في التصدي لكل جهالة أو أنانية، فكل ذلك يصب في معركة المصير القومي، وقد شدَّد القائد المعرفي البارزاني على أهمية أن يلتزم المسؤول بصيانة مسؤوليته من دون إهمال حيث بيّن عواقب ونتائج من يتخلف عن أداء مهامه حين قال: «المسؤول الذي يتخلى عن مصالح الثورة من أجل مصالحه الشخصية أو الذي يعمل لملء جيوبه ويتوخى الاستفادة المادية، ويحاول المفاخرة الفارغة، إن مثل هذا الشخص لا يمكن اعتباره كردياً ولا يمكن أن يخدم الثورة، إن القومية والحزبية والثورية الصحيحة في أن نتعاون مع بعضنا ونتكاتف من أجل مصلحة شعبنا»

ولنتأمل الآن جملة من رسائل تجلت في هذا المقتطف من خطاب البارزاني، والتي تجلت بانتقاد المسؤول الانتهازي الذي يحط من قدر مسؤولياته ويستغل ذلك لأجل مصالحه الشخصية الأنانية التي تنتج الوبال والسوء على الثورة والتنظيم على حد سواء، ويقلص العمل الناجح ويقصي الإرادة من أن تصبح قوة داخل النظام والحركة، وقد بين أن الذي يقدم مصالحه الشخصية الضيقة على المصلحة العليا المتمثلة بالشعب والثورة إنما

هو عدو للكرد والثورة معاً لذلك رأى في التعاون المعيار النظيف والصحيح على القومية، التي تتضمن ثقة الجماهير بعضها ببعض، والحزبية التي تمثل الصراط أو النهج الذي يستدلنا على الالتزام والتنظيم الذي يجسد لنا الحياة الراقية، ونتوقف أخيراً لنقول:

إن حقيقة الفكر الذي انتهجه البارزاني كان متلخصاً حول فكرة الانتقاد ومحاربة المصالح الضيقة للإرادة المتمثلة بمصلحة الأمة الكردية، و التحرر في فكر البارزاني هو الدعوة إلى فك القيود عن العقل الكردي والحياة الكردستانية، ورفع الأغلال عن كاهل الكردستانيين، من خلال سلوك التضحية واستكمال نشر ثقافة الاختلاف، وإفساح المجال لقول كل ما يشير إلى المساوئ السلوكية التي توجد داخل الجماعة المنظمة، وإن إبداء الرأي حول كل القضايا النضالية، ومعالجة النواقص على الدوام، تشكل حقيقة مفهوم التحرر لنتأمل قوله هنا: «لقد بلغت تضحياتنا أكثر من 2000 شهيد، وهؤلاء ضحوا بأرواحهم الطاهرة في سبيل الشعب وهذا الوطن، ومن أجل حقوقنا المغتصبة، والتي كما قلت مراراً، هو الخلاص من هذه المظالم، وحق إبداء الرأي فيما يحدث، وحق استخدام عقولنا واكتساب وإدراة ودراسة كل ما يتعلق بإدراة بلادنا فيكون لنا حق اتخاذ القرارات وحق الرفض فنتمكن من العيش كأي إنسان دون معاناة أو مظالم، وإذا تعرضنا لاعتداء يجب أن تكون لنا يد قوية تمنع المعتدين من خنقنا»

إذاً فالبارزاني يشير إلى إبداء الرأي لأجل معرفة ما يجول داخل نفوس وعقول الأفراد المنظمين تنظيماً حقيقياً قائماً على النقد وممارسة الاختلاف ونبذ الخلاف، كون ذلك يقودنا نحو تحقيق سلامة الوطن والشعب واستثمار روح قيمة التضحية، ومفاد ذلك هو تحقيق عنصر النصر من خلال زرع أواصر الثقة والتعاون بين أفراد الشعب، إنه يتحدث كما لو كان فرداً من أفراد الشعب، بعيداً عن الإحساس بوباء السلطوية الفظة التي تقف حائلاً دون رسوخ الوحدة بين الجماهير وكذلك الرفاق قائلاً: « إن رجائي إليكم جميعاً هو أن تتعاونوا مع بعضكم بقلوب صافية، وأن لا ترتكبوا أعمالاً تصبح عدوة كبيرة في دواخلنا وبين صفوفنا، وإذا ما تعاونا

كأخوة وبصدق وإخلاص، وكافحنا من أجل الصالح العام، وإذا ما وضع الكل مصلحة كردستان والثورة فوق المصلحة الخاصة فلن تكون هناك قوة تستطيع هضم حقوقنا ولن يكون هناك من يستطيع الاعتداء على شعبنا»

إذاً يدعونا المعرفي المخلص مصطفى البارزاني إلى التعاون والتنسيق ونبذ الأنانية، وترسيخ الغيرية، للحفاظ على المكتسبات والقيم التي تنمي حس الوطنية وروح الانتماء في عموم الكردستانيين، وتبعدهم عن كل ما يشوب تعاملهم فيما بينهم، إنه نهج المعرفة والتوافق والسياسة المعتدلة التي تدعو للتكاتف والمحبة والثقة وتنبذ كل ما يربك السلم الوطني والقومي، ولعل هذه الاستراتيجية المعرفية التي تبناها المعرفي الخالد هو ماجعل الدرب الشائك يسيراً أمام خطا الأجيال نحو الاستقلال والحرية

المنهج المعرفي في كتاب (الأمير) لنيقولا مكيافيلي

مكيافيلي، الذي أعمل قلمه لأجل إحقاق المظلومية التي كانت خفَّاقة في المشهد الإيطالي، وعن الولايات الإيطالية التي تداعت الواحدة تلو الأخرى بسبب رداءة الحكَّام، وسوء تعاطيهم مع الإدارة والشعب، وإن الحقيقة المثلى التي أراد "مكيافيلي" بيانها في كتابة (الأمير)، هو إيجاد بديل عن التردي السياسي، والبرودة الوطنية التي أعيت إيطاليا حينذاك، هو كأي باحث سياسي، محاول، أراد استخلاص مفاهيم جيدة يستطيع أي حاكم طموح الالتزام بها لأجَل النهضة، نهضة الشعوب، وكذلك إبراز قوة ونوعية قيادة الأمراء، ومحو الخصوم من انقلابيين ومأجورين، ومن خلال تقلّد (نيقولا مكيافيلي) لعدد من المناصب الدبلوماسية والسياسية لجمهورية فلورنسا، ونستطيع معرفة قدرته على احتواء المواقف وإبراز النتائج، المتمخضة عنها، وكذلك كشف الخلفية المعرفية الرافدة عن تجربته، التي تعتبر تجربة واضحة تعبِر عن واقعية السياسة لا انفصامها عن الواقع، ولاشك أن تجارب الإطاحة بجمهورية (سودريني) ونفيه القاسي إثر ذلك، جعله يعيش حالة الواقعية السياسية أكثر فأكثر، مستخلصاً العبر الأكثر رزانة وتكثيفاً وتحريضاً على إثارة التساؤل، ونحن أمام كتاب (الأمير) نمهِّد لاستخلا ص سلسلة من النقاط المهمة التي لابدّ من أن نقف عليها ونعالجها تبعاً للعصر وما يمكن مقارنته مع الحاضر الدائم الذي نعايشه، ولاشك في أن إقدام محكمة التفتيش على حرق مؤلفات مكيافيلي دليلاً على أن الإرادة المعرفية التي كانت متمثلة في شخص مكيافيلي والتي كانت موضع حجب واستنكار ونكران ممّن قاموا بحرق أعماله. ولا شك أن الأزمة الراهنة التي يعايشها كل عصر، تتمثل في إشكالية السلطة وعلاقتها بالشعب فيقول مكيافيلي هنا مخاطباً الأمير: ص(20) «فمصورو المناظر الطبيعية، ينزلون إلى الوديان ليتمكنوا من رسم الجبال، ثم إنهم يصعدون إلى أماكن مرتفعة، حتى يتمكنوا من رؤية السهول والوديان، ولذلك من

الضروري أن تكون أميراً حتى تعرف طبيعة شعبك، كما أنه يجب أن تكون أحد الرعية أيضاً كي تعرف الحقائق المتعلقة بالأمراء»

من خلال هذا المقتطف الذي راح مكيافيلي ببيانه أمام الأمير، نجده يعرض حقيقتين:

- حاجة الحاكم الماسة لمعرفة شعبه، ومن خلال المعرفة والكسب والتعاطف والتعاضد، يمكن الحرص على ديمومة بقاء الحكم ونقائه وقوته مبيناً ذلك بتشبيه دقيق وواضح بالذي ينظر من أسفل الوادي للجبل ويرسمه، ومن ثم يصعد عالياً ليتمكن من رؤية المشهد الكلي
- ويوضح مكيافيلي من خلال ذلك نقطة أخرى تتمثل بقوة الأمير الناجح ومداركه الواسعة، بمقدار استيعابه للشعب ومعرفة الحقائق المتعلقة به، فعلاقة الحاكم بالمحكوم ليست علاقة عدائية بقدر ما هي توافقية تنتج عنها القوة والديمومة..

بيد أننا نلحظ التناقض السائد والمتنوع والمتفاوت في مخاطبة الأمير فتارة يريده أن يقترب من الشعب بنظرة المدرك، وتارة يريد من الحاكم الجديد المفترض أن يكون الأقوى مشيراً إلى أن أي حاكم مهما بدا قوياً فلا بد أنه سيركن لحقيقة الزوال، إن آجلاً أو عاجلاً، حين يقول هنا:

ص25 "**ومن يسيطر على أراض ويريد أن يحتفظ بها، لابدّ أن يضع في اعتباره أمرين: أولهما القضاء على الأسرة الحاكمة السابقة قضاءً مبرماً، وثانيهما عدم تغيير أي قوانين أو ضرائب خاصة بهذه البلاد، وبهذه الطريقة ستصبح جزءاً من الاتحاد في وقت قصير جداً، وتصبح الدولة كياناً واحداً**»، إنه في ذلك يعتبر أن مقياس القوة كامن في آلية التعامل مع الأسرة الحاكمة، وكيفية الانقلاب عليها وتدميرها والمحافظة على القوانين السابقة كما كانت ولعل ذلك يجعلنا نستخلص حقيقة فهم مكيافيلي لطبيعة السلطة الواقعية القائمة على الأنانية والاحتكار والهيمنة الفردية، التي هي جل تناقضات السلطة وإشكاليتها عبر التاريخ ومن خلال الأمثلة والشواهد، ثم إن مكيافيلي يوضح لنا مدى نفع وخاصية القدرة المعرفية التي تجعل

الأمير الطامح متمكناً وثاقب الرؤية حين يقول هنا:

«إن من يستفيدون من قدراتهم حتى يصبحوا أمراء، يحصلون على الإمارة بصعوبة، إلا أنهم يحافظون عليها بسهولة، والصعوبات التي تواجههم في ذلك ترجع إلى حد ما إلى القواعد والتعديلات الجديدة التي يضطرون إلى إدخالها حتى يستتب السلام في ولاياتهم» ص40

وهذا ما يجعلنا نتأمل حقيقة القوة المتمثلة بحسن التصرف والحكم، وكذلك القدرة على التمييز مابين الوصول للحكم بجهد أو الوصول إليه بالوراثة التي تنتج عن نقصان تجربة وحنكة ونضج، لأن السلطة وممارستها فنٌ بليغ يجتهد له الحاكم المعرفي الطموح القادر على الاعتدال والتوافق وكذلك محاربة الفتن والنعرات والمفاسد التي يمكن أن تشلَّ فيه طبيعة حكمه وتؤلب عليه الشعب، من هنا فمكيافيلي مع القوات الوطنية ومع أن يحفل الحاكم بحب الشعب حيث كان بالمقابل يبرز سوءات المرتزقين المأجورين الذين هم عبء خطر على البلاد ولا بد من الاستعانة بقوة الشعب لا المأجورين، إذ يقول مكيافيلي هنا: **"ومن طبيعة الإنسان أن يرتبط بمن يقدم له نعماً وينعم عليه، وبناء على ذلك فإنه الأمير الحكيم الذي ينظر إلى الأمور كافة بعين قادرة على حسن التقدير، لن يكون من الصعب عليه أن يرفع من روح مواطنيه عندما يبدأ الحصار وفي أثنائه لو كان يملك ما يكفي من مؤن وسلاح»** ص62

هنا ربط مكيافيلي بين قدرة الأمير الحاكم على إطلاق عنان القيم الوطنية الكامنة في إرادة الشعب مرتبطاً بالدعم اللوجستي من سلاح وذخيرة ومؤن، هذا سيجعل المناعة أكبر وأقوى وأمتن، ويجعل الأمير هَرماً متيناً أمام أعين الجمهور، وقد أكد مكيافيلي على الإرتباط المهم ما بين الرئيس والمرؤوسين، ومالهما من علاقة، ورأى أن النبلاء هم ممثلوا الشعب ومن خلالهم فإنه يمكن للحاكم معرفة مدى رضا الشعب عليه، وقد بين مكيافيلي مساوئ وعيوب الإرتزاق والإعتماد على المرتزقة في الحفاظ على البلاد حين بيّن ذلك بجلاء قائلاً: ص67 «**إن الضباط المرتزقة إما أن يكونوا ذوي كفاءة أو غير أكفاء، فإذا كانوا أكفاء فإنه يمكن الاعتماد عليهم، لأنهم يثبتون لأنفسهم**

أنهم عظماء، إما بابتزازك وأنت سيدهم، أو بالضغط على غيرك لما هو في غير صالحك، أما إذا كان الضابط غير كفء فإنه يدمرك تماماً»

ولقد أدرك نيقولا مكيافيلي ذلك معبراً عن الحقيقة التي تتجسد في خطأ الاعتماد على المأجورين لأنهم عبء على الحاكم والبلاد في آن معاً، ولقد ربط مكيافيلي هذه النقطة ودعّمها بمثال من التاريخ الروماني حين قال: ص 75 «**وإذا ما نظرنا إلى أسباب انهيار الإمبراطورية الرومانية فستجد أنه كان بسبب استئجار قوات مرتزقة من «الغوت» لأنه منذ ذلك الوقت بدأت القوات الرومانية في الضعف وسقطت عن الإمبراطورية جميع مزاياها وذهبت إلى (الغوت)».**

وقد أحسن مكيافيلي في التعبير عن صفات الأمير وتفكيره الدائم بالحلم وتعلم التدريب العسكري في أيام السلم كما الحرب، لأن ذلك يحفظ سيادة البلاد على الدوام ويجعل الناس العاديين يقتربون لممارسة مهام الحكم، بمعنى آخر فمكيافيلي لم يكن معادياً للشعب أبداً، بل كان يرسم مواصفات القائد الحكيم والناجح والنشط في شتى المواقف والمعبر عن رغبات الشعب في تأمين البلاد والمصالح ولاشك أن مكيافيلي كان يعي طبيعة الحكم ومراحله وقد وعى حقيقة الصراعات في الحكم ومراحلها المريضة الأخيرة، لذلك عبّر عن ذلك بان الأمير الطامح للتغيير عليه إنهاء سجالات الأسرة الحاكمة بذهاب أفرادها المتحليين مما نجم عنهم من ضعف وفساد، وقد أدرك جلياً أن إرضاء العامة غاية لا تدرك فقال:

«**مازلت أقول: إنه على الأمير أن يجعل نفسه مهاباً بطريقة تجعله -إن لم يحصل على الحب، فإنه يتجنب الكراهية على أي حال، وذلك لأن المهابة وعدم وجود الكراهية من الممكن أن يجتمعا معاً**» ص87

لقد اعتمد مكيافيلي على التوافقية والتوسط في طريقة حكم الرئيس للشعب وتجنب الاحتقار، ولاشك أن مكيافيلي أكد بوضوح ضرورة أن يكون الامير حليفاً للشعب لا نداً له عندما قال: ص94«وعلى ذلك فإن على الأمير ألا يهتم بالمؤامرات، إذا كان الشعب يناصره ويحبه، ولكن إذا كان يكرهه ويعاديه، فعليه أن يخاف من كل فرد يخشى كل شيء»

لقد كان مكيافيلي في عصره بحاجة إلى نظام حكم يتلاءم مع طبيعة الواقع ولا يوافق تماماً أنانية الإنسان وسعيه لإرضاء نزواته فقط، وكان يوقن أن أسباب سقوط الحكام عبر التاريخ كامنة في كراهية المحيط لهم واحتقارهم إياهم، ولم يكن مكيافيلي يهتم بلبوس الذين أدعوا الفضيلة وقاموا بخلق عالم مثالي يتذرع بالوفاء والسلام ويضمر عكسهما، بل كان مع الحقيقة المعرفية الواقعية ومنهجه ملائم للواقع حين دعا الأمير أن يكون معرفياً وأن يهتم بتربيةِ الفن والإبداع في شؤون حكمه للبلاد حين قال: «على الأمير أيضاً أن يكرِم الموهوبين ويميز القادرين، ويحمي البارزين في كل فن، بالإضافة إلى أنه من واجبه أن يحث مواطنيه على ممارسة العمل وهم مطمئنو البال»

ومكيافيلي المعرفي الطامح بيّن أن ديمومة الرفاهية والعدل كامنة من حث المبدعين على الإبداع وحث الناس على العمل كضرورة لمعرفة الحياة وصونها، والتعايش ضمن المجتمع ولاشك أن مكيافيلي كان يؤرقه الهم الوطني المتمحور حول إيطاليا وحريتها من الغرباء والعابثين بها، حين دعا إلى سن النظام الجديد وقال: ص123 «ولاشيء يحقق للرجال المجد الكبير، سوى سنّ القوانين الجديدة، وهي أمور تجعله موضع إعجاب واحترام، ويوجد في إيطاليا ما يسمح بإدخال نظم جديدة»

وأخيراً نستطيع القول بأن الغطاء السوداوي الذي تم وضعه على المفكر مكيافيلي لم يكن مبرراً بشكل موضوعي، ودقيقاً بالمعنى العلمي العملي الهادف، فلو تأملنا وأعدنا القراءة، قراءته جيداً لاستطعنا إنصافه ومعرفة الظروف الحساسة والهامة التي جرت في عصره، أثناء تنقلاته وكذلك نستطيع لمس الطابع المعرفي المرتبط بالحكمة والعمل في فلسفته ولابد أخيراً من أن تصل الرسالة على نحو أصح.

التساؤل في حضرة الذاكرة
في أدب الشاعر مصطفى النجار

أدب الشاعر مصطفى النجار أدب اختزالٍ للفكر من خلال التساؤل حول ماهية القيم التي تتضوّعُ في الذاكرة إزاء العالم، يكشف عن تجربة تعتمد على الذاكرة في سجالها المستمر مع الزمن في خضم أحداثه حيث أن للشاعر رؤيته الخاصة وارتباطه الحميمي مع المكان الذي قاده للتساؤل وإبداء القلق على مستوى الحدث المتعلق باستحداث ذاكرةٍ غنيّة، فنحن إذ نقف في مشاهد تعكس جغرافيا الحياة والمشهد الزمني غيَر محدد الماهية ورؤية الشاعر ضمنه تتلخص في مفردات من الحنين والنزعة التأملية وجمالية الوجع باقترانه مع التصوير ففي (شحارير بيضاء) ديوان الشاعر الأول، أدرك الشاعر ماهية الحقد الأعمى الذي يداهم البشرية منذ تشكلها فكيفما يحاول الحب مسّ أرواحنا فإنه عاجزٌ على اقتناص الرذيلة في نفوسنا، ففي قصيدة (سماوات بعيدة) ينقل لنا الشاعر ماهية العجز الإنساني في الوصول إلى الكمال بأبعاده الرحبة المتناسقة حيث يتأمل متساءلاً:

أحببت أن أنام فوق سفينة في يوم/ثم أصحو/لا ضغينة لا حدود

ما أشبه هذا الاحتجاج باحتجاجٍ أكثر توتراً حيث يقول بشار بن برد:

صار كل الناس إلا أقلَّهم ذئاباً على أجسادهنَّ ثيابُ

إلى أن الشاعر النجّار كان أقلَّ حدَّةً من ابن برد كونه يربط تفاصيل حياته بأفكاره الحيّة بإيقاعية تميل للوصف والرصد وهو إضافة ينقل لنا عزم الإنسان الجديد إلى السمو والتحليق في الصحو برحاب التأمل الخلاق لما وراء العالم المادي باستخدامه لعنصر الابهاج حين يقول:

ما أحلى الطائر المحلق/جناحاه يحملانه حيث يشاء

وهذا كثيراً ما يذكِّرنا بسعي أبو النصر الفارابي في بحثه عن الاجتماعات الإنسانية التي نظر إليها على أنها في درجتين كاملة، غير كاملة، وأعظم الاجتماعات الكاملة هو اجتماع الجماعة، ومايحيط بالشاعر مصطفى النجار حين يشيد في قصيدة له عن تآلفه مع مجمع المفكرين والمبدعين

الذي يحرضه عليه خياله فيقول:

مازال بي يحلِّق/خيالي المجنِّح/نحن في سماء اليونان/مع أثينا وسقراط والشعراء/مع أعمدة المرمر/مع الأولمب العظيم/

فالسعادة الكاملة في نظر الشاعر هو سموه مع الجماعة، وهذا ما اعتبره الفارابي من أعظم الاجتماعات الكاملة ولعل تجربة الشاعر ومفرداته تدخل ضمن حيز الخصوصية الذاتية التي تطرح قضية المعادل الذاتي كبديل عن المعادل الموضوعي الذي طرحه تيسي إليوت وهو بالتالي مثار دعوة للكمال الخاص ومسيرة الشاعر في ضوء الكتابة الشعرية متجسدة في مخاطبة الحاضر ورصد أزماته من خلال تفعيل العلاقة بين التساؤل والذاكرة من كونهما مفصلان رئيسيان من خلالهما يذود الإنسان عن بقاءه إزاء الموت الذي يهدده فهو هنا في قصيدته سرب جلَّنار في بلادي يقول:

لعينيك يا مهجتي/باح ما باح قلبي/لعينيك كان الحوار الذي لا يموت/وكانت حكايا الهموم التي لا تحب المغيب/

روح التفاؤل لديه تتمتع بكاريزما خاصة به فهو دائم البحث عن كمالية الحوار وعن تتمة الحكايا حيث يعبِّر ابن سينا فكرياً عن ذلك من حقيقة الكمال الخاص بالإنسان فابن سينا يرى«إن سعادة كل كائن هي في وصوله إلى كماله الخاص به، والكمال الخاص هو المعرفة وبالتالي التفكير»

الشاعر مصطفى النجار دائم البحث عن ماهية القدوم واستنباط قيم جديدة ظاهرة أكثر منها موارة في الوجود فهو في قصيدة «أبحث عن قيس آخر» يجول بحذر ويحيط قصيدته بهالة من التساؤلات حين يقول: ياقيس ويا قيس المجنون/الركبان وسيارات السفر الحضري/بجع الأيام القادمة/تاريخ الأفراح النبوي/ترجوك وترجو منك الاجهاز على الأحزان/ترجوك وترجو منك الصحو وتحرير الإنسان/

إنه يتحدث من منظار انتصار الفرح على الحزن واستعادة حرية الإنسان من خلال الحب من أوجه ترتبط بقيم العمل لا الخيال وهذا ما يقابل الذاتية الموضوعية في جعل الهيمان الشعري حاجة عقلية وفكرية إلى الجنوح لما وراء الخيال والفكر وهنا نتذكر قول الاستاذ يوسف كرم في كتابه

تاريخ الفلسفة الحديثة حين يقول: « الحرية والخلود والله أمورٌ يؤدي إليها العقل العملي وإن عجز العقل النظري عن البرهنة عليها.. » وهنا يرتبط الشاعر بهذه المنهجية المقاربة لمقولة (كرم) حيث أن الشاعر النجار يخاطب قيس المجنون من منظار عصره ويدعو إلى الصحو أي إلى اختزال القيم من خلال دعوة العشق التي يتوحد فيها البشر عبر تعاقب الأزمنة وبالتالي فهي ثنائية تجمع العقل مع القلب في اتحاد كلي يسمو للرابطة السامية التي تناسقت مع الكون الهندسي الرائد، يجمع الشاعر مصطفى النجار أيضاً بين الفكر والغنائية الرومانسية في ظل رؤاه الفلسفية التأملية لإيجاد لغة ترابطية توجز القديم في اقترانه بالجديد في هيئة اتساق البسيط مع المعقد والغرابة مع الوضوح ليرسم لوحة سوريالية وعلى طريقته كقوله في قصيدة من سرق الفراشة والسور بديوانه«من سرق القمر»:

وكيف يرفُّ فراش الأماني/وسور الحديقة عالٍ/تشعُّ قناديل حبٍّ/وليل المدينة من زمهرير/

إنه في هيئة الأماني والقناديل المشعَّة يستحضر معالم السعادة الكاملة وميوله لاختزالها في ثوب المدينة التي يحاصرها الزمهرير وهذا أقرب من تفرد كنط في دراسته للسعادة حين أكَّد «أن السعادة هي إرضاء جميع ميولنا سواء في مساحتها، أي تعددها أو في شدتها أي درجتها أو توجهها أي مدتها ولا يقتصر اقترانها بالتالي على الفضيلة»

وقد انطلق الشاعر مصطفى النجار في تجربته الشعرية من مبدأ الإشادة باللذة من كونها مفتاحاً مهماً يصل بنا إلى الخير الأقصى الذي أشاد به أفلاطون ففي قصيدة نوافذ الأسرار يقول:

تتألق الكلمات في عينيك يوم تألق البسمات/في عينين ساحرتين مثل تراقص النجمات فوق ملاعب الأشجار/لا تغمضي عينيك في وجهي إذاً/لا تغلقي نوافذ الأسرار

ما أكثر قربه من مبدأ البحث عن اللذة والابتعاد عن الألم الذي تحدث عنه المفكر جيرمي بنتام فهو رأى أن المنفعة هي مبدأ السعادة العظمى، ويشير الشاعر في قصيدته لغطٌ حولها إلى امتزاج التساؤل بروح الغنائية

والرؤية المستقبلية للعالم الذي تشكل المرأة فيه حلقات من أسئلة وألغاز حيث يقول:

هل أنت يا ورقاء عمري/في هبوب الريح في غدر السراب قرنفلة/هل أنت جمر تطلع الأشواق عين السنبلة/أم أنت ردهات عصرٍ قادمٍ بعض اشتهاء المقصلة/

يختلف عنه الشاعر وفيق سليطين في رؤيته للتساؤل فهو يقول بقصيدته «ما أشكل في كتاب النحاس»:

سألقي السلام على الأرض/ألقي عليها المحبة حتى تنوء/وأعطي المفاتيح للكائنات/أقول: هل الرمل أنشودة لا تجاهر مثلي بحبَ/ولا تتكشَّف عن لوعةٍ مشتهاة/

وهنا نكشف فارق التساؤل بين الشاعرين فالتساؤل لدى الشاعر مصطفى النجار يعتمد على التأمل للبعيد حيث يظهر الاغتراب في حيزِ مشع بالذاكرة المتقصية التي تتمثل بمناجاة الشاعر للمرأة التي يستشفُّ فيها أنساً دافئاً لعصرٍ قادم، أما التساؤل لدى الشاعر وفيق سليطين فرؤيته قائمة على إزالة قناع الشؤم عن الأرض الزائلة التي تندثر باندثار الكائنات

وللشاعر مصطفى النجار طريقة في تحويل التساؤلات إلى إيقاع موظف في إحداث ثنائيات متقابلة تتسم بالحوارية والإيقاعية الهادئة من مثل:

هل أنت ميقات جديد/أم أنت زنبقة القبَل/هل أنت في هذا الصقيع

وأيضاً في موضع آخر يقول:

ومن قال إني قطعت الجذور؟/ومن قال إني هجوت زمان البراءة/ومن قال إني؟؟

أيضاً يعتمد المناجاة التي تخلق جودة الاقتصاد اللغوي القائم على الومضة والتكثيف حين

يقول:

يابنتُ يا أمسي الذي أحياه في حلم الغد

الذاكرة لدى الشاعر تختزل الأمس والغَد عبر لحظات جميلة تستجدي رؤية الشاعر الفلسفية المنمقة بالتصوير الذي يحاكي الداخل الإنساني كما في

مشهد المطر حين يقول بتأمل:

الله ما أحلى المطر/الله ما أصفى المطر/هو دائمي في الصدور/هو دائمي لان من إيقاعه حتى الحجر/

إنها ترنمات طفولية في حضرة المطر وتجسيدٌ لجوقة الولادة ومثال ذلك ما قاله الرافعي الذي رأى أن الحبّ جزءٌ من الطفولة وكذلك الحبيبة هي جزء من المحب ويؤكده الشاعر في موضع آخر يقول:

الحزن يا حبيبتي/الحزن في خريطة الوجود/في سلالة الورود/في نقاوة الحليب/في تشرد الشريد/

وللذاكرة في طور الطفولة عودة حتمية في مسيرة الشاعر الذي يبحث عن الطفولة بين العصافير والفراشات حين يقول:

العصافير امتدادٌ لرؤاي/والفراشات ابتداء لتلاوين خيالي/لا فلا توقظ شياطين شقاي/

مما يذكرنا بجبران خليل جبران حين يقول:

هل جلست العصر مثلي بين جفنات العنب/ والعناقيد تدلت كثريات الذهب

وأخيراً فهذه الدراسة عبورٌ سريع حول بعض أقل الجوانب إثارة على أطلال الذاكرة واضطرام التساؤلات فالشاعر مصطفى النجار جسد القلق الإنساني بدقة بإنشائه لجسور وتقاطعات لكل متقص للكلمة ومتأمل لفلسفة السعي في مجاهل الحرف وإسقاطات الرمز ومسعى لكل متلق متأهب للبحث عن الجمال من خلال الدلالة دون الوصول فالسعي إلى الدلالات أكثر رحابة وحضوراً من النتائج

تأملات نقدية في عوالم
الروائي والمسرحي راهيم حسّاوي

مسرحية (السيدة العانس) المنشورة في
الموقف الأدبي الخاص بالمسرح:

لقد اكتمل الفصل الأخير من فصول الولادة بصورة أرادها الكاتب في فلك هذا الكون المنفصل عن دوائره، فقد اختار الكاتب شخصياته بحذق بدءاً منذ بداية نصّ مسرحيته التي توحي لنا بفوضى لا متناهية، تلك الفوضى المنسقة المتسقة بدوائر من تساؤلات وإشكالات تلخص جوهر القضية التي تختص بعملية التفاعل.. فالتفاعلية تحتوي الإبهار، التشويق، اللعبة المتقنة التي تسبق اللحظة الراهنة ولأن المغزى من صياغة العمل المسرحي يكون في طفراته العليا والشخصيات وتلك اللعبة المكشوفة والغامضة وفقاً لحقيقة هذا الواقع الذي يتخلله الوهم الحقيقي فقد اكتملت رؤية العالم في نظر الكاتب من خلال السيدة العانس وشريكتها الأرملة العوراء والشخصيتين اللتين تقفان متقابلتين أمامهما، ابن القبو، وابن القمل، وقد لعب هذان الأخيرا ن لعباً رهيبا لا مثيل له على الخشبة وكأن المسرح ملك موروث لهما فهما سرعان ما يمتلكان دفة السفينة المسرحية حتى تكتمل كل العناوين من خلال شخصيتيهما أما صاحب متجر الأحذية فيجسد ظلامية العصور التي أخذت تطيل عمر البؤس وتكثر في طلب العبيد والأرقاء، فنرى حالة الغضب والتسلط في شخصية صاحب المتجر الذي يلهث ويتدفق لعاب فضوله في معرفة سر الأرملة العوراء، والتي تمثل عينها العوراء ظلام القبو الذي يسكنه ذلك اللقيط ابن القبو فقد عكس العور في عين تلك الأرملة حالة تشويقية بمعنى أن قدرة الكاتب و حنكته على إحداث تقابلات بين الشخصية والمكان جعلا المسرح يضج بإشكاليات وقضايا قد تخدم ليس الحالة البنائية للمسرح فحسب بل العنصر الإنساني الدرامي أكثر فأكثر، بمعنى آخر فالصورة التجسيدية لدى الكاتب موظفة على نحو تقريري مكثف أعطى الشخصيات

حيزها الرحب الذي أدخلها في سياق تفصيلي فلسفي يكثف بعمق أبعاد التجربة الإنسانية واتجاهات عمقها نحو المأساة والكوميدية السوداء حتى أن المسرحية بعناصرها كافة موظفة في سياق إنساني موحد مثل القبو الذي يمثل بدلالته الرمزية الحالة السفلى لدى البشر الذين عاشوا في قيعان الحياة ووراءها فقد سخر لهم القدر هذا السواد والفتات حيث لا سبيل لهم إلا أن يعيشوا تحت الأرض ليتلمسوا أبعاد الجمال والسمو والزرقة في ظلام القبو الأسود، مواءَ القطة بات تشكل معلَماً من معالم الخلاص لابن القبو فهو لن يستطيع أن يرى النور ما لم تمؤ القطة وهنا دعونا نعترف أن الخيار الإنساني للخلاص البشري عموما هو أن مسألة البناء ليست رهينة الحركة الإنسانية والرؤية الثورية بل يلعب الكون وفقاً لحالته الراهنة الواقعة كما هي لعبته فالخلاص هنا يكمن وفقَ حالته الراهنة الواقعة كما هي فالخلاص هنا يكمن في مراعاة الشرط الواقعي أي في البقاء على ما نحن عليه وهنا مواء القطة كان يمثل فتيل القنبلة بالنسبة لهذه المسرحية وإلا ما كان الكاتب ليقف في النهاية مشدوهاً إلا وأنه قد جعل من مواء القطة مفتاحاً إنسانياً. على العموم ففي المسرح يعاني السجان والمسجون، الظالم والمظلوم، القاتل والمقتول، المستغِل والمستغَل، وهذا حال البشرية منذ ما قبل الثورات وما قبل الولادة وما قبل كتابة التاريخ واكتشاف اللغات.. يكشف الكاتب راهيم حساوي.. أبعاد المأساة البشرية.. وفقاً لحركة الشخصية.. التي ترسم الامتداد نحو اللامتناهي.. فهو لا يعالج قضية ما.. تخصّ الشيء الأقرب وليست المأساة في نظره هو الفقر بل بما يعكس العالم الآخر الذي يمهد الكاتب إلى اكتشافه من وراء الشخصية. سيد المتجر لا يهمه إلا مجيء تلك الأرملة العوراء التي تفكر بتربية جيل آتٍ ربما يستطيع أن يتغلب على حجارة البؤس ويدفع صخرة العوز هذا ما ينبئ عن مستقبل ما سيدفع من عقبات الحاضر وبؤسه، أما صاحب المتجر فهو الشخص الذي تلازمه نوبات الغضب حيث راح يتساءل بطريقة مريبة عن الفلفل الحاد و المسؤول عن زرعه في رأسه. السيدة العانس والمقابل لها ابن القمل كلاهما يمثل تناقضا من ناحية، وتناغماً ينبع من الحاجة في نواح عدة، فالتفاوت الطبقي البيولوجي واضح

بين امرأة تعتبر نفسها الأكثر تعاسة.. وبين رجل نتن يعج رأسه بالقمل.. والتناغم هو في عموم المأساة المشتركة التي تربط بين هاتين الشخصيتين المحوريتين غير القابلتين للحل في معادلة هذه الحياة فالشخصيات في النص تشهد تصالحا حينا وتنافرا حينا آخر، وما بين هاتين الحالتين خيط رفيع يعبر عن حدود هذه المأساة فهي جزء من صياغة كلية يعتمدها الكاتب في بث قيم هذا الزخم التنويري في رؤية الكاتب الجديدة للحياة وفقا لمدلولات المسرح من وجهة معرفية فلسفية قائمة على نقد الحياة فهو يلتمس حدود المسألة والمواءمة والسلام البشري أي ذلك السلم الذي يعكس المتناقضات ضمن حركة أكثر سلمية وهدوءاً، بمعنى أن ما يجمع كل هذا التضاد هو الجمال الذي يختبئ داخل القبح الهائل المتواجد في سيل من التساؤلات فالكره البشري الذي ينوه له الكاتب عدة مرات في شخصية صاحب المتجر، وفي مكر وحيل تلك الأرملة العوراء واستياء وتذمر وتعاسة السيدة العانس وكرهها لتلك الأرملة.. الكراهية البشرية هنا مشار إليها بصورة احتجاج عفوي وليس مجرد تسجيل لها.. فعلى ماذا يعثر الكاتب وما الذي أضاعه، قد لا يكون السؤال على هذا النحو صحيحاً؟ إلا أن التصويب في هذه الحالة مرهون بمدى ما تقدمه الشخصيات من إحالات و تداعيات وإسقاطات فالجنون يمتد لمكامن الحقيقة ويتحرى عنها من أجل ترسيخ مفهوم التضاد في عالم الرجال والنساء وفقا لمنهجية تعتمد الرصد والتكثيف والتشويق والكآبة المنبثقة بمظاهر بزوغ الأمل في الخروج من متاهة الظلام المطبق، هنالك محاولات خروج يبديها ابن القمل و ابن القبو للابتعاد عن هذا الواقع من الاستبداد المكاني والزماني والإنساني برمته والكاتب جسّد ببراعة محاولات الخلاص والخروج وهنا تكمن العبرة دون معرفة أو إدراك النتيجة فلا عبرة بالنتائج حيث يستكمل ابنا القبو والقمل أغنية الأعداد بمعنى أن السنوات تمضي وتمضي بانتظار أن تموء القطة وهكذا، كل زاوية من زوايا هذا النص لا تفتعل البساطة بل تفكك الدهشة البصرية إلى حركية الصورة "كرسي خشبي بأربع أرجل، إحدى هذه الأرجل مكسورة تسبب عدم اتزان الكرسي" عدم الاتزان هو بمثابة جوهر اللعبة التي بدأت تتضخم دون أن تنكمش ضمن

الحركة، والحيز المكاني البساطة ضمن هذا التصوير يمثل التكامل في عملية خلق مفاهيم الجودة والصياغة المتينة التي تتجلى في النص المسرحي المتكامل أيضاً، فالكاتب يعتمد منطق السخرية والتهكم في معالجة الوصف الجسدي في شخصياته عموماً مثل تناوله لوصف شخصية سيد المتجر.. رصد الحالة النفسية والجسدية تمثل مفاتيح هامة في عملية التحاور فمستوى النص جدير بأن يحمل طاقات شعورية على قدر هائل من المسؤولية التي توغل في متاهة العبارات، تذمر صاحب المتجر له أيضاً عدة تفاسير حين يبدأ في عرض العالم وفقاً لحالته الانفعالية العميقة الدلالة " أكاد أقسم أن هذا العالم قد أوشك على النهاية، سيول، فيضانات، رعود بروق، كل شيء يشير إلى ذلك" وهذه حالة الكاتب بالضرورة فهو شديد التنويه للأشياء التي ستحدث " ربما أشار إلى عنصر التنبؤ الذي يقوي من عنصر اللحظة لحظة بداية النص بتوتر وجنون وقد أدرك الكاتب بقدرته الفنية على اختراق الحالة من بداية النص، نلاحظ تماماً أن الانفعال هو إدراك للنقص.. وتذمر من المكان، إذاً هو ليس تعبيرا غريزياً محضاً.. ومن هنا فالكاتب يعتمد على مسألة الجودة في رصد ماهية الاحتجاج حيث يجرد الكاتب شخصياته من مستوى العفوية والابتذال إلى مستوى إبداعي أكثر شكاً وإحساسا بعمق الحالة، هنالك صيغ مفعمة بالإدهاش والتشويق وغرض ذلك إخبارنا بمغزى الألم الموجود في جنبات الحوار الاحتجاجي المتوتر بتصاعد بين صاحب المتجر وابن القبو"، العلاقة الذكورية بين الاثنين قائمة على التذمر والسخرية ابن القبو يقوم بضخ شحنات البساطة والرأفة والإشفاق والشحوب وسيد المتجر مفعم بالاحتجاج والشتيمة والحنق، كلاهما يحمل فلسفة متناقضة تماما وكاريزما متنافرة فوق العادة مما يستحيل حتى إتمام العملية المقارنة بينهما على نحو هادئ. الحالة العبثية بين الشخصيتين يتخللها التساؤل بين لحظة وأخرى، علامات الاستغراب، التأمل تصاحب انفعالات سيد المتجر لحظة علمه بالكسيح الحافي ففي الصفحة 128:

ابن القبو: "واحد منهم كسيح يا سيدي لا يحتاج الى الحذاء"..

سيد المتجر: ومن قال لك؟

ابن القبو: "هي قالت لك ذلك حين كنتما معا في الغرفة، صوتها كان عالياً تسلل من ثقب باب غرفتك هذه إلى صمت القبو وظلمته"

نلاحظ مدى علاقة الصوت بالقبو نظراً لمأساة الأرملة وتجسيداً حياً لهول هذا الألم وفقا لتقابلية المشهد الذي يبعث على البكاء، الصوت الذي يخترق ظلمه القبو دلالة على عظمة المأساة إذاً فتعامل الكاتب هنا مع الأجساد الطبيعية التي عوقبت طبيعياً دون مسببات بشرية فالألم هنا طبيعي ظاهره يدعو إلى تقبل هذه الرؤيا الحتمية لحدث طبيعي، ابن القبو يمثل هنا قوة في إبراز المحتوى بينما سيد المتجر شخصيته تعتبر أداة أو وسيلة عرض وتجسيد لا أكثر بينما تعطى الأفضلية والجوهر لابن القبو وعفوية ما يرى وما يتكلمه دليل على سموه المضاعف المرهف والعارف بنبل مغزى الحياة، سيد المتجر يمثل بقمعيته (بنرجسيته) سلم القبح فالإشعاع والنور هما مركز القبو نظرا لملازمته لابن القبو ظلام القبو يمثل ظلام سيد المتجر وفظاظته وماضيه الفظيع بالاستبداد الكاتب لديه قدرة على اختراق المألوف من خلال تفعيل الإحساس بالبساطة والعمق لديه الذاكرة التي تقوده إلى بيان عيوب البشر وسقطاتهم على مسرح الحياة الطابع الذي يوحد الحوار برغم اختلافاته هو طابع العدمية والقبح المليء بالنقص، وبالنهاية فالشخصية بحد ذاتها قبو يضم العديد من الأسرار والألغاز واللعبة هنا تبدو واضحة للعيان، القبو يعني الذاكرة التي تحمل كل أعباء الإنسان والظلام هو الكون الذي أوشك على الانهيار والفناء، وكأننا أمام النهاية، التي تقضي إلى الزوال هذا كل ما تلخصه الدهشة ويدله الاستياء والملاذ في نظر الكاتب يكمن في جمالية الخلق بمعنى أنّ الكاتب يوجد هذا الترابط وهذا الانسجام بين شخصياته والذي يمثل انتصارا على هذا الانهدام الطبيعي والإشعاع الزائف يضفي الكاتب على شخصياته طابع الحياة التي تختزل قيم النقص والشعور بالحاجة وهي بوابة لسبر أغوار المأساة بجوانبها المنعكسة على الكون، العين الوحيدة للأرملة العوراء ترصد البشاعة في شخصية سيد المتجر وماضيه العكر. المكر يبدو هنا سلاحا قويا وعادلا. الأرملة العوراء تضج بفتنة العقل فهي تحرض النبرة القوية على

الاسترسال والتكلم بما لم يبح به سيد المتجر فهي توقن بدهائها مرضية البشر المتقوقعين في قبو مظاهرهم فهي تلتقط ببراعة خيوط المأساة الكامنة في فوضى هذا البؤس الخارجي، ابن القمل هو بمثابة العنصر الأكثر حركية وانبساطا فهو يكتظ بفوضى المشاعر يوزع البسمات بمحبة طفولية على كل ما يحيطه.. ويناسب خدمته تلك السيدة العانس.. التي ما تزال تنتظر.. فالانتظار هو رصد حالة إنسانية مليئة بالعجز والقنوط واليأس مع بريق أمل في عودة المنتظر.. القبو هو المكان الأنسب لصرخة الاحتجاج، الزوايا النائية تعكس ظلمة النفس الإنسانية التي يراودها هاجس الانقلاب على الذات الجامدة المتصحرة وهنا في شخصية السيدة العانس نشعر بامتداد بذور الانفصام والتوحد بأروقة الفناء الذي يشعل هاجس الهذيان المستمر نظرا لعدم الإشباع العاطفي في شخصيتها الطامحة للثنائية الدافئة فنلاحظ أن الشخصيات لها طابع الكساح أي عدم القدرة على التغير فالعالم هنا في مسرحية السيدة العانس محكوم بحتمية طبيعية لا يستطيع أحد الانفلات منها.. فالكسيح هو مرضية تصاحب كل الشخصيات التي يعالجها الكاتب على طريقته ولعل المرضية البارزة أكثر تكمن في طبيعة المرأة العانس.. تذمرها تجاه الأرملة العوراء، حبها لصاحب المتجر.. عقلها المليء بالشكوك والهواجس مشاعرها التي غاصت في الإدمان بتفاصيل المكان إذا فالقلق.. مشوار مستمر في شخصية هذه السيدة العانس التي تختزن حقيقة المأساة بترقبها.. بحبها للاعتدال في جلستها وانغماسها بوسادة الحلم لذلك الطيف الذي تترقبه، ما هي طبيعة الصراع بين السيدة العانس والأرملة العوراء !؟ بلا شك فهو ليس صراعا نسويا نتج عن الغيرة وحب التنافس، بل يتضمن عدة معانٍ فهي مصابة بنقص الحب من جانب الرجل الحب بصورته المتكاملة وتفتقد إلى الأمومة فهواجسها تبعث على القلق إزاء المستقبل نظراً لبشاعة الحاضر الذي يتضمن عقد النقص والاستياء والتوهم فقد كان نقله لهذه الحالات تسجيليا والاحتجاج جاء مجسداً على خلفية شخصية ابن القمل النرجسية الموجودة في قلب تلك السيدة العانس تعادل حالة الإشفاق على خادمها ابن القمل فهي تتخيله وعادة الخيال

يولد شحنات ابتكار مضاعفة فقد تشير شخصيتها إلى عقدة أوديب التي ذكرها الفيلسوف سيغموند فرويد حين صنف المرأة إلى أربعة أصناف الطفلة، المراهقة، المنافسة العاقلة والسيدة العانس تنتمي إلى المرأة الطفلة التي تنظر إلى الأشياء بطفولة واستحياء أحيانا والى نرجسية رقيقة تنم عن طبع الإحساس المرهف والنقاء العفوي هنا علاقة السيدة العانس مع الذاكرة هي علاقة اصطفاء وتخيل كامل وتمثيل حركي كتعبير عن عنوسة راقية لا تكترث لهذا القهر وتتعامل مع الأشياء المسلمة كما هي.. فعلاقتها بزوجها وبالآخر هي علاقة مع الذاكرة التي تتحدى بها نفسها والآخر. الذي تراه ندا في الغالب ولكن التخيل الذي تعتمده السيدة العانس تخيل فضفاض فهي ترى في ابن القمل رجلاً وحيناً امرأة متمثلة بالخادمة.. هناك روح مسترجلة في شخصيتها التي تميل إلى الانفعال والتقزز والاحتقار والكراهية والتذمر.. كل هذه الحالات تتواجد مع الأنثى العانس في واقعنا المجرد المرأة التي لم تشبع جوانب الحاجة في أنوثتها حس الرجولة كامن في روح السيدة العانس.. فهي سادية مع نفسها مقارنة مع مازوشية ابن القمل لهثه لطاعة السيدة العانس حبه لها لقد كشف لنا الكاتب راهيم حساوي سلسلة نوازع وسلوكيات وأمراض وتساؤلات ودهشة تسيطر على جو النص المسرحي من البداية حيث لم تفتر هذه الحيوية وهذه الحركية في الشخصيات.. هذه المرأة المشوهة بمجمل أنوثتها تخلق مشكلة لدى الكاتب.. ثغرة تساؤل تلك السادية نابعة من جوهر الأسى في داخل وعوالم السيدة العانس. النرجسية والتطرف قاداها بالتدريج إلى الجنون والتشويه وقد جسد لنا الكاتب أبعاد هذه التعاسة وذروتها.. فهذه المرأة جسدت النص بكامله من قبح وشذوذ واستكانة وثورة وجمال، إذاً فابن القمل يجسد العصابية في عدم احتجاجه على واقعه الذي يغدو عبئاً مستمراً يوقفه عن التفكير اليأس دخل ضالته القصوى.. واقع يستحيل دفعه. ففي الصفحة 141:

- ابن القمل: (محدثاً نفسه) القبو! القبو! في هذا المنزل يوجد قبو وليس بوسعي أن امتلك أية شجاعة لدخوله سيدتي ستغضب مني لو فعلت

ذلك، آه لو استطيع الدخول إليه، لأصبحت مثل صديقي ابن القبو، لكن ليس بوسعي أن أخلع قفل باب القبو، وقبل ذلك، ليس بوسعي أن أخلع قفل باب صدري أنا جبان، أنا جبان، أريد أن أفعل شيئاً يكسر كل أقفال الأبواب الموصدة لكن القمل الذي برأسي يمنعني عن التفكير، نعم القمل يمنعني من التفكير..

إذاً فالمأساة التي راح ابن القمل يعبر عنها كامنة فيه بحتمية فهو كائن لا يستطيع الانفكاك عن واقعه وإحباطه فهو لا يمكنه أن يجابه سادية تلك المرأة العانس التي تحاصرها العقد فهي تعاني الذاكرة من جراء إحساسها بعاهات مؤلمة تحاول من خلال غشاء الغرور أن تستمد القوة والطموح كما نرى في الصفحة 146:

السيدة العانس:

كفى، كفى انتهى الأمر هن الجميلات هكذا، لا يرحمن أحداً، ولا يمكن أن يكون الجمال جمالاً، ما لم يكن له ضحاياه، هيا اتبعيني يا خليلتي، ولا تنسي أن تحضري الباروكة التي على الطاولة.

كل ذلك يجسد بؤس الحالة مما يجعل هذا النص في إطار نفسي مليء بالعقد وحالات الإرهاق التي شكلت علامات تساؤل في شخصية السيدة العانس، وقد جسدت رغبة ابن القبو وابن القمل في بقائهما في القبو ورفضهما الخروج علامة شعور بالخلاص من مسببات الألم.. و الانعتاق من قيود المجتمع من خلال محاكاة طبيعة المكان والظلام ومواء القطة.. كحالة للهرب من ظلم البشر ونفاقهم كسعي الرومانسيين إلى تمجيد الطبيعة والألم إذاً فالكاتب يربط الواقع الإنساني بعمومياته، أبعاده وأفكاره وشتى بعثرات الكون والأحلام لأجل صياغة انموذج مسرحي حي وجديد، نص يخلص المسرح الراهن من إرهاصاته ونمطيته كي يذهب إلى العمق في سبر أغوار الإنسان ونقل حصيلة تجاربه إلى الضوء، مسرح يحاول أن ينجب المتلقي كما ينبغي له أن يكون، ذلك المتلقي المفعم بماهية الحس الذي يحلو بتواضعه على التحنيط البشري..

مسرحية الرخام: (صدر عن الهيئة العربية للمسرح)

الرخام هو الأرضية الأكثر تجسيداً للتعقيد المنتظم في دائرة هذا الكون، الأرصفة، الجدران، القبور، الشوارع والأبراج كلها أماكن قابلة للرصف والتبعثر وهذا ما يفيد في هذا النص الذي يشعرنا بالتقزز من الرخام ومن قدرته على اختراق هدوء النفس وإشعارنا أن في هذا الكون أشياء لا يمكن استنباط الممكن عنها بسهولة، الشيء الذي جعل شخوص المسرح يهتزون دفعة واحدة فسرعان ما تتبعثر الطقوس الهادئة في خيوط هذا النص المبهم الواضح، المتناقض والمتناغم في آنٍ معاً وسرعان ما تعود الطقوس للانكماش مجدداً وهنا تكمن الفنية في المسرح في تقديم العمق بطرائق مألوفة وإدراجها في مساحة التأمل ولا سيما أن المتلقي طرف ثانوي لا مرئي على ساحة النص وهو حاضر بقوة في الصمت الذي يتخلل كل حوار، تكمن الفنية أيضاً في تشابك الخيوط حول عقدة واحدة وتعقدها ومن ثم انتثار حبات العقد وتراصفها على هيئة مبعثرة على مساحة الشعور ضمن إيقاعية توحي إلى الغرابة، تهدف إلى تحسين الصور الساقطة وتركيب أقنعة أكثر تجدداً وصفاء، اقتراباً من المألوف الظاهر وابتعاداً عن الخداع الذي يراود الأقنعة الظاهرة، في حالة الشخصيات التي نتأملها «في صالون منزل ذي أثاث قليل ومهمل» إشارة إلى مرحلة الكهولة من منحى معتم، فوضعية المكان تشير إلى الحالة النفسية المنعكسة على رتابة النفس لسائر الشخصيات المشار إليها بالبساطة والسخرية والتذمر وهذا ينحو بالنهاية إلى الشحوب والفناء من خلال الاصفرار الذي يغزو البياض انتصاراً للعتمة الداخلية، حيث تبدأ المسرحية في منزل الزوج والزوجة، يكون الجدل فيما بينهما دائراً ومتصاعداً شيئاً فشيئاً لكونهما منشغلين في حفظ عدد وشكل الرخام فيما بينهما دون أن يُطلب منهما هذا العمل الشاق ومع مرور أحداث المسرحية نلاحظ أن جميع شخوص المسرحية مطالبون بإنجاز هذا العمل وبخاصة الزوجين من خلال مخطط وضعاه لأجل حفظ الرخام في أرصفة المنزل حفظاً دقيقاً مع الحفاظ على سرية الأمر، تدخل الجارة

عليهما وهنا كلٌّ منهما الجارة من ناحية والزوجان من ناحية أخرى لا يظهرون ما يعتريهم من تعب وجهد وهنا تقوم الجارة بطلب قصاصة الأظافر وهي تخبرهما فيما بعد بضرورة الذهاب للبيت المجاور لأن ضيفتها ستأتيها حسب موعد مسبق بينها وبين الزائرة إلا أن الزوجين يصران على بقائها بحجة البحث عن قصاصة الأظافر، واللغة عموماً في هذه المسرحية ذات حساسية عالية، حيث تبدو أحداث المسرحية في منتهى الغرابة والقوة الدرامية المتجسدة في المشهد الأخير، مشهد قص الأظافر لكل من الزوجة والجارة والزائرة ووضع أصابعهم على الطاولة وقد أصبح شكلهم كالدمى.. فكما نلاحظ:

-الزوجة: ترهة واحدة خيرٌ من ترهتين أو أكثر، والترهة الواحدة ليست قادرة على قتل إنسان

أنا أوقر روح جدتي لأنها ماتت ولم يكن في وعاء سنواتها سوى ترهة يتيمة وأنا مؤمنة أنها ليست ترهة وأنت اعتبرتها ترهة

ترى؟ ماعلاقة الترهة بالعدد إن كان التفضيل بينها عددياً وليس بمضمون الترهة قياساً وليس كيفاً، العدد هنا يتراوح بين الترهة الواحدة وربما يتعدى اثنين وبذلك تؤمن الزوجة بمحدودية الخطأ وبالتالي فكثرة الترهات تجعل الإنسان أكثر انطواء وابتعاداً عن المعقول والمعتدل وبهذا فمسرح الحياة هو استجابة لعقدة نقص مثلى تراود الفرد الواحد وعندها تتلخص حياته عبر أطوارها وهو إشارة إلى خلل غير طبيعي في الطبيعة البشرية التي لايمكن أن تتطور إلا إذا اكتفت بالخلل الطبيعي واعتبرته عائقاً مثالياً ينبغي التخلص منه دون الانشغال بترهات أخرى ومسألة عدم الإيمان هي إشكالية يقف عندها البشر وفقاً لآلية حق الاختلاف من أجل الاحتفاء بموزاييك التناقض الجميل وليس من أجل الاحتقان والوصول للخلاف الذي ينتج العنف والقسوة المبتدعة كوسيلة تقويض لانتماءات الآخرين، ترى ما علاقة الإيمان بالحقائق، إيجاد الجواب لهذا السؤال ليس هيناً فالإيمان هو نقطة استناد لمعرفة الحقيقة العملية إثر المحاولات الجادة التي تكسر العوائق المستعصية لمعرفة الآخر ومن ثم مدلول الشيء

الذي نبحث عنه، هذا ماحاولت الزوجة بيانه للزوج الساخر، تنافر مزاجية كلا الشخصيتين هما بطبيعة الحال يمثلان وضعية الباحث عن البديل والحل لعقد متنوعة وأحياناً وفق مزاجية الساخر فإنه يوحي بوجود خلل كامن وراء الخلل الظاهر ومن هنا تنجم السخرية على مبدأ لا يمكن للأشياء أن تؤول بمثل هذه السهولة والبساطة، من هنا يدعو الكاتب إلى إيجاد بنية جديدة لعلاقة أكثر مسالمة وتوازن على مستوى القيم بين البشر بعلائق متوازنة مبدؤها الألفة والانسجام، فالرخام هو ذلك القيد الذي لابد من كسره على صعيد الحياة المشتركة وهنا نرى:

- الزوجة: (تتحرك) أربع درجات على مدخل البناء، أربعون درجة حتى الباب، ست رخامات عرضاً، وتسع رخامات طولاً، هذا هو الممر، ثلاثون رخامة طولاً هذا هو الصالون، أما عدا ذلك فلا أعرف لأنه لم يسبق لي أن دخلت إحدى غرفها
- الزوج: (يتحرك)مدخل من؟ وممر من؟ وصالون من؟ عم تتحدثين يا مرأة؟
- الزوجة: جارتنا التي في البناء المجاور
- الزوج: ألم أقل لك ألف مرة ألا تفتحي على نفسك أبواباً نحن بغنى عنها

التورط في هذا الكون الهائل وفقاً لسعي الزوجة لإدراك الآخر وتحذير الزوج لها من مغبة الانشغال بالآخرين وبالرخام المجاور هو بمثابة حل وسط لمعضلات الحياة، حيث أن الرخام هو بمثابة اللعبة الحتمية التي يمارسها الإنسان على ساحة البصر والرؤية والإدراك وحتى العجز على استنباط الحلول أو أنصاف الحلول لنرى هنا:

-الزوج: (يختلس نظرة إليها) الشيخوخة (يعاود النظر إلى الأعلى وهو يتمتم)

-الزوجة: الشيخوخة التي تسبق الموت، سمعت ذلك من جدتي حين قالت لأمي إن الشيخوخة تسبق الموت، كنت صغيرة حينها

إن مجرد التفكير بمسألة الأعداد في هذا النص المسرحي إشكالية معقدة تتمخض عنها حوارات وإسهابات عميقة شكلت هواجس وعقداً لدى البشر منذ أن وطئوا الحياة، إن ما يبعث على هذه الحيرة هو أن حسابات الحياة لا تنتهي لدى الإنسان وهو محكوم بها، نرى الكاتب يركز على ذلك من منحى إبراز العبث والاحتجاج العبثي عليه من باب الإغراق في التركيز على تعقيد في مستوى الفكر وليس من ناحية تكرار العبارات وتنافرها فهنا نرى:

-الزوج: عشر رخامات طولاً، خمس رخامات عرضاً، إحدى هذه الرخامات متسخة بشيء لا يزول.

هنا نلاحظ مقدرة الكاتب على ربط الأشياء وفق شعور الإنسان بالتقزز من الاتساخ ورغبته في دفع الأشياء باتجاه التنظيم والتناسق والصفاء وهذا حال البشرية منذ سعيها إلى التعايش بناءً على التنظيم الذي ينسق عمل المجموعات المنتجة، مسألة الدقة التي جسدها الكاتب هي حالة الإنسان ومرضيته تجاه أشياء لا يمكن أن تكون جزافاً على حالها، الدقة هو تعبير عن السخط تجاه هذا التراكم بالأعداد أعداد الرخام ومستوى شكلها وحجمها، لنلاحظ أيضاً هذا العراك المعقد بين الزوج والزوجة:

- الزوج: (يفكر) إنها، إنها، إنها الرخامة الرابعة طولاً والثالثة عرضاً
- الزوجة: (تتذكر) نعم هي الثالثة عرضاً، ولكنها ليست الرابعة طولاً
- الزوج: أقول الرابعة يا مرأة
- الزوجة: بل هي (تعتصر ذاكرتها) هي هي السابعة طولاً

الأمر الملفت في سياق النص مدى علاقة وإخلاص كل من الزوج والزوجة لمسألة الدقة وهاجس التوغل في تفاصيل أعداد الرخام وهيئتها، نلاحظ أنهما محكومان وبشدة في أن يحفظا وبجهد عفوي وآلي هذه الأشياء، لأن منظور كل منهما قائم على إشكالية كونية فلسفية لا يمكن التنصل منها وهي كيفية أخذ الاستنتاجات والنتائج من حالات لايمكن أن تستقر وتهدأ بالنسبة لأمزجتهما التي انهمكت في هذه الديناميكية من التفكير، فالمسرح هو سجال الرخام بامتياز، نلاحظ مدى قدرة الكاتب على الاستفادة من

تقنيات الحوار بتكثيفه وتعقيده، تشويقه وإثارته رغم الأعداد التي تربك القارئ وتجعله ملزماً أيضاً في تتبع أعداد الرخام وهيئتها وهذا ما يدهش بل ما يحير في هذا النص، قدرة الكاتب على إحداث الارتباك ليس على مستوى الشخوص بل على مستوى القراءة والتلقي حقيقة الرخام كما الموت هو ظاهرة تختزل ظواهر الكون ومساراته المخبوءة، الانهماك البشري في الحياة سعياً إلى الكمال أمرٌ ظاهر، رغبة الإنسان في البحث عن الخلود كان سعياً لمعرفة المزيد من المبهم والغامض في هذه الحياة وهذا ما يجسده الكاتب أيضاً، الحوار في هذه المسرحية يميل إلى الجدل والتصعيد وتارة إلى الهدوء، إشارة إلى الانفعال الإنساني على مستوى التحاور وهنا نلاحظ:

- الزوج: (يغمض عينيه) خمس عشرة رخامة عرضاً، عشرون رخامة طولاً، رخامة مكسورة إحدى زواياها
- الزوجة: (وهي تمعن في الأرضية) عدنا لذات الأمر، عليك أن تحدد الزاوية المكسورة
- الزوج: من جهة الرخامة المتشققة من المنتصف.

تحديد الرخامة المتشققة هو بمثابة الرغبة لمعرفة المشكلة والخلل والأزمة تتعقد نتيجة هذا الإلحاح المستمر، وبالتالي فالانهماك في هذه الحالة هو بمثابة تصميم وانتصار على العجز الذي يطال العقل الإنساني ورؤيته لفهم الحياة بمنطق الحب والمهارة الإنسانية في البحث عن الصفاء الكامل، كثرة التفكير يجعل الإنسان مابين الحكمة والجنون والانفعال لقربه من الحل وتوتره نتيجة عدم القدرة على قبض الحل كاملاً وهذا هاجس يبعث على الكآبة والقلق وهو سرٌ من أسرار هذا الوجود الهائل المتخم بالأحاجيج والألغاز على مستوى إدراك العالم والظواهر وحتى على مستوى العلائق بين البشر، ومن هنا يمكن القول أن تجربة الكاتب راهيم حساوي في خضم المسرح تعتمد الإثارة الفنية والفكرية لقضايا الإنسان ومشكلاته الجوهرية إزاء العبث وإنما ارتقاء الإنسان ونشوءه كان حدثاً منتظماً باتجاه

الفناء، فهو في (الرخام) يعتمد الحديث عن الإنسان في مراحله الأخيرة ولعله قد أشار في مسرحيته (السيدة العانس) إلى الفصل الأخير من حياة البشر كون الإنسان لا يعيش ويستشف إلا المشهد الأخير المتبقي من حياته لذا فالشخصيات التي سعى الكاتب للظهور على خلفياتها كانت فوق الخمسين وأقل من السبعين من العمر، هذه المرحلة الأكثر إحساساً بالفناء في حياة الإنسان لنلاحظ هنا:

- الزوجة: (وهي تسكب الشاي) أأسكب لك كوباً أم أنك تفضله بارداً؟
- الزوج: (يتمتم ورأسه للأعلى) اهدئي يا مرأة
(صمت قصير)

يشير الكاتب هنا إلى نمط التعايش بين الزوج والزوجة من خلال نقل احتجاجه على القيم النمطية المألوفة من خلال تفكير الزوج وانشغاله بما يدور فوق، أي في مدركات التأمل الباطنية التي يكون فيها الرجل أقدر على تفهمها وقد أدركت سيمون دي بوفوار هذه العلاقة في حديثها عن الفوارق بين الرجل والمرأة وانحيازها إلى الرجل في حسن فهمه للحياة وإبداعه الملفت للنظر بعكس المرأة التي تنحصر وظيفتها على الإنجاب والنسل والتربية، الكاتب راهيم حساوي يرصد لنا عزم الزوج على مواصلة التأمل نحو الأعلى حيث الصفاء والود والهدوء الذي تقاطعه الزوجة بإبداء الخوف وكثرة الحركة وهي آلية دفاعية أنثوية تجعل المرأة في مرحلة ما بعد سن اليأس أكثر خوفاً وكأنها تنتظر الموت، حيث يقول إبراهيم الكوني: (انتظار الموت هو الموت بعينه) فالبعد النفسي لشخصية الزوجة أكثر تطرفاً إزاء أوهام المرحلة، مرحلة الكهولة التي هي انعكاس لمرحلة نهاية العالم استشعاراً لمرحلة بداية النهاية في جسها لنبض الكائنات التي تستشعر الخطر القادم لنرى هنا:

«يتجهان إلى الممر الذي وراء باب البيت، يعلو صوتهما حول تحديد مكان الرخامة المتسخة ثم ينخفض صوتهما قليلاً ثم يعودان»

- الزوج: كلانا على صواب

- الزوجة: سوء تفاهم لا أكثر
- الزوج: (يجلس) نعم هو سوء تفاهم، ولكن أخشى أن لا يكون بسيطاً

فعملية سوء التفاهم هي بمثابة التأكيد على تشابه الحقائق وتقابلها وأيضاً على نسبيتها وعدم انتظامها فالإشكالية تتلخص بمدى الكذب والنفاق الداخلي الذي يتخذه البشر ستاراً لتحقيق أفكارهم الوهمية، النهاية لدى الكاتب مجسدة من خلال آثار البقع التي على الرخام وما الأرقام وأعداد الرخام بطولها وعرضها إلا مؤشرات وهمية واستحقاقات أولية من مسيرة البشرية نحو النشوء والارتقاء كماً ونوعاًالذكريات والأحلام، الأساطير، اللغات، التاريخ وبركان النفس البشرية المحتدمة بالأهواء النزعات والغرائز، كل هذا مطروح من ناحية اللاشعور الجمعي الذي يجسده الكاتب على طريقته من خلال شخصية الزوج والزوجة، الجارة التي تحتل صدارة الإثارة على مستوى تحريك الشخصيتين والزائرة التي تحاول استثارة الجارة ومن ثم تحريكها بطريقة أكثر رعباً وإغواء، الرخام يترك عدة أورام نفسية تستقر في جملة الخلايا العصبية والروحية لدى البشر، ففوضى المسرح انعكاس لأزمات الإنسان والتماس لحلول أكثر اتساعاً ورحابة، لنرى أيضاً هنا:

- الجارة: هيا هيا، لا تكوني كالعاهرة التي تبخل على الرجل بلحظة صدق.
- الزائرة: (بغضب) أنت العاهرة بعينها.
- الجارة: (تضحك) أنا عاهرة، أنا عاهرة، يالهذه التهمة.
- الزائرة: نعم، وتركت ذاك المكان بسبب الرخام، ورحت تبكين أمام القواد، وتذرفين الدموع بسبب عجزك أمام رخام الفندق الرديء الذي كنت تعملين به، كان ذلك حين جلست في تلك الحجرة القذرة ذات الرخام المكسَّر، تنتظرين الزبون الذي لم يأتِ وبقيت تحملقين في رخام الحجرة حتى الصباح، أليس كذلك.

ينقل لنا الكاتب فوضى الرخام من زاوية أكثر حساسية وتشعباً فهو

يتحدث عن غياب الفضيلة حين يبدأ حلول الرخام في ذات الإنسان وضميره وبذلك يتحقق الموت بمعناه الواضح، ماعلاقة الحلم بمدى إمكانية البقاء على وجه البسيطة؟، ماعلاقة علم التحنيط بالمعضلة الحية هنا ينغمس الكاتب في إطار شخصية الزوج من عدة قضايا تتعلق بالكون، آلية التعايش فيه، إمكانية التعامل مع الحلم كوسيلة لمعرفة الذات والبعد عن الزيف في الأشياء المعقدة فنرى هنا:

- الزوجة: ماذا تقصد؟
- الزوج: أقصد أن الخرف قد نال منك، ولا وقت الآن للخرف الآن، لدينا ما يشغلنا، حين ننتهي خرَفي كما يحلو لك، واخترعي تصاميم للملابس، وألقي نكتاً أكثر بذاءة، وخذي شايك، وأنت في البانيو، أما أنا (حالماً) سأتفرغ حينها لدراسة علم التحنيط

إذاً فالحلم هو مفتاح الخلاص من هذه العقد بالإضافة إلى عدم الانشغال بالرخامات التي خارج المنزل، يتحدث الكاتب عن ظاهرة تتعلق بالمبتعدين عن الرخام والعقد التي يفرزها فنلاحظ هنا:

- الجارة: أمقت الكتَّاب لأنهم لم يكتبوا عن الرخام.
- الزائرة: وإن كتبوا فلن يفيدنا ذلك شيئاً، الرخام أكبر من أي كاتب مهما بلغ به الأمر من صفاء.

علاقة الصفاء بالكتابة هي علاقة هدوء مطلق وابتعاد عمّا هو خارج السيطرة وهنا يتجرأ الكاتب وقد استثنى نفسه عن الكتَّاب الذين يخافون التحدث عن ظاهرة نفسية تترافق مع حياة الإنسان، النهاية في هذا النص تمثل الانشغال بقصاصة الأظافر وقص الزوج لكل من أظافر الزوجة والجارة والزائرة هو بديل عن الرخام وهو بمثابة خلاص لعقدة لا بد من نهايتها وبذلك فهو تعبير عن الاستعاضة بقص الأظافر كبديل عن الرخام والتحنط في النهاية يمثل الخلاصة الحتمية المعلنة لحياة الإنسان الذي تمَّحي فيه الملامح، وبذلك فالكاتب راهيم حساوي يعكس تجربة فريدة في خضم المسرح فهو ينتهج مسار العبثيين ويستخلص من غمرة الأحداث مفاتيح

ورموز تقودنا إلى حقائق مليئة بالاستفهام وغاية الفن هو في التلميح بالجماليات والابتعاد عن ما يخدش قيم التساؤل لدى الباحث والمتلقي وقد اعتبر الكاتب الكتابة سبراً جلياً للعالم من خلال المسرح ولعل في تجربته نقاطاً جمة وأوجهاً متعددة بانتظار من ينقب عنها وباستمرار..

رواية (الشاهدات رأساً على عقب)

صدرت عن دار العين للنشر، مصر

الملاحظ في هذه الرواية بهو تسليط الكاتب الضوء حول أكثر المواقف والنقاط غياباً في حياتنا وحياة الأدباء أو الروائيين الذين يكتبون حول الإنساني المؤثر أكثر، أما الكاتب راهيم حساوي فقد بدأ من الشاهدات كحالة تستدعي الوقوف أكثر، كظاهرة تقديس الإنسان للميت وكتابة الزمان والتاريخ الذي مات فيه والأهم هو مدى تعدد دلالة الشاهدات والنقاط التي أثارها الكاتب في روايته ربما تتجاوز مسألة التقاء الأشخاص أو تنافرهم وابتعادهم عن بعضهم فمثلاً لنلحظ كيف ابتدأ الكاتب راهيم حساوي بالرواية هنا ص7: «إن للبول فلسفة وحكمة، والتبوّل عزاء الحزانى ونشوة السعداء، فكلما كنت أشعر بالحزن، أخرج للبعيد حيث العراء، فأجلس على تلك الصخرة المزروعة فوق مرتفع بسيط، وأبول حتى آخر قطرة، وأعود خفيفاً كأني تخلصت من بعض حزني»

نلحظ الحزن والكآبة ومظاهر التعبير بالتنفيس عنهما لحظة التبول، وإيجاد المناخات المتعددة التي راح الكاتب يعبرعنها عبر أجواء اللقاءات وتجسيد الأماكن، وكذلك التركيز حول أوصاف المكان وانعكاس ذلك على النفسية التي بدأت سرد الرواية من خلال صيغة المتكلم، التي راحت تطغى على الشخصيات أكثر من إتاحة الفرصة لها في طرح مشاكلها المتعددة مما نلمس ذاتية الكاتب الطاغية على الرواية أكثر من شخوص الرواية الذين هم أدوات بسيطة لنقل أفكار الكاتب إلى المتلقي، ونلحظ قدرة الكاتب على تجسيد المكان من خلال ابتداع التكثيف والترابط بين المكان والشخصيات، والعقدة المتمثلة بشخصية جابر المتلقية لكل الحوادث والظواهر والأصوات، والمسهبة في تجسيدها وكذلك بث الغرائبية التي يتحدث من خلالها الكاتب

بلسان جابر، وحواراته مع كل من منار ورشاد ومدرس الرياضيات، وتداول الحدث الذي يأخذ مسارات الحديث نحو تفسير أعقد المشاهد وأدقها لأجل التحايل على الزمن والذاكرة، بترابطية جميلة اعتمدها الكاتب بين الحدث وانعكاساته على النفسية، هنا مثلاً ص18:

«انتصف الليل فجأة وقمت إلى المطبخ لتحضير فنجان قهوة، وكان نباح الكلاب في الخارج يتشاجر مع الليل تارةً، ومع ذاته تارة أخرى، بينما كنت أنا أتشاجر مع ذاكرتي بخوف رهيب، ذاكرتي التي قام منار ببث الروح فيها ورفع شأنها من جديد»

ولاشك أن الحوار الداخلي كان قائماً على نحو مكثف في عموم الرواية، وبشكل متماسك ومتلاطم، ومتمازج بعضه ببعض، وأخذ شكل عدة قوالب محكمة ومتينة طغى عليها الحوار الخارجي بين الشخصيات، وكأن الكاتب من وراء ضمير المتكلم ومن خلال شخصية جابر يخرج في جولة نفسية سيكولوجية ليشخِّص تأثيرات المكان على الإنسان وما يعكسه الخارج من رواسب على الداخل عن حقيقة الإنسان المتورط بعقد لا متناهية وأورام داخلية واستياء من العبثية السائدة حيث يقول الكاتب هنا: «كل الأفعال تنتهي، ولا يبقى منها إلا ماهو مرهون باللغة، واللغة هي التي تعيد تأجيج تلك الأفعال التي انتهت، وفي كثير من الأحيان، أشعر أن اللغة هي التي تمهد لفعل جديد في ظاهره، ولكن حقيقة الأمر هو فعل لا وجود له في الأصل، وبهذا الشكل يستمر العالم في حركته البشرية».

العالم واللغة، حيث يشير الكاتب إلى مدى قدرة اللغة على ترغيبنا في التذكر والاستكشاف والتمعن بجودة الخيال والتعمق في الظواهر أكثر، وكذلك لبيان قدرة الأساليب النوعية على التمعن بفلسفة الحركة وزيادة تحريك كل ما هو جامد إلى هيئة عملية تقدم نتيجة الحركة ومدى تأثيرها على تنقلات الحياة الإنسانية، ولقد نقل لنا الكاتب أجواء وأماكن كان قد خبرها واقعاً وعاشها، وينقل لنا المتاعب وسهولة الانتقال والرؤية والاندماج المتقن بالتفاصيل المدوية التي تتأثر بها سلوكية المبدع وأماكن اللهو التي تشكل هاجساً جميلاً، فالرواية التي بين أيدينا الآن هي أقرب للسيرة الذاتية

وأدب المذكرات، ولعل دقة الوصف وانهماك الكاتب بمعضلات النفس وعللها، جعل الرواية طريقاً لاستكشاف الظواهر على علاتها وأثرها في تكوين الإنسان من مراحل النمو الأولى فنلحظ الإحساس الدقيق هنا برخامة الشاهدة حين يقول: ص25«كنت استمتع كثيراً حين أمرر إصبع السبابة داخل تلك الحروف المحفورة على شاهدتي القبر، وأنا مغمض العينين، كنت أحاول أن أسيطر على إصبع السبابة وأضبطه بدقة كي لا يخرج عن مسار حروف كل كلمة متصلة ببعضها، ولم أكن أعير أية أهمية لنقاط تلك الحروف، وكنت أفعل ذلك على معظم شاهدات الموتى ذات الحفر الأنيق والواضح، ولكن قبراً واحداً كان يصعب علي أكثر من غيره، بسبب كثرة حروفه، وكان أهل ذلك القبر يكثرون من الزيارات إليه، وقبل أن يذبل الورد الذي يضعونه عليه تكون باقة ورد جديدة قد وضعت عليه من جديد»

هذا الوصف الدقيق والأنيق الذي راح الكاتب يخوض فيه وضعنا أمام المكان مباشرة، وقد استطاع الكاتب أن يجعل اللغة مطواعة بين أنامله وروحه، إنه في حدث الموت وتبعاته على الشخصية ويتحدث عن عبثية النفس في سردها لحادث الموت، وكأن اللامبالاة غدت عنواناً هاماً ومركّزاً حين بدأ الشاب الذي في صالون الحلاقة يتحدث عن وفاة أبيه على نحو بارد ورتيب معبراً عن دهشة خافتة في التعبير عن حدث الموت والحديث عن الزواج وانشغاله بأحداث وتفاصيل الحياة طغى أكثر على مجرد حادث حدث وانتهى وهو حادث وفاة أبيه، مما يذكرنا برواية الغريب للكاتب العبثي -ألبير كامو- حينما وصف حالة الشخص الذي توفي من حوله أقاربه، وانصرف من مكان العزاء وراح ليضاجع عشيقته، والكاتب راهيم حساوي يعبر عن نزق الشخصيات الحية التي تعبر عن حدث الموت بكثير من الاستخفاف وتعبر أكثر عن صراع الرغبات المتأججة بروح الإنسان الحي، حيث لا يأبه بحادث موت أو فقدان احد، فالكاتب يعبر عن أشياء في متناولنا تبدو عادية بيد أنها أكثر جمالاً وفنية حين يستعرضها الكاتب بتفاصيلها، وعن حضور الإنسان مع الأشياء على الدوام، إنه يعمد إلى تفصيل الأحداث اليومية المتعلقة بشؤون البشر والحركة

ورحلة الإنسان البصير نحو الحياة الرحبة ومضيه أمام العديد من التساؤلات التي تخفى فيه الرهبة والرغبة معاً نحو حياة تنتهي بلحظة الموت فهو يصف الموت وملابساته في نفوس الأحياء حين يقومون بدفن موتاهم ليعبروا عن الموت أكثر بالبكاء واسترجاع حميمية العلاقة والتفاصيل والمواقف مع الميت قبل أن يموت، حيث نتأمل هذا المقتطف ونلاحظ هنا: ص35 «كانت تلك المرأة الهزيلة شديدة النزق وكانت تشتم كل من يحاول أن يعبث بحجارة قبر زوجها، وكأنها كانت تعرف تموضع كل حجر من الحجارة التي تعتلي تراب ذلك القبر، شاهدتها أكثر من مرة، وهي تمسح شاهدة القبر بطرف ثوبها وتبكي بحرقة»

ولقد تميزت الرواية بالقدرة البالغة على الإحساس بالحدث والمكان ومواكبة الأحاسيس البشرية لها وقدرة الكاتب على تحقيق الرواية المعاصرة التي تجمع بين التكثيف والتصوير والرمز والشفافية الشعرية ولعبة الحوار محققاً المقومات والخصائص التالية:

- قدرة الكاتب على احداث خلخلة في تجسيد الحدث وانتظام تعاظمه، والدخول في أنسجة الغرابة الممتزجة بجمالية رصد الحدث بجزئياته ومفاده بيان أن الموت أمر اعتيادي

- تحقيق الإيمان من كل ما يحدث وحدث وعقد فروقات نسبية بين الحدث القائم على البكاء وبطلان إيجاد الخلود الذي هو شعور زائف يتجلى زيفه بالبكاء والمرارة

- رؤية الكون ككل من كونه مسرح تصادمات تنم عن أحداث متعلقة بالظواهر واندفاعات الناس وما ينجم عن ذلك من إثارة وحذر وخوف ورغبة والشعور بعدم الاستقرار والانتظام، والتأكيد على ضرورة عدم العبث بكل شيء ظاهر أمامنا كون المفاجأة تحيط بالغد القادم دائماً

- الاستفادة القصوى من عامل الوقت، لإنجاز أكثر الأعمال الملحة في الذهن، وإعطاء جمالية الحياة من خلال اللهاث وراء الحلم من كون الإسراع وراء الغاية والانشغال بالصخب يبرر جمالية اللعب والفن القائمين في جوهر علاقة الإنسان بالموجودات

- شعور الكاتب بالتفاصيل وانغماسه بالحدث وبالقضية التي تراوده، واستخدامه للشخصيات ككل لإيجاد مخرج وسر عميق يرقد وراء الأحداث الأكثر انفصالاً بعضها عن بعض ولكن ذات الفكرة كانت رابطاً بينها..

إذاً فنحن أمام رواية غرائبية عبثية، استغنت عن مقومات الحكائية والقص التقليدي وبدأت تنشغل في البحث عن علاقة الأشياء وتقاطعها مع النفس البشرية تلك التي راح الكاتب راهيم حساوي يرتئي لاستخراج مغازي منها من خلا ل مشاهد متفككة وتحدث مراراً، في صالون الحلاقة، وفي بيت الأصدقاء ومرة في المطعم، إنها مشاهد متفرقة داخل رواية مبعثرة وتسودها الفوضى المنتظمة والحديث يطول وهنا لابد القول من أن رواية الشاهدات تعد من أكثر الروايات أثراً على النفس من كونها جسّدت لنا علاقة الإنسان بالوجود ورحلته نحو ما يبعث على البؤس والخوف من المفاجآت وكذلك إيجاد التصالح بين الإنسان وذاته والعالم،

وإيجاد بديل عن الاغتراب الهائل والغائر في العمق الإنساني من بث معاني الموت تلك الحقيقة الواضحة

حول نظرية "أدب المفتاح" المنشورة في مجلة الهلال

يشير الكاتب راهيم حساوي إلى قضية مستعصية في رمزية المفتاح، ليس في سياق المقابلات الحسية لحركة المفتاح والباب فحسب وإنما يشير إلى دلالة المفتاح كرمز شائك ومعقد، ليضعنا في مفترق ملتبس ومتشعب يقدم فيها الرمز كحل لمشكلة قديمة، دلالة المفتاح تقدم لنا سياقات شتى تتناول الأثر، حالة الداخل الذي يستشعر القلق والأنين المنبعث عن الباب، يشير هنا إلى الأعماق المسوّرة بأسرار مبهمة وعصية، ولعل البوابات كثيرة وجمة في واقعنا المتناقض المليء بالتفاسير والممزوج بالتساؤلات التي تبعث على اختلاف طرائقها وأشكالها عن مفتاح، لقد تناول الكاتب قضية المفتاح من خلال الإسهاب في عرض جوانب القشعريرة والاهتزاز الإنساني بدءاً من علاقة المفتاح بالباب وما يبعثه توغل المفتاح بالباب وما يرافقه من شعور بحالة الإصرار والحماسة لفتح الباب ودخوله في إطار الشعور بنشوة النصر

والخروج من المأزق، فدلالة المفتاح قائمة في طبيعة المعضلة الإنسانية التي تكابد مرارة الأشياء ووقوع الاختيار عليها، فتعبير الإيغال والعثور على حل يؤدي بالضرورة لخيارات متقابلة في الرؤية حول طبيعة الوجود و إشكال السبر الذي يصير به الإنسان سبل تعامله مع الشيء، ترادف ماهية السبل مشاعر العنت والعناد والإحساس بعدم مرور الأزمة، فالمفتاح هو الحل كنتيجة مبدئية، والحل يرافقه الإصرار والصبر من ثم الانفراج المفترض، وفي علاقة الصبر بالانفراج نستكشف الحل المعلن لمعضلة الباب من خلال حركة المفتاح، كون الإنسان يقاس على طول إحساسه بالارتباك برحلة المعاناة القائمة في تفاصيل حياته، كعلاقة الإنسان بالسيارة والمسير دون الوقوع بحادث وعلاقة الفقد أو ضياع شيء بماهية الحيرة والقلق اللذان يدفعان الإنسان إلى التماس طرق مناسبة لتجاربه مع الأشياء، و لعلاقة الالتباس بالمفتاح علاقة شك متمخضة عن الاحتكاك المتوتر الذي له علاقة حتمية بطبيعة الإنسان فهو يلتمس عقده من احتكاكه الشاذ مع الأشياء، للتخلص من عقد التسليم بالحقيقة المزعومة ومن ثم ليضاعف تأثيره وسيطرته على كامل مراكز إحساسه، وليعمق نظرته للوجود الذي بات يفرز مفاتيح عديدة يستخلصها الإنسان من تجاربه الحسية المباشرة في احتكاكه بالوجود والأشياء وليعمد بعدها إلى معنى دقيق لكل النقاط والجزئيات التي يتأملها في الوجود، ولعل في رؤية الكاتب راهيم حساوي للمفتاح كحقيقة قائمة بذاتها وكإشكال موجود في تفاصيل علاقة الإنسان المعرفي بالوجود مساحة رحبة نلتقط عبرها أنفاسنا لنتابع الخوض في سجالات عميقة وراقية من حيث مستوى التنقيب، الأمر الذي أسهم في تحقيق نوع من التماثل والتقابل على مستوى تفسير العلائق بين الأشياء، فالمفتاح هو رمز استحداث الحلول والوقوع في تخبطات دائمة ومرهقة، نستدل من خلالها إلى عالم الشعور بالإبهار الموضوعي، علاقة فتح الباب بالمفتاح بموضوع النجاة من حادث سيارة علاقة شعورية اصطفائية قائمة على الجهد والارتباك والحصول على مقدار كاف من الفرح والاطمئنان فيما بعد الحركة المركزة، ذلك أن الإنسان يمر من خلال احتكاكه بالأشياء ومخاطرته أحياناً

بالحصول على النتائج هو دليل العزم والرغبة المديدة في البقاء على وجه البسيطة، نجاة الكأس الزجاجية من الكسر تجسيد لحقيقة انتماء الإنسان لمقتنياته في الوجود من هنا ظهرت مفاهيم التملك والملكية والاستملاك من خلال إخلاص الإنسان لهذه العقد الشهوانية التي يباهي الإنسان بها على مر حقبه، لذلك أمكن الكاتب أن ينظر للمفتاح كقضية حقيقية يمكن الاتيان بها كنهج شعوري يساعد على استنباط رؤية ممنهجة وجديدة للكتابة، الباب يمثل السياق الذي يعبر به الإنسان عن تطلعاته وطموحاته والمفتاح يمثل ذلك الجهد البشري المتعارف عليه للوصول إلى الهدف.. وعلاقة الإنسان بالكتابة وفق رؤية الكاتب هي علاقة استشعار لجوانب الحياة من نقطة الإحساس ومن ثم بيان دلالته، لذلك يرى في الكتابة استشعاراً تاماً وإطلاق عنان لتصدير جملة اندفاعات ظاهرة وباطنة لخلق الفعل الابداعي، وانسجام وتماه مطلق مع الحدث الذي يقاسيه الإنسان على كامل مساحة شعوره إلى بلوغه لاحتمال تكوين نص مدهش ومعبر، فمشهدية رؤية صورة الكاهنة الفرعونية من ثقب الباب الضيق تجسيد لجمالية معينة، حيث أن تقابلية فتحة الباب ورؤية الإنسان للمشهد المقابل عبر الفتحة دلالة عميقة على مدى إمكانية رؤية الجمال بطرائق مبدعة تعكس حالات الشعور التي يستثمرها الإنسان ليحصد من خلالها أنموذجات رفيعة على مستوى الابهار والدهشة حيث ان ثمة العديد من الحالات التي تجعل الإنسان المتأمل في حالة من قشعريرة وارتجاف مثلاً حينما ينتزع الإنسان خيوط غزل قطنية برؤوس أنامله من لباس صوف حيث يصاب لحظتها بقشعريرة مقيتة تثير جملة الأعصاب وهذا يدل أن ثمة أشياء عميقة مبهمة تستوطن أحداقنا ولا تستسيغها أحاسيسنا ولعل الكاتب راهيم حساوي برع بصورة حساسة وجميلة في رصد هذه المشاهد الجلية المغمورة على مستوى الحديث عنها بخاصة أنه أوردها مسرحاً في نصيه المسرحيين المرعبين من حيث الجمال والدهشة وهما (الرخام) و (أنشودة النقيق)، الرخام من خلال دلالته المعقدة التي تصطك من خلالها الأعصاب، وأنشودة النقيق التي تجعل البطن يشعر بحالة من الاشمئزاز

المركز المرادف لمشهد الضفادع، وقد أبدع الكاتب ها هنا عبر طريقة المقال الذاتي الموضوعي في رصد مشاهد حياتية حساسة وفق سياق تفصيلي ومركب تلفت البصائر إلى قضايا لم يطرقها أحد من قبله على هذه السوية المتقنة والجادة.

دراسة حول قصة الطوفان الأسود
للقاص مامد شيخو

القصة:

لم تشرق الشمس منذ أيام طويلة، وكأنها غادرت هذه السموات التي لم تعد فيها سوى سحب فاحمة ترشق وجه الأرض مطرا أسود يصبغ كل الأشياء باللون القاتم. هذا المطر القاتل للزرع والثمر، وحتى للأعشاب الملتصقة بالصخور، ينهمر منذ أيام لذا انتشرت في أزقة القرية المتعرجة رائحة العفونة، ورائحة روث البقر، وبعر الماعز، لتطغى على رائحة البشر. أقفرت الحقول والدروب، من الناس، ولاذت الحشرات إلى شقوقها، ولم تعد تسمع زقزقة عصفور أو صدى ضحكة تخرج من إحدى زوايا القرية. الكل قلق على مصير بذاره في جوف الأرض، أو ثمار أشجاره التي انتظرها مدى عام، وبهائمه التي قارب علفها على النفاد. في كل صباح يستيقظ العجائز على أمل أن تكون السماء قد ابتسمت لهم أخيرا، لكن سرعان ما يشيحون بوجوههم، ويعقدون ما بين حواجبهم، فيختفي الأمل. القرويون البسطاء كانوا ينظرون بعيون غائبة في الحزن إلى مصير قريتهم» أم صخر » وهي تتهاوى في الهلاك، وكانت قد سميت بهذا الاسم نسبة إلى مكانها المتموضع أسفل صخرة كبيرة على منحدر بين جبلين، لقد فقدت ثوبها الأخضر، وإطلالتها الجميلة وتقلقل نبض الحياة شيئا فشيئا في أوردتها، راح القلق ينخر عقول أهلها بشدة:

ـ إلى متى.. ؟

والآخر يقول بحسرة:

ـ حتى مياه النبعة تلوثت.. إنها نهايتنا !

ويتابع الذي بجانبه دون أن يرفع بصره:

ـ يبدو أنها نهاية سوداء.

لكن » أبو طلحت » هو أشد المغتاظين لأنه أكثرهم أملاكا، لذا فهو

يطلب حلا سريعا، ولايهمه إن كانت معجزة، لتنتشل أملاكه من الضياع، أما الحاج » أ بو ياسين « الذي كان يحاور المختار مباشرة لأنه اعتاد الجلوس على يمينه دائما لكبر سنه فقد كان يقول:

ـ إنها مصيبة وحلت على رؤوسنا يامختار، ففي كل يوم يزداد الأمر سوءاً، وأيامنا باتت على وتيرة واحدة، تبعث الهم والأسى والقلق من القادم، بصراحة فقدنا الأمل.

هنا همهم الجميع:

ـ فقدنا الأمل! نعم..

بهكذا كلمات كانوا يصوّرون عجزهم ومأساتهم كل مرة في مضافة المختار "أبو أيوب" تحت تهديد المطر المستمر الذي ينقر على النوافذ ينذر، ويتوعد، والمختار يرفع رأسه بين الفينة والأخرى ليقول:

حسبنا الله ونعم الوكيل! والأمور مختلطة في رأسه. وفي كل مرة أيضا، كانت تنشب مشادّات، وملاسنات، ونقاشات حادة، تكاد تتطور إلى تلاكم بالأيدي، بين الشيخ عبد الجليل إمام مسجد القرية وجماعته، وبين الأستاذ نادر، معلم أولاد القرية الوحيد وجماعته من الشبان المتحمسين لأفكار الكتب، التي يأتي بها الأستاذ من المدينة

كان الشيخ يجزم بأن هذا المطر القاتل هو لعنة من السماء، أما الأستاذ فهو يصرّ على أنه تلوث بيئي، ومن هذين المنطلقين، كانت تمتد وتتفرع حوارات ساخنة، وكل متحدث من الطرفين كان يُرغي، ويُزبد، وهو يدافع عن مبدئه، وحدقتا عينيه تتوسعان، والشرر يتطاير منهما، والقرويون صامتون، يتأملون من كل هذا خيرا مفضيا إلى حل. ذات صباح استيقظوا على صوت بكاء، ونواح يصدر من أحد بيوت القرية، فهرعوا مستطلعين. كان الصوت ينبعث من بيت «أبو إبراهيم" وزوجته تضع رأس ابنها « سليمان «ذا السنوات العشر على ركبتها، وتبكي، والطفل يئن و يصارع آلامه و أبو إبراهيم يجلس على عتبة بيته يمتص سيجارته، وينفث دخانها بمرارة، محملقاً إلى السماء، وكأنه يحاورها، وعند الظهيرة كان الطفل يحتضر على الرغم من كل محاولات الإنقاذ له فتح الطفل عينيه، ونظر إلى أمه، حاول

أن يقول شيئا، لكن خيطا من الدم تدفق من فمه، وانطفأت عيناه، و سكنت أطرافه، ومات. علا نواح الأم، وبكى أبوه، والغضب يخنقه، وهو يلعن المطر الأسود، الذي اصطحب معه الجوع والوباء، و سلبه فلذة كبده. بعدها كثرت اجتماعات أعيان القرية، وازدادت الخسائر، كما ازدادت الملاسنات، والمشاحنات بين الشيخ عبد الجليل، والأستاذ نادر، بل قيل:

إن شابا من جماعة الأستاذ قد حاول شد لحية الشيخ والنيل من هيبتها لولا تدخل المختار، والآخرين، فطرده الأستاذ لأنه على حسب رأيه خرج عن سلوكهم الذي يدعو إلى الحوار. جرى كل هذا على مرمى نظر "أبو إبراهيم" الذي لم يتمالك نفسه، فإذا به يقفز كالملدوغ، ويركض نحو الباب، وهو يغمغم بكلمات غير مفهومة، وماهي إلا لحظات حتى جاءهم خبر عن نيته الرحيل عن القرية، وبالفعل عند وصولهم إلى بيته كان الرجل وأبناؤه ينقلون الأثاث خارجا وعلى الفور تدخل المختار:

ـ إلى أين يا "أبو إبراهيم؟"

ـ إلى حيث لا يوجد هذا المطر.. ولا الشيخ ولا الأستاذ !

قال ذلك وهو يتابع حمل الأثاث.

ثم تابع دون أن يكلّف نفسه الاستماع لأي كلام:

ـ تبا للقيل والقال.. تبا للكتب والشعارات

ثم توقف وكأنه وجد الكلمات المناسبة التي يودُّ قو لها: تبا للنظريات والمبادئ، يا أخي هاتوا حلا، ثم قولوا ما يحلو لكم، نحن لا نفقه شيئا مما تتفوهون به، ولكن كنا نأمل خيرا، أما الآن فأنا لست مستعدا لأخسر المزيد من أفراد أسرتي، سوف أرحل تاركا لكم كل القرية. وبعد وعود من المختار، وحلف الإيمانات، عدل عن رأيه، شرط أن يفيها المختار في أقرب وقت. ومنذ ذلك اليوم، ظهرت جماعة جديدة في القرية يترأسها أبو إبراهيم شعارها **إما الحلول السريعة، وإما الرحيل عن القرية، لكن النزاعات بقيت على حالها في المضافة، سوى أن كل فريق يحاول أن يكسب أبو إبراهيم إلى صفه. وفي إحدى الصباحات بينما القرية تستيقظ وهي ما تزال تترنح تحت غطائها الأسود، والموت يلفها من كل جانب، ارتفع صراخ أحدهم من الجهة

العلوية من صوب الجبال، وهو يدخل أزقة القرية، فبرزت الرؤوس من الأبواب هنا وهناك، ونبح كلب، وصدر من إحدى الحظائر خوار بقر ة تحتضر، والصوت يقترب مفجوعا يصرخ بجنون:

ـ يا أهالي القرية.. يا مختار.. إنه الموت.. استيقظوا!

جفلت أرواحهم، ركضوا إليه بينما كان الراعي النحيل متوجها إلى المختار:

ـ إنها نهايتنا.. الموت خلفي تماما.

أحاطوا به أمام بيت المختار، وكان قلبه يغلي، ونفسه تفيض بالذعر، والكلمات تقف في حلقه، والزبد يتطاير من فمه، اجتاز المختار الواقفين بخطوات سريعة، وانتصب أمام الراعي يتأرجح:

ـ هدئ من روعك يابني، وحدثنا عن هذا الموت الجديد الذي تصطحب أخباره معك.

لكن الشاب كانت ماتزال أحشاؤه تتلوى من هول مارآه، وفراديس وجهه لا تُفسر تحت الصبغة السوداء، يبدو أنه قد بقي تحت المطر طويلا.

صمت الجميع و ساد السكون قليلا، اللهم إلا لهاث الراعي« هو شان »وصوت المطر الذي يرتطم بالأرض.

كانت قلوب القرويين قد بلغت حناجرهم، وأجسادهم ترتعش، وكأنها تعلن عدم احتمالها المزيد

مزق صوت المختار السكون:

ـ تكلم.. هات ماعندك.

وبدأ هوشان الكلام:

ـ يامختار إنه الموت بعينه، بشرفي الموت الأكيد، يجب أن نرحل، أن نترك هذه القرية الملعونة، وإلا أصبحت قبرا جماعيا يبتلعنا جميعا.

أخذ نفسا عميقا، واستدار نحو القرويين:

ـ الصخرة.. الصخرة الكبيرة، تلك التي هناك بين الجبلين.

وأشار بيده نحو الهناك، فاقشعرت الأبدان، وطارت الأبصار نحو الجبلين، فو قهم، وكاد هوشان ينفجر بالبكاء، ليعبر بالدموع عما شاهده:

ـ الصخرة.. إنها تحبس وراءها بحيرة عظيمة من المياه، بشرفي إنها لن تقاوم دفعها لو استمر سقوط الأمطار أكثر، لأني كنت هناك، وسمعت بأذني قرقعتها، وهي تتقهقر.

وسقط على الأرض وكأنه يقول بذلك إني بلغت وعليكم العمل

توقفت القلوب عن الخفقان، والحناجر عن الكلام، والأجساد تسمّرت و فارقتها الحركة، ونهضت في العيون صورة قرية جائعة متفسخة يلتهمها طوفان أسود، يسحقها بلا رحمة.

وعلى الفور خرّ الشيخ عبد الجليل ساجدا يبكي، ويرفع يديه إلى السماء:

ـ العناية.. العناية.. إننا ضعفاء.

لكنها لطخت وجهه بالصبغة السوداء، جلس المختار القرفصاء ممسكا رأسه براحتيه، يحوقل في خيوط المياه وهي تنساب بين الوحول صامتا، واستند العجوز أبو ياسين إلى جدار المضافة، كانت أسنانه تصطك، وشفتاه ترتجفان، وأنفاسه متقطعة، يبدو عليه أنه يقاوم كي يظل واقفا.

واحتارت نظرات القرويين بين الصخرة، وبين الأعيان، وخلف صفوف الرجال كادت النساء يغشى عليهن، والأطفال يتعلقون بأطراف أثوابهن، ازداد نحيب الشيخ، و علا نشيجه، وراح يمّرغ وجهه بالوحل، انتفخت عروق رقبته، وصاح في الجميع:

ـ اسجدوا أيها العصاة، أقسم إنها لعنة، حلّت عليكم عقابا لكم.

وتمرغ الجميع بالطين، وكل منهم يعدد في سره أخطاءه، ويعتقد أنه هو المسؤول عما يحلّ بالقرية.

وتدخل الأستاذ من جديد:

ـ أيها الجاهل أنت تسلّمهم قرابين للموت، ألا تخجل من نفسك، الآن وقت العمل

هيا أيها الأخوة، لندعّم الصخرة، ونرمّم شقوقها، ونفتح لها مسارب من الجانب الآخر.

أعجب القرويون بهذا الرأي، فنهضوا.

عندما شاهد الشيخ ذلك، حشد جماعته مرة أخرى، وبدأ يدافع عن

موقفه بحزم، واندلع النزاع مجددا، وراحوا يتراشقون النعوت والشتائم، ولكن هذه المرة لم يكتف أبو إبراهيم بالمشاهدة والمراقبة عن بعد. بل انقض عليهم مع جماعته، واشتعل العراك، وراحت الهراوات الغليظة، ترتفع وتنزل، والمختار ما يزال يتنهد:

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل !

لكن ذلك لم يدم طويلا، فلقد سمع الجميع دوي انفجار كبير من الجهة العلوية من صوب الجبال

*الدراسة:

هذه الدراسة تتضمن قصة مثيرة تنحاز للمنهج الانتقادي وتعبر عن نقد مجتمع الوجود من خلال انموذج القرية ومشهد المطر الأسود الذي يتساقط باستمرار على القرية، ليخرب الأرض والمحصول وليؤدي بالتالي إلى احتضار الماشية والدواب واحتضار بعض السكان، حيث نتأمل شخوص هذه القصة لنجد الكاتب مامد شيخو قد غلفها بتساؤلات فكرية جمة تخص الصراع الكبير الذي يتصاعد بقوة على حساب الوجود وتصدعاته وتلوثه، وإلى نظرة الإنسان المتقمص الثابت السلبي للعقيدة المنغمسة في إطار الجامد الخادش لتوازن الفكر، فالصراع الأزلي بين قوى المعرفة المتمثلة بشخص الأستاذ نادر وقوى الجهالة المتمثلة بالشيخ عبد الجليل يتجسد في إطار إيجاد الحل من منطلق المبادئ المنحازة للأصالة أو المعاصرة، أو الثابت والمتحول، للتلوث الذي شارف على إنهاء الوجود المتمثل بالقرية وما العالم سوى قرية صغيرة. في عصر الإنترنيت والخطوط الجوية.. الكاتب مامد شيخو يتحدث عن هذه الظاهرة الكونية على نحو جاد وعميق وبأسلوب قصصي تتوفر فيه كافة مقومات القصة القصيرة، يوغل في الشخوص ويعمد عن طريق الحبكة الحوارية، إلى التحدث عن معضلة التناقض في خضم وجود ينازع في ظل العنف والاحتجاج المعرفي عليه وتجسيده بمثابة التنقيب عن الحل من عرض لطرائق البشر وتصادم اللاشعور الفردي بالجمعي، الذي عم القرية، فالوصول إلى الحل في ظل الكارثة الطبيعية لا يجد نفعاً، فلا يمكن عندها لقوى التغيير من تفادي

الخطر، حيث يكون الوجود عبارة عن سفينة مثقوبة توشك على الغرق وغرق من فيها وهذا ماسيؤول إليه الوجود والبشر إثر حروبهم العبثية وانقساماتهم وتصارعهم الذي جعل الوجود يتجه نحو الخراب، والمطر الأسود الذي داهم القرية هو بمثابة العلامة الكبرى لبداية النهاية والانفجار هو بمثابة النهاية المعلنة، حيث نلحظ شخصية هوشمان من منحى من يتمسك بقشة وسط الغرق، لأجل احتمال النجاة في حين أن المعضلة الكونية أكبر من وضع احتمال الخلاص وسط صراع أهل القرية الدموي الذي نتج عن الخلاف الفكري!! هذه الصخرة التي توشك على الانفجار الذي هو النتيجة المعلنة! لكن الصراع الدامي بين جماعة الشيخ عبد الجليل وجماعة الأستاذ نادر يمثل النتيجة عن تراكم أملاك "أبو إبراهيم" الذي يستشعر بفقدانه نتائج الوضع الكارثي الحالي، وعلى ذلك، فجماعة أبو ابراهيم لا تعارك كلتا الجماعتين لسبب فكري يتعلق برأي كل من الشيخ عبد الجليل والأستاذ نادر وإنما بسبب ضياع الاملاك وفقدان الابن نتيجة وباء التلوث الذي أحاق بالقرية، حيث أن هاتين الفئتين المتمثلة بالشيخ والأستاذ تمثل فكرين متضادين لا يوجدان إلا بدعامة المادة ليستمر هذا الصراع الذي قاد بالنهاية إلى الصراع الشامل، وبالتالي يفني البشر بعضهم بعضاً نتيجة أسباب تتعلق بآرائهم وعقائدهم ويبدأ الوجود بالترهل والانتهاء لينتهي كل من على ظهر البسيطة، وهنا إشارة إلى مقاومة المعرفيين لكل دعاة التطرف لأجل صون الوجود وحمايته من خطر التصدع الجيولوجي والتلوث الذي يهدد سائر الكائنات الحية إثر استهتار الإنسان وحروبه العبثية وأنانيته الجشعة التي قوضت قيم المعرفة والحب، فالقاص مامد شيخو يرى أن هذا التصادم بين أصحاب النظريات لا مبرر له إنما هو إضعاف لأعمال المعرفيين على اختلاف ألوانهم، الأمر الذي يجدر لأجله التمسك بالرابطة المعرفية التي تمثل إحياء الحب وسبر المعرفة، والصراع القيمي بين التيارات كافة ما هو إلا تعجيل لخطر الطبيعة ونهاية العالم، فالكاتب يسعى لبيان هذا الصراع، وتجسيده ليقدم عرضاً حتمياً عميق مستويات هذا الصراع التدميري وتدرجه، بيد أن الصراع الحقيقي يتمثل

بإحقاق الأفضل وهو سينتعش بتمثل المعرفيين لرسالتهم في إعمار الوجود وصونه من مخاطر الحروب والكوارث التي أفرزتها أنانية الجشعين

البعد الملحمي في مجموعة (إلا إليك)
للشاعر محمد بشير دحدوح

في مجموعة (إلا إليك) تساؤلات ملتاعة بالعديد من الرموز التي تحمل عبق مضامين مستمدة من تجليات دينية تراثية صيغت في حياتنا بطرائق تماهينا معها وهذا ما يجسده الشاعر هنا، حيث يوغل ملياً في شتى تفاصيل الفكر الذي نوظفه في سياقات وأطر موغلة في اتساعها وأدب الشاعر محمد بشير دحدوح انعكاس هادئ وقوي، شعري المستوى، حساس التساؤلات، ينفي كل خلل ينم عن الشبهة، جلي من ناحية المضمون والشكل الجديد المؤثر، يكشف عن هواجس إنسانية فكرية تتحدث عن القيم التي ترتكز على أسس خفية مشبعة بالرموز والمفاهيم الدينية والتراثية وهنا نتأمل في مطلع قصيدة إلا إليك: ص8

لا تنتمي إلا إليك
فلا تؤافك أصغريك
فخزائن الأسماء مترعة ومشرعة عليك

ينطلق الشاعر من تمثله بشخصية صحابي اسمه حارثة وحارثة رمز موظف يدل من خلاله الشاعر على العديد من التساؤلات التي تعتري مسيرة الإنسان الحر، الباحث عن أفق رحبة، الانتماء الذي تجسد في النص هو انتماء للذات القادرة على أن تكون النموذج المقتدى على حد تعبير الكاتب عبد الفتاح قلعة جي حيث تكمن نزعة الفكر لدى الشاعر في ملامسته لعمق الرموز وفق مدلولات النص عبر إيقاع شعري يحاكي الحالة التأملية لدى المتلقي ويوسع من مدركات تصوراته نلحظ عبارة خزائن الأسماء التي تنم عن حالة الزخم التي يتجلى فيها المعبود في صميم المخلوق، والفضاء التصويري لدى الشاعر مبهم يعكس نظرة تفحصية تتجلى فيها أنماط الأسطورة والحكاية الشعبية وأثرها على الفضاء المكاني الذي رسمه الشاعر دحدوح عاكساً الطبيعة التي تفيض بغزارة الأفكار والأشكال والقيم الحضارية، إن مسيرة الشاعر تتشكل من خلال كم الاتساع

والرحابة في النص المتبلور في إطار وحدة ثقافية معرفية واعية ومعاصرة تجمع بين الأصالة والانزياح التصويري الحداثوي لتقديم لمحات بنائية يرتئيها برؤيته الخاصة ووفقاً لهذا التوصيف نتذكر رؤية الكاتب عبد الفتاح قلعة جي حين يقول:

إن الأسطورة التي تفترق عن الخرافة وعن الحكاية الشعبية، لها دائماً حقيقتها البدئية الخاصة بها كما أن لها تركيبتها ضمن جغرافية مبهمة أو متبدلة، وزمن دائري غامض مرتبط بحركة الفكر والطبيعة وحقيقة الأسطورة والبعد الملحمي متجلية بأبعادها الفنية هنا حيث يقترب الشاعر من خيوط مفصلية تكشف عن حقيقة الإرث الحضاري الديني المتجسد هنا: ص8

ياحارثة

يا لازباً صلصاله المفتون من حمأ يداري عجزه ضوءاً

تقطع من بساط الليل

تقطر من عيون الكبر هذي القطة العمياء

تخمش في جبين الآنفات مزاعماً براقة كالبدر

إن النص هنا يتجلى بالتنقيب حول حقائق دينية تمتاز بالتماس الجذور الكامنة في مفردة المنادى (ياحارثة)، ثمة وقع متكرر لهذه المفردة كونها عقدة حساسة تتضوع حولها الطاقة الشعرية بألق وقوة ومتانة متجلية بكم هائلٍ الرموز التي تنم عن ثقافة معرفية واحتواء المفاهيم القيمية على صعيد الفهم والإدراك والإيمان، ومن خلال مرورنا الهادف في هذه القصيدة نجد أنها متموجة بتمازجات رؤيوية ملحمية خالية من المباشرة والوعظ التعليمي، والحديث في هذه القصيدة ذو شجن وعمق من ناحية الفكرة وطريقة توظيفها في سياقات مهمة استفادت من طريقة القص القرآني والأقوال التراثية وهي بمثابة محاكاة لدى الشاعر للعمق الهائل المفعم بالولادة والغنى والمفردات لديه تميل إلى المتانة وتنم عن حيوية مفعمة بالتصوير والرقة أحياناً فتكرار الانتماء في مطلع القصيدة وفي منتصفها يشير إلى حدة الحوار وإثارته حيث يعمد الشاعر إلى هذا الزخم في الحوار ليبعد

جو الرتابة والبرود عن قصيدته التي تتوسط الغنائية والملحمية ولتعبر عن هذا التوارد والتناص بدراية وفنية دقيقة وعالية حيث يقول هنا ص9:

يا حارثة
احمل من الأزواج ما يبقي الحياة تضج بالشكوى
وتحفل بالسؤال
واسلك دروب الموج عبر مسارب الضوء الذي يحيي الموات
ويبرئ الخطوات من عرج

إنه يمتلك طاقة سردية متواصلة غير متقطعة تميل إلى الحوار الجذاب لتحقيق الإثارة الفنية على مستوى بيان الفكرة فمفردات "السؤال/الشكوى" تحمل هاجساً معيناً لدى الكاتب وهي حكمة تستدعي منه أن يقف على أطلال حارثة ليسأله ويشكوه، والقطع الشعرية لديه تخلو من المباشرة والسرد الثقيل، يلتمس من خلالها الشعرية الحقة التي لا تخدشها مفاهيم خارجة عن سلطان الشعر والفن الحقيقي، إن الذائقة التي يستمد منها الشاعر متانته وسيطة بين ألوان الحداثة والمتانة التراثية فهو شديد الحذرِ، عابق بلفظة الكلمة ومغزاها القريب والبعيد يخلق صياغات وتشابيه تعبر على سريان الحالة الشعورية بأدق وصف فالصراخ الإيحائي كامن في هذه القصيدة من بدايتها لنهايتها دون برود في النص أو رتابة أو استطراد خارج عن مناخ النص فهو يحقق وحدة القصيدة التي تعبر عن المناخ الواحد الذي تحدث عنه أرسطو قديماً نلحظ في هذا المقطع سياقات تاريخية بالغة فهو يقول ص9:

من جذوة ضحكت هناك
تلمس النور الذي يغدو عصا
شقت مداميك الشقاق
الله أكبر
من بحيرات الضلال تلامعت أسماؤها وعناكب
نسجت بعين الليل هيكلها وساخت في التدلي

إن الرؤية المعاصرة لدى الشاعر في هذه القصيدة قائمة على الخلق

وإعادة صقل اللغة بحيوية تبعث على الإيقاعية المتأصلة بالقيم الموروثة، نلحظ استخدامه للتعابير المعنوية بخيالٍ حسي ظاهر من مثل بحيرات الضلال، تلامع الأسماء، وهذا يؤكد جماليةَ المسعى الجمالي الذي ينتهجه الشاعر في رسم معالم قصيدة ملحمية معاصرة تخرج عن أطر وقيود وأساليب الملحميين القدامى، والبعد الديني يتجلى وفق إيقاع التفعيلة الوسيط بين النظم والنثر وفق رؤية تأملية طافحة بالعمق والتناص فهنا إشارة إلى عصا موسى(تلمس النور الذي يغدو عصا شقت مداميك الشقاق)

وهنا إشارة إلى المسيح(في دربك الآلام مترعة تدمي راحتيك) كل هذا يؤكد على حضور المادة المعرفية في نص زاخر بالمفاهيم الحديثة التي تنقل التراث بوعي معاصر وهادئ، ليؤكد على علاقة الذات بالموروث وعلاقة اللغة بالجذور حسب أنموذج بنائي وهذا مايدعونا إلى تمثل مقولة قلعجي حين يقول:

إن وحدة الأسطورة يمكن أن تكون إحدى مقومات الوحدة المؤدية للتقارب بين الأمم والشعوب ونحن نشير أن وحدة المضامين التراثية والميثولوجية وتماهيها مع النص الشعري كما في تجربة الشاعر محمد دحدوح يخدم الحالة البنائية الفنية الجديدة للنص لأنه يحمل طاقات جديدة تجعل القديم متماهياً وبجمال وفرادة في حضرة الجديد الإبداعي، فاللغة تأخذ مكانتها من مخزونها التراثي الذي يشكل عماداً لأي تشكيل أو ابتكار شعري مؤثر ومتوغل في الغد القادم هذا ماحاولت تجربة الشاعر أن تستخلصه لرصد أطوار جديدة يتماهى فيها المبدع بالأثر وهنا تتحقق الألفة.

دلالات الرمز في أدب
الشاعر أدهم الدمشقي

إن رحلة الشاعر هو تحديد ماهيته في إطار الوجود الكلي، فهو يمهد لتقاطعات مجملها البحث في شؤون النفس في تصديها للضحالة، وهو ينجز في نصوصه الشعرية مسارات رحلته في دوامة الانشغال، نراه يسبر الغور في الموت كحقيقة قائمة تبتدي من خلالها الولادة الطبيعية للكائنات، ومن ثم لترتيب رغبات الحياة في شخص الكائن المؤثر والفاعل، فأدب الشاعر أدهم الدمشقي هو أدب الدلالة وفقاً للرؤى والمنهجية التي يستدل من خلالها للإبداع وفقاً لقراءتنا لمجمل نصوصه التي هي دعوة لاختلاط وتمازج الفنون الأدبية بعضها ببعض من شعر وقصة وخاطرة في إطار تعامل مع نص مفتوح يحرك الانشداه في مخيلة المتلقي والناقد المتتبع، بعيداً عن الانطباع المجاني الذي يرتكز على ثيمة التذوق الخارجي للابداع دون ملامسته عمقاً وإيغالاً، نجد أن النص الذي يقدمه الشاعر نص ملغوم بالدلالات الرمزية التي تعكس ألواناً من القلق والإدراك والتهكم والاغتراب، ضمن دراما فنية تعكس مشوار الحياة الإنسانية في ذات الأديب الباحث عن الصفاء الكلي في وجود متشابك مجهول البداية والنهاية، فليس الغاية من بلوغ ذروة الفن أو الأدب هو خرق المألوف بقدر ما تتجسد منتهى الحالة الإبداعية الشعرية في جعل الفكرة تتصدر قمة التساؤل في طبيعة المتأثر، فالرموز ليست جديدة بمقدار كيفية استخدامها وتوظيفها المتقن ولا معنى لمنظومة اللغة من دون إيغالها لأبعاد وملامح التجربة الإنسانية برمتها لخلق التأثير والإحساس العميق وهنا تتجسد عظمة اللغة وتتضح معالم ذاكرة جديدة وحقيقية، وهذه علامة تحول في مشوار الأدب الخالد، في سياق اللغة ففي قصيدة "سكون" يقول الشاعر: ص20

دائرة مقفلة مثقوبة في الوسط
باسمها يجتمع نقيضان
نحمل أعمارنا، نمشي كعميانٍ على حدود الدائرة

ويسقط واحدنا تلو الآخر في الثقب الفارغ

دلالة الرمز في الثقب الفارغ تفصح عن قلق داخلي في هيئة ثقب محسوس، وهذه الحيرة مختمرة عن وعي بماهية تلك الدائرة التي يتحدث عنها الشاعر الدمشقي ويعتبرها مقفلة، وهذه الدائرة هي الكون والخارطة وتعقيدات البيئة وانعكاسها للفوضى المنكمشة في ذات الأديب في عالم صخبٍ زائف، فحين يتجلى الرمز في دلالة الدائرة التي يحمل فيها البشر أعمارهم هو بمثابة تعريف للانسان الذي يحاول تحقيق هاجس الحلم لكن أعباء الحياة تتراكم في هيئة الدائرة التي تفضي بالإنسان إلى الخواء

ومن هنا أخذ الشاعر هاجساً من نوع آخر، يتساءل: ص26

هل يدري أنه محظور عن التجول في الأماكن المقفرة

وأن الخوف الذي يحوطه، صار دربه إلى الطرقات العامة

حيث أنه عارٍ أمام نظرات الناس وانتقاداتهم

إنه غريب في تصرفاته، مألوفٌ في نبذه؟

إن دلالة الخوف هنا تأكيد على حضور المكان في ذات المتصور القائم كروح خالقة مبتكرة كهذا التجول والمسير نحو المعنى وليس القفز على وتر الغرابة التي تنتهي للعبث، فالسائر عبر الطرقات يكتشف ببصيرة المتأمل هذا العالم الذي يتناقض ويتبدل في تداعياته حيث أن النفس المبدعة لدى الشاعر أدهم الدمشقي طامحة لاستكشاف الدلالة الداخلية من خلال تجربته في ظلال الخوف وحصاره، هنا الشاعر يفصل بين ذاته كعلة وبين الوجود كمعلول داخلي يراود الإنسان المتفجر شظايا مواهب وإمكانات، تتضوع القيم الشعورية في الحالة الإبداعية لتؤلف كلاً لا ينفصل ولا ينفصم في إطار الزمان والمكان لنتأمل أيضاً هنا: ص36

خلت الغرفة لبعلها، علت أصوات الفحشاءتحت عباءة الليل

جيرانه الذين اشتكوا منه، معظمهم أدمنوا التنصت إلى هذه السيمفونية اليومية بلذة

دلالة الفحشاء في هذا المقطع قائمة على حس الاسترسال بإيذاع الصوت وصداه هنا وبطاقة سردية معلنة يستخدم الشاعر أدهم الدمشقي عبارات

قائمة على تفعيل الإحساس بالصورة من جهة وتقديم لوحة مبعثها الألم والخواء الذي يحتج الشاعر على ماهيته في رمزية عباءة الليل، يعكس الشاعر واقعاً اجتماعياً خالياً من دلالات الصفاء والشعور بالتماسك الاجتماعي والتوحد الروحي المادي في بنية منظومة استهلاكية نفعية تتعامل مع المثل كسلع مستهلكة لنتأمل هنا: ص50

التمثال تفكك.. المشانق عارية، في الهواء تلوح لوحدها، والطلاب ينتعلون أحلامهم

يصعدون على بقايا تمثال. خرجت الحافلة ولم تعد الفتاتان العذراوان حتى ذكرى أنوثة محطمة

تفكك التمثال وتحطم الأنوثة في عالم ضبابي يعيش بين الخيبة والانهيار، هذا نهج قائم على ابتكار دلالة التفكك المفضية للموت، لذا فالمتتبع للشاعر الدمشقي يمكنه أن يبحث في الدلالة على سياق عالم المتلقي ورؤيته الخاصة النسبية ليستخلص أشياء تختلف حسب تفاوت مسألة التفاوت مع النص، والانفجار يمثل لحظة وداع للذاكرة والحياة في وطن يتناقل الخراب، لنتأمل قصيدة (لأجل الوحدة): 70

لأجل الوحدة قتلت جميع من أحب، عفوت عن ذاكرتي

منعت الآتي عن الآتي، لأجل الوحدة

صرت أكره الموت، لأنهم أقنعوني يوم كنت طفلاً أننا بعد الموت سنلتقي جميعاً

نجد دلالات مختلفة يتهافت عليها الرمز الغنائي، دلالة الوحدة راكنة في قاع قتل الأشياء الجميلة والبعد عن الانصات لأصداء الحياة من منحى تعاطي الذات مع الآخرين، يدعو الشاعر إلى ذاكرة تتأطر مع الجماعات وليس لأجل تجميدها في قالب ضيق لأن الوحدة في دلالة الشاعر الدمشقي تعني الانزواء وانتظار الموت لنرى هنا في نص (علاقة جدية) ص80

عرفت جميع أنواع الوحدة، أصبحت جميعها تحبني، لكنني حتى اليوم لا أرغب في أن أقيم علاقة جدية مع إحداهن، لأنني أريد أن أظل وحيداً

الوحدة تمثل الكينونة التي يستمدها الشاعر من المرأة التي تشعل في ذات

العاشق روح التملك والشعور بالذنب والوحدة كنتيجة، والوحدة الأخرى هي الوحدة القائمة نتيجة حالات الإحباط واليأس الناجمة عن ضعف الروابط الجمعية والإحساس بالحب والحياة وهي نظرة مبعثها الشعور بالاغتراب الفردي الذي يشكل ظاهرة إنسانية عامة تسود المجتمعات الصناعية والمدن الكبرى المتضخمة التي نسميها بمدن المعرفة لنتأمل: ص102

السماء واسعة والطير نجم أسود في بقعة زرقاء
البحر واسع والزورق نجم أسود في بقعة زرقاء
الكون واسع وأنا نجم أسود في وحدة زرقاء

وهكذا نجد الشاعر يتحد بالزرقة أخيراً كانبلاج من نوع فريد بالصفاء الذي يستشفه ويجد في ذلك الخلاص من خلال مداراته المتدلية في خضم الكون الواسع والبحر الموغل في الاتساع والسماء الرحبة، وهذه الدائرة التي تقبع في كل صفحة أخذت شكل المجموعة وعنوانها القائم على الدلالة الرمزية، وقد تصدرت قمة التساؤل وهي تؤكد مرارة الوجع الإنساني ومشوار القلق المتواصل لدى الإنسان في سعييه وصراعه نحو الأفضل والأبهى فدلالة الأنثى لدى الشاعر مقترنة بالوحدة بعقدة التملك تجاه التعلق بالوحدة من خلال الحب، ورائحة المرأة تدلنا على رمزية الأسى في صفحات الإنسان ومعالمه الضائعة ومشوار الوقت يعكس الرغبة في الطموح نحو انتزاع المجهول باتجاه إدراك المعرفة والفن.

رمزية اللغة في أدب
الشاعرة مرشدة جاويش

تكتب الشاعرة مرشدة جاويش بتماه مع الأشياء الجميلة المحيطة حولها، لسان حالها شكوى الطبيعة والروائح العبقة، ورحلة البحث في أدبها هي في إطار البحث عن الذات الساعية وراء حب الآخر الذي ينصهر في بوتقة الأحاسيس التي تتضوع في القصيدة التي لم تكتب بعد، فهي العقدة التي تلتف حولها الأحلام وتتسع لهول تلك الأحلام حدقات القلب، أدب الشاعرة مرشدة جاويش هو تنقيب جمالي مكثف باللغة، عميق في الإيغال بالحاضر سعياً إلى اكتشاف الأغاني العذبة، حتى لو كان الحلم متأخراً، بذلك فرؤية الشاعرة للكون والأنوثة والحب رؤية متماهية وواحدة تأبى التبعثر والتشظي وفعل الرؤية لديها قائم بكثافة الأشعة الضوئية التي تكسر في النهاية قيود العتمة، في مجموعتها هواجس الحنايا تسعى الشاعرة إلى استحضار الغياب وفق مكنونها الروحي الداخلي لتعبر عن مدى تماهيها بألوان البحر والسماء حيث تجمعهما الأنوثة المتسربلة بفوضى العاشقين عبر نمط من الموسيقى مختلفة ومؤتلفة وفق معيار التناقض الجميل لنتأمل هنا: ص5

كان ما يؤرق غرابتنا
صوتك وهو بصداه
يمسك ألوان قيامتي
ويرشقها
كان على الجدار المقابل لحنيني
نجم يتسربل بفوضى العاشقين

إنها تستخرج مفرداتها الحنينية من بين براثن القطيعة والغرابة، والغرابة تستشعرها الشاعرة من خلال المفاجأة التي تحملها الحياة إليها، إن هذا التماهي مع الرجل ضمن اتصال كامل يأخذ أبعاداً تضج بألوان القيامة وفق هذا التشكيل المادي الروحي، تعتمد الشاعرة رصد البعد المكاني والعاطفي

من خلال الشخصية التي توغل الشاعرة في تأملها وفق رؤية شفافة عميقة ومنسابة في التفاصيل المكانية – الجدار المقابل للحنين – هنا ألفة الإنسان مع المكان فالجدار يصل بنا للحنين وهذا تجسيد راقٍ وعميق لرمزية الجدار في وجدان الإنسان العاشق، لنتأمل هنا: ص7

هل ندمن الفراق ونبتكر له أعياداً
أم نشعل ألف شمعة لعودة النوارس
أراهن أن زمناً للازورد
سيرتكب ما غاب من اللغة عنّا

التساؤل لدى الشاعرة مبهم ومتصل برمزية الفراق وحلوله في ذات الإنسان المتوغل في الحرائق والأحاسيس المنتهكة، لقد اعتمدت الشاعرة مرشدة جاويش الرمز، ابتداع الغرابة، التكثيف التصويري ضمن وحدة النص المتعدد المناخات القائم بتآلفه، لتنسج نصاً عابقاً بمتانة اللغة في توغلها للأشياء وهنا ماذا نعني بالإيغال، يعني أن أدباً برمته يستخلص أزمات الإنسان ونفسه القلقة من خلال تنقيب الشاعرة عن ذلك هاجساً وروحاً وتأملاً، إنها تجتر الكآبات المتقطعة من أجل عودة النوارس، النوارس الجامحة بين الزرقة، زرقة السماء والبحر، إن الطبيعة متأصلة بقوة داخل كينونة الشاعرة وهذا ما يجعل القصيدة بين أناملها تتضوع بعبق اللغة وجمالية التساؤل، إنها تأخذنا لأبعاد وأماكن مجهولة ومستعصية على المرء اللجوج، لأننا هنا نتأمل الحالة التي تستجدي التأني، والتأمل للنص هو إحساس به، وتواصل مع إيماءاته وتماه مع حالته، إن فضاء المناجاة لدى الشاعرة مرشدة جاويش قصي ومليئ بالأحاجي والمفاجآت فهي هنا أنثى تقتات المستحيل لأجل رؤية بناء باسق ومتناسق لنتأمل هنا: ص23

أيا فسحة لذاك الذي يحمل المستحيل
هنيئاً لنا وأنت أتيت وردنا
باسقاً باسقاً
ثم نامت على عطرنا جوقة النار
أو جوقة الخصب

أو ما يسمى العناق الجليل

النص الشعري هنا يحمل طاقة من الحوار الذكي القائم مع المستحيل، هنا الرجل يحمل مزايا التفوق العاطفي الذي يحتوي الهناء المفعم بالراحة، وهذا تجسيد لمتطلبات داخلية لها اتصال بالمونولوج الأنثوي الذي يبعث على الغرابة والافتتان، إنها تأتي حيناً بصيغة الجماعة حين تقول:

- أتيت وردنا - وما الورد سوى تعبير عن الجمال العميق الذي يتجلى بأبهى مفاتنه من خلال العطر، والطبيعة الحية في ذائقة الشاعرة مرشدة جاويش مدعاة لتأمل عنفوان الحالة العشقية في تصاعدها وتوترها نحو الذروة وتشظيها في كون يحمل يحمل جوقة الخصوبة، أدب الشاعرة جاويش منبعه من إيماءات الطبيعة الخارجية ومدى قدرتها على أن تكون انعكاساً للنفسية الاجتماعية التي تحمل هموم المجتمعات الساعية نحو وحدتها الروحية من خلال تعبير التوق الأخير المتجلي في العناق الجليل، وجلالة العناق تعبير يحمل طاقة مضاعفة من التوحد بما يمكن أن نسميه بالوجود الواحد القائم على التوازن الجمالي والعمق الفلسفي الذي نستخلصه من أبعاد التفكير لدى الإنسان المتكامل، إن نصاً قائماً بفوضى الومض وتداعياته لجلي وجذاب يروق للنفسية الساعية إلى استنباط الدلالات الحية في تجربة الشاعرة مرشدة جاويش وقدرتها المفعمة على عقد تقابلات شتى بين الشخصية الباحثة والآخر الغائب والتفصيلات المنبثقة على الفضائين المكاني والزماني جعلا من النص الشعري غاية في التأصل والتألق بأزمات النفس الإنسانية التي تتوق للانعتاق من الاغتراب المزمن لنتأمل هنا طريقة الشاعرة في تجسيد فكرتها وتمريرها وفق هاجس ساحر متوغل في الرمز بتعبير شاف:

هو الحزن يا سيد العارفين
يؤرجح نخلي
و مازلت حتى هبوب النشيد
ورحلة ظني
أمسد جسم الكواكب فيك..

التعبير هنا مختلف يرصد إرهاصات مختلفة، يبرر عظمة الجرح من خلال الحزن الذي يزيل خيارات إيقاظ الأناشيد، فحيث يستدعي الحزن الظن يكمن الإصرار على خلق الجميل دائماً وهذه دلالة على جسامة الحزن وقدرته على أن يزيد الحياة ظنوناً وهواجس ومشقة، رغم ذلك فالشاعرة تجد الحل لهذا التعقيد الذي يفتعله الحزن في طريقها إلى ذاك الرجل، الذي يتصف باليقين والمعرفة والفهم لما يعتري المسافة من مشقة ومطبات وبذلك فهي تؤسس لعشق خام ناضج ومتين، لننتقل إلى مجموعة الشاعرة وصايا الغيم سنستشعر فضاء آخر، يتصف بتجاوزه الحالات المرهصة، تتآلف هذه المجموعة مع الروح المتكاملة الجوانب التي تتوج الأحاسيس المختلفة لأجل بناء آخر يتسع للتشكيلات والرؤى كافة، وحيث أن الشعرية الحقة هو اتصال الرؤى بقيم الحياة، ضمن مزيج متآلف ينم عن اليقين والإدراك في الوجود، تعمد الشاعرة أخيراً إلى تحقيق ذروة شعريتها بنماذج جديدة تتسم بالجاذبية في تناولها للحالة والغرابة في تجسيدها للحدث الفني، والانزياح في جعل اللغة سريالية غريبة تبتدع داخل كينونتها اللغة الشعرية التي هي سليلة اللغة المحكية واللفظية ضمن اللغة التي توجد داخل اللغة القائمة، هذا ما يحققه التوتر الشعري بخاصة إذا كان دراماياً يعكس التجريب، تجريب كافة الأطوار المختلفة للوصول إلى لغة خاصة وأثيرية، هذا التنوع الشعري القائم في مجموعة وصايا الغيم يكشف عن خطا تجربة جديدة لها العديد من الخصوصية على المستوى الفني والجمالي والفلسفي من خلال تنوع التشكيل اللغوي التكثيفي والرصد الطبيعي، حيث أن جمالية الخلق في الشعر هو غاية ما استخلصته التجربة المعاصرة، اعتمادها على اللغة والاستفادة من تقنيات الصعود، هذا كله شكل ما يسمى بالكينونة المعاصرة التي أكدتها الشاعرة في لفتة لها في غلاف مجموعتها وصايا الغيم، ما يلفت النظر هنا في هذه المجموعة ترتيب عناوين القصائد وفقاً لإيقاعيات شعرية متناسقة ومتراصة، فمن التجلي الذي يعكس البحث الخلاق عن لذات القرنفل، التجلي الذي يخط مساره إلى وصايا الغيم وإحدى وصاياه مجسدة في النشيد الذي ظل ينأى، حيث

تعتمد الشاعرة في أسلوبها المؤثر السائر نحو اللغة الوسيطة بين الواضح والفاضح، تجنح أحياناً إلى التحليق بين النار لتصلي في محراب الدم، تنسج ألوان الفتنة في بساتين الغبار، وتعدو نحو ذاك الحبيب لتستشف فيه آيات الروح وتمحو أوهام السلام وما تلبث أن تصغي بهدوء لإيقاعان لأسطورة المطر، وهنا نتساءل هل المطر أسطورة، أسطورة قد تجسد حالات مختلفة عن التساقط والدخول لأيقونة السر الذي يوجز الحديث عن الخيانة وعن الوقت، والهيمان المعتم وأخيراً تنهي الشاعرة مجموعتها بالحصار ولعل الحصار هو إحدى أهم المفاجآت التي تحيط طبائع البشر وطموحاتهم منذ بداية انطلاق التجمعات البشرية لننظر هنا: ص71

لديك.. أنا..
وأنت هناك
هل ظلي يموت هنا
سألتك عن مدينتنا
وعن حلم تغرب بي
فأنزلت الطيور من الوضوح إلى الغموض
ودرت في الكلمات

ثنائية الأنا والأنت، إنها ثنائية لا تزال الشاعرة تجسدها في لحظات يكون فيها للموت الكلمة الفصل، والموت يمثل القفلة التي لا تحتمل التأخر والتأجيل، وبذلك فالمدينة التي تجسدها الشاعرة هنا هي عنوان للحظات مرت كالحلم الذي اغترب، وحديث الشاعرة هنا ذو شجون وحساسية، لقد أزالت الشاعرة قيود الرتابة هنا في نص يحمل طاقة الحوار والخطاب والتآلف مع النص بجمالية تدعو إلى مزيد من الخلق والتآلف، وإلى ذاك الإشراق المتوهج في نص يحمل الغرابة والنشوة معاً، وفق ثنائية الأنا والمخاطب، إشارة إلى المدينة التي تبدو للإنسان الهاجس الأكبر على مسرح الذاكرة والحياة والزمن الذي لا يتوقف، المدينة هي الأسرار التي تتمركز طويلاً في الداخل الإنساني، العشق في وصايا الغيم يأخذ أبعاداً ذات خفايا وشجون يكشف في البعيد الموغل في الجذور لغاية تحقيق التصاعد

في إطلاق الطاقة الشعورية كما في قصائد في الأيقونة لنرَ هنا: ص73

جسدي أنداء الروح
وروحي بشهيات النار
تقول: أحبك

هنا في هذه الومضة القصيرة جل الطاقة العاطفية المتوقدة تستعر في هضبات النار التي تتجسد في السحر الأنثوي والجسد الذي يعج بأسرار الجمال وخفايا الخصوبة ولوعة الإثارة، لذلك تخرج الشاعرة من غمار هذا الوصف المكثف لتجعل من كلمة أحبك الذروة المكملة لهذا الجمال ولتلك الإثارة حيث تقول في موضع آخر بقصيدة "وطنٌ أنا للزرع":

هو لاذعٌ كالجمر أو كالخمر
كم نادى على عطري
وكم في شاطئي
تاهت رؤوس العشب في دمه
وكم يده الشفيفة غاصنت حلمي
وشعت في حريري

الوطن في نص الشاعرة يحمل السؤال اللاذع فتارة يكون الوطن مؤنساً بظل رجل، رجل تتماهى به الشاعرة بمنتهى الإيقاعية، تتداخل فيه عطراً وشاطئاً متماوجاً، الوطن لديها متجسد بالفتنة، الرجل الذي تحمل يده الشفيفة العديد من الآمال والأحلام، تجربة الشاعرة في خضم مجموعة وصايا الغيم العابقة الغائرة بالجرح بالذكرى بالفواجع والأحلام الشفيفة والأخيلة المفعمة بعناصر القوة والجمال والأنوثة المتوهجة المتجسدة بالطبيعة والبحر والسماء والغيوم، ولعل في تجربة الشاعرة مرشدة جاويش في مجموعتها ماء الضياء انقلاب شبه واضح وتجديد آخر يعتمد الإنجاز والبناء، دعوة لتحرير الإنسان من قيود العتمة والاغتراب الداخلي، فمسيرة الشاعرة في ماء الضياء تتجلى بأبعاد جديدة وخلفيات فريدة فهي ترتدي النص الشعري من رأسه حتى أخمص قدميه وتبشر بولادات جديدة وخلفيات فريدة فهي ترسل احتجاجاتها وفق إيقاعيات متقطعة ففي

أقانيم الوقت تتجلى الشاعرة من منحى آخر يبعث على السؤال عن الوقت عن حضور ذاك الإنسان المنفعل المتخبط في هواه القديم، المتشظي لحظة انبلاج الوقت فهي تقول:

كان مثل القصيدة
مثل دمي نافراً بالظلال
وكان بسيطاً..
يخبئ في لحظة الانفعال
طيور السؤال

حضور الشاعرة في هذه المقطوعة دليل امتزاج في الرؤية التي تجمع الظلال النافرة بلحظة الانفعال، إنها في بعض من الحالات تكرر هيمانها وأحياناً تؤرخ تفاصيل لأماكن تقيم من خلالها رؤيتها المختلفة لنتأمل هنا أيضاً: ص19

أين الذي كان يداهمني
كنوارس النعاس
ويرتشفني جرعة جرعة
حين تدنو إلي السماء

هنا تتساءل الشاعرة عن شيء ذهب كالومض من حياتها وبذلك فتهويمات الشاعرة كانت بدافع هذيان شعري متناسق وممتع متأصل بالأشياء وغارق بالعديد من الرموز والفوضى المنتظمة، إنها تؤسس لحالة فنية راقية حين تقول: ص27

إنني والمجاز الذي لا يحد
إلى المحو يمضي
وما أدركته رياحي
أحاول أن أتهجى الذي يتحسس جسم صباحي
وفي لوعة يحتضنني
أحاول أن أسترد من الفقد ضوء جناحي

والعبرة تكمن في محاولة الشاعرة لإيجاد البديل عن ذلك الوجع الرابض

والحيرة الصاخبة، فالموجود الشاعري موجود مسالم، تقوده الهواجس والأفكار حين تتحسس الصباح من خلال استحضار الذات المقابلة تلك التي تغوص في رياح المشاعر وتوغل في الضوء لكي تسترد شهوة التحليق فالشاعرة وفق ماء الضياء دائمة البوح عما يعتري مسيرة الأنثى في الحياة الزائلة التي تجسد الزيف والوقت المسرع، والصباح في عرف الشاعرة وطقوسها تمثل الرؤية الكامنة للحقيقة الشعرية الماثلة في محاكاة أطوار الإبداع وجمالية الخلق والابتكار وروعة الاكتشاف بعد تأن وطول إبحار، تجربة الشاعرة عموماً تنطلق من الرمزية المتعددة الأطوار والألوان التي يذهب فيض منها إلى الثقافة الدينية والقيم التراثية والرمز الذي نتناوله هنا ليس إشارة إلى القيم الأخرى بمقدار ما رأته الشاعرة تعبيراً كافياً عن شيء مبهم، وهنا ننتهي ببيان القول أن تجربة الشاعرة تطمح لتكوين لغة خاصة تؤسس لعالم لا معقول غريب ومألوف وواضح وضوح الغموض في إحجامه عن المعنى بعاديته وبذلك فخطا الشاعرة باتجاه رؤية حداثة يتناولها الرمز الذي يدخل في فلك الانزياح اللغوي لأجل صياغة العالم البديل عن العالم المعيش وفق أنموذج شعري حافل بالخيبات والمعاناة الإنسانية بعيداً عن التجسيم لأن المعاناة هي برمتها معاناة الإنسان وليس المرأة فقط ونظرة الشاعرة للوجود برمته هو نظرة إلى سبل البحث عن طرائق وحلول تساعد الإنسان إلى التواصل مع الشبكات الاجتماعية التي يستقي الفرد منها عوالمه الشعورية والإدراكية ومن هنا فالشاعرة تتطرق إلى الحياة عموماً بروح تميل إلى الجنوح نحو الطبيعة والتصوير والخيال والابتكار الذي يوسع من مدركات الخيال وإلى نقل حصيلة التجارب الإنسانية بصورة واعية تتخطى قيود العقل المجرد ونعتقد كما يبدو لنا أن الرسالة قد وصلت..

عذوبة النص الشعري في أدب
الشاعرة غزال ابراهيم خضر

تكتب الشاعرة غزال ابراهيم خضر، بأسلوب شيق وسلس، دون تكلّف أو تعقيد، أو إيغال في متاهات الغموض، تخاطب المشاعر بطريقة أنثوية تصويرية باذخة بالأحاسيس والصور، المتناعمتين بشكل متقارب ومتكامل ومتسق، شعرها لسان حال الطبيعة والإنسان، تمتهن الشعر كما تمتهن عا زفة القيثارة تمايل الأنامل ضمن الأوتار ثملاً وسحراً، لدرجة تذهل النفس وتحيِرها، ولعل أثر البيئة الخصبة الغنية بالتحولات، أسهمت في خلق اللغة المحبوكة بجماليات المكان وقصص أحزانه، حيث أن تناولنا لعموم تجربة الشاعرة غزال لأمرٌ لا تستطيع الدراسات النقدية القصيرة إيفاءها غرضاً وحقاً، إذ نشير في معرض دراستنا هذه لمنحى خاص، نسلط فيه الضوء على عذوبة النص الشعري الذي يحتفي باللغة الشعرية وذوقها في صياغة أجمل اللوحات الشعرية، بإسلوب يتخلله الأمل والألم والمعاناة وروح العاطفة الأنثوية الجياشة التي تجعل القصيدة حينها، قصيدة إمتاع وتأمل نحو البعيد، إذ تقول الشاعرة في قصيدة بعنوان: (شابة أنفلوا خطيبها)

كفى صمتاً، تعال
وقل إذا ظهرت في السماء
كالملاك في هذا العالم
المملوء بالفقدان مرة أخرى
فأمواج رغباتي الطائشة
حائرة لا تدري
تحتضن أية بحيرة من عينيك
عينك اليمنى أم عينك اليسرى؟

ثمة عمق هائل، وطاقة شعرية رقيقة، مضمخمة بعفوية هادئة ومدركة، تدور في فلك شاعرية حزينة متخمة بالألم والمناجاة، رغم أن الشاعرة الكردستانية تكتب بالكردية إلا أن كلماتها حينما تُرجمت للعربية

لم تنقص تلك الشاعرية بل زادتها شجناً، حيث أن أشعارها المترجمة في غاية الإتقان، نظراً لبساطة الأسلوب الذي تمتهنه شاعرتنا المعرفية وعفوية المشاعر، حيث قلما نجد شعراً مترجماً قد حافظ على حرارته وعذوبته حين ترجمته لعدة لغات بينما حقيقة العذوبة الشعرية لدى الشاعرة غزال كامنة من عفويتها وبساطتها والرمزية الواضحة التي تعكس حرارة العشق في مكنون قصائدها، تلك الخصوبة التي تمنحها الأنثى المبدعة لتصبغ به الأشياء كافة، من إبداع وتجليات روحها، إذ تقول هنا:

كلما غسل الثلج ألوانكم بالأبيض
ونثر أخطاءه عليكم بالأبيض
وما اكترث لوجع الأجساد والزهور والأشجار والأوراق
ساعتها أغادر حياتي
عنوة ولا أحدث أحداً
عن هذا في الأشعار

تكتب عن علاقة المبدع بالآخر، لتجسد لنا مقولة سارتر «الجحيم هو الآخر» الذي تدور في فلكه تساؤلات الحياة ورحلة البدايات وقرب النهايات، حيث للشعر مساحة خاصة لدى الشاعرة، مساحة تبوح فيه بأشياء خارج البعد والغياب والعتاب حين تقول هنا في قصيدة (شعر ونغمة البلبل البيضاء):

عندما تأتي وتجلس على الكرسي
يصبح الكرسي عرشاً لك
وأمامك أحس بالخجل
وعندما تعلق وردة على صدري
وأنا أزرعها على حافة روحي
ودوماً أشمها
وعندما تقرب فمك لتقبلني
وتراقصني كي أشرب من عطشك
وألا أتدارك شيئاً وأذوب أمامك..

وأخيراً لا يسعنا سوى أن نؤكد على سلاسة اللغة وإيقاعيتها العذبة وعمقها لدى الشاعرة المعرفية غزال ابراهيم خضر، وقدرتها على جذب المتلقي بيسر وسهولة، ويرهن ذلك إلى قربها للمعاصرة والتجديد في قصيدة النثر على نحو حقيقي ومعطاء، فالشعر برمته تجسيد للقيم الطبيعية النابعة من تعلق الإنسان المعرفي المبدع بالطبيعة والمحيط، وهذا ما ارتأته إليه الشاعرة لإيصاله للناس بمختلف شرائحهم الثقافية والاجتماعية

منهج الحكمة عند الأديبين
"لقمان محمود" و "وحيد راغب"

مقارنة نقدية

بلا شك فإن جوانب الحكمة ورؤية الإنسان للعالم والأشياء والآخرين لا تنفكُّ عن الفنون والعلوم الإنسانية، حتى قيل قديماً «إن من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحراً» مما يعني أن الفكر لا ينفصل أبداً عن الشعر والصورة الفنية عموماً وهذا ما دعا أرسطو للقول بأن الشعر طريقة تفكير، لذلك فدراستنا، تتناول منهج الحكمة لكل من الشاعر – لقمان محمود – والشاعر – وحيد راغب – حول أوجه التباين والتقارب في منهجهما ورؤيتهما للعالم، وقد اخترنا قراءة ديوان (الجودي) للشاعر وحيد راغب وديوان (وسيلة لفهم المنافي) للشاعر لقمان محمود، ولنتأمل الآن الحالة التي باتت تستحضر مشهدية الصراع الدائر في قلب وفكر الشاعر لقمان محمود حين راح يقول:

تحت رحمة الحرب
السلاح وحده سعيد
لأنه يمنح السلام
للمنتصر

هذا ما قاله العّلامة ابن خلدون حين قال بأن التاريخ يكتبه المنتصرون، فالسلام لدى الشاعر – لقمان محمود – حكرٌ للمنتصر، سلام القوي على الضعيف، سلام الدول المنتصرة في الحرب العالمية الاولى على الدول المهزومة والتي تجسدت في معاهدة (فراساي)، بينما نجد الشاعر – وحيد راغب – ينهج التأمل ليصل لحكمة يبتغيها في حياة تضجّ بالمفاجآت والمآسي حين يقول:

لا تجعل أناملك تتوسل لخدودها
إنما جُعلت للعزف

فإذا نفرت فأنت مخيّر.
أن تروّضَ
أو تتركها للبراري..

فيختار الشاعر وحيد راغب، مسلك الاختيار فتارة تعزف الأنامل نشيد الرغبة بالأمن والسلام، وتارة تغرق بالأنين والتوسلات من خلال انتظار الأمل، وهكذا نحن أمام مقاربتين، تنسجان عباءة للاستغراق والاصطفاء بالكون وحروبه، فالشاعر لقمان محمود يخوض جلجلة الحرب، ويجد في السلام خديعة المنتصر، وسعادته التي تتحقق بالسلاح وحده، بينما يتخذ الشاعر وحيد راغب من المدارة، مداراة الجرح ملاذاً للمتعة، ويقول هنا الشاعر:

-لقمان محمود - في ومضة عنوانها (نداء):

رضيعٌ يُذبح على صدر أمه
يكفي لإغراق البشرية
في نقطة دم

ويقول في ومضة أخرى عنوانها (حقيقة القناع):

توحش الإنسان
عندما اخترع اللباس

نحن أمام ومضتين تضعاننا أمام مفترق نهايةٍ منحدر الألم ما بين دمٍ يراق وتوحش يرتكب من خلال قناع، وما أمرّ الوصف!، بينما الشاعر "وحيد راغب" يتخذ رؤية مناقضة مفادها التحلي بالحكمة والطاعة والشجاعة حينما راح يستغرق متأملاً دورة الزمن قائلاً:

إذا وقع على بساطك التاريخ
فأنت لديك قاطنو الكهوف و"البوسيدوا"[41]:

ويقول أيضاً في ومضة أخرى:

ألم تشعر بصراخ الخشب
حين تدقُّ المسمار

41- آلهة الحكمة والطاعة والشجاعة باليابانية.

نعود هنا للمقاربة والمقارنة بين ألم حاضر ما زال مقيماً في ذاكرة الشاعر "لقمان محمود"، فهو يتخذ من سبر الألم عصا يهشُّ بها على جراحه المتوطِّنة بين الجبال، بينما الشاعر "وحيد راغب" يجد في التأمل والاستجداء بالشجاعة والحكمة سبيلاً لدرء المخاطر، فلغة الشاعر "لقمان محمود" لغة تضجّ بالانفعال والتوتر الشعري على مدار فكره وإرهاصات الداخل ومقارباتها مع الواقع الذي يعيد نفسه في هيئة الحلم القديم والآلام الناشبة في بقاع الأرض.. ولنتأمل الشاعر "وحيد راغب" هنا يقول:

إنهم أصحاب (معصرة الرب)
من يجنِّدون الإله في جيوشهم
ليشرب الدماء
ويقطع رؤوس النخيل
يضعون له الطعام
ويطلقونه في البراري

لنقارن هذه الومضة مع ومضة يجسدها الشاعر "لقمان محمود" قائلاً:

حين انجلت الحرب
بعد ألف عام ونيف
عن الغالب والمغلوب
كان الموت متنكّراً
في ثياب الإسلام

فالشاعر "وحيد راغب" يتحدث عن الحروب التي كان يشنها السلطويون باسم الرب، وهو الأمر ذاته الذي جسده واستدعاه الشاعر "لقمان محمود"، الذي وجد الموت مجدّداً يلتحف عباءة الدين لينشر الدمار والإرهاب. ففي رؤية الشاعر "لقمان محمود" تتجسد دلالات الحياة بصفاتها حيث أبرز الشيء ونقيضه في علاقة التضاد، فيرينا مشاهد البربرية والقتل ويعطي مشهدية أخرى تنطلي على جانب من الفكر والإدراك فيرى الثورة متجسدة أكثر في الخبز، حين يقول:

قام القمح بثورته الأولى

فكان التنَّور
ثم تناسلت الثورات
فكانت الأفران
ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن
يُعتبر الرغيف من أهم المنجزات

فالثورة في فكر الشاعر "لقمان محمود" هي في تحقيق شروط الحياة ورفاهيتها، لا لإعلان القتل وتدمير القيم باسم الاديان، وهنا يقول الشاعر "وحيد راغب" مكمِّلاً اللوحة ومضيفاً إليها لوناً جديداً فيقول:

في طابور الخبز
كان المسيح يقدِّم نفسه
ترنّم في وضح الجمال أنشودة
سمك المائدة كلوا منه
لتعبروا الفتنة

حيث يجسِّد ثوب الأمن والسلام والرحمة خلاصاً من الفتنة والجشع الذي يستولي الإنسان من خلال الأنانية، حيث يؤمن كلا الشاعرين بالتطلع للخلاص والأمن، حيث يعتمد الشاعر "وحيد راغب" على رصيد الثقافة الدينية والتراثية المجتمعية التي تذهب منحى الفطرة الطبيعية، بينما يذهب الشاعر لقمان محمود بالاتجاه البعد التجريدي ليخاطب عقل الإنسان وإدراكه بطريقة تعتمد المكاشفة والإشارة، وكلاهما يرى في الخبز المنجز السلمي الذي يبرز حقيقة المجتمع المعرفي السلمي القائم على الابتكار وتقلد الجمال، ونوجز أخيراً بأن المسعى الرؤيوي لكلا الشاعرين قد تحقق بتكامل في بث منهج الحكمة الذي أسهب في مسائل تخص الحرية والقيم ومذهب السلم، بتباين وفق مؤثرات الجغرافيا والمكان على أدبهما، وفي تلك مغزى يدلنا إلى البنية القيمية لحقيقة الإنسان المعرفي وتنديده للتوحش والصراع من خلال استنهاضه للحضارة الإنسانية..

من إصدارات الدار
في حلب وغازي عينتاب

اسم الكتاب	المؤلف	مادة الكتاب	سنة الإصدار
فوق ألسنة اللهب	د. محمد محمود	رواية	2015
حكايات سورية من زمن الاستبداد	خطيب بدلة وآخرون	قصص	2015
الخاتم الأعظم	زياد كمال حمامي	رواية	2015
ثلاثي المعارضة السورية من الولادة إلى الشيخوخة	مناف الحمد	دراسة	2015
السجين	علي عبد الله كولو	رواية	2015
سورية الخمسينيات	عدنان بدر حلو	دراسة	2015
إمبراطورية العبيد	قصي أبو قويدر	رواية	2016
الخبز الأحمر	قصي أبو قويدر	رواية	2016
بين الخيام	ابتسام شاكوش	قصص	2016
تحت مستوى الوعي	أيمن خالد	دراسة	2016
قبل الميلاد	محمود الوهب	رواية	2016
صرخات الضوء	ريبر هبون	شعر	2016
هدهد في زجاجة	أحمد عمر	قصص	2017
بوح امرأة عطشى	عقاب يحيى	رواية	2017
إنه قمري	شكران حاج درويش	قصة للأطفال	2017
المصاصة العجيبة	شكران حاج درويش	قصة للأطفال	2017
لمسة	شكران حاج درويش	قصة للأطفال	2017
وطن في سوق النخاسة	مصعب الحمادي	دراسة	2017
مقدمات ثورات الربيع العربي ومآلاتها	د. عبد الله تركماني	دراسة	2017
السوريون منبطحاً	خطيب بدلة	قصص	2017
أطياف ورؤى	ريبر هبون	دراسة	2017
يوم اختفى قاسيون	نضال معلوف	رواية	2017
البنية الجمالية في الفكر العربي/الإسلامي	د. سعد الدين كليب	دراسة	2006
دراسات في الحضارة العربية الإسلامية	د. فؤاد المرعي	دراسة	2006
حلب بورتريه بألوان معتّقة	وليد إخلاصي	قصص	2006
فوق . . . تحت	بسّام الرمّال	قصص	2008
مطبّات للذاكرة	إبراهيم عوّاد خلف	قصص	2008

لآلئ من بحور الحياة	رجاء أبو صالح	مشاهدات	2008
الوسواس الخفي	وليد إخلاصي	قصص	2008
أبداً كنت أنا	سعيد رجو	شعر	2008
عفــريــن أواخر الأربعينيات ـ أوائل الخمسينيات	جمعة عبد القادر	مشاهدات	2008
الأحمر والأخضر	الرشيد بو شعير	شعر	2008
القاطرة	الرشيد بو شعير	شعر	2008
المخدوع	الرشيد بو شعير	شعر	2008
موت بو مسلّة	الرشيد بو شعير	مسرحية	2008
الحوار الأخير		رسائل	2008
عهود على صفحات فارغة	أحلام المرعي	رواية	2008
اقتصاد السوق الاجتماعي	مجموعة من الباحثين	دراسة	2009
الفلاحون يروون تاريخهم في سورية القرن العشرين	د. عبد الله حنّا	دراسة	2009
المبادئ الإرشادية للحق بالتجمع والتنظيم في العالم العربي	مجموعة من المؤلفين	دراسة	2009
ثورة الشمال	جودت أبو بكر	دراسة	2009
ما هو الفساد	زياد عربية	دراسة	2009
محمود أمين العالم/مفكراً وناقداً	مجموعة من الباحثين	دراسة	2009
الأسير الحر ـ أبو فراس الحمداني	أحلام يحيى	نقد	2009
المنجد في الكيمياء اللاعضوية	طوم سمعان	معجم	2009
شامة على خد الزمان	مازن دقة	نص درامي	2009
بوح الرحيل	أحلام يحيى	شعر	2009
تمرّد	فروغ فرخ زاد ـ ترجمة علياء الداية	شعر	2009
حياة البوذا	دايساكو إكيدا ترجمة محمود منقذ الهاشمي	دراسة	2011
معجم الآلهة والأساطير	مجموعة من المؤلفين ترجمة د. ألكسندر كشيشيان	معجم	2011
من أخبار الملك مجد الدين أوزون في الدنيا والآخرة	توم سمعان	نصوص	2011
كلام ما لا يستطيع الكلام	زياد كمال حمامي	قصص	2011
هبوط اضطراري (قراءة في صندوقي الأسود)	د. عبد القادر المنلا	قصص	2011
عصفورية	خطيب بدلة	قصص	2011

ذكريات ومواقف (الجزء الثاني)	يوسف الفيصل	مذكرات	2011
الطلقاء يحملون أغصان الزيتون	الرشيد بو شعير	مسرحية	2011
رصاصة واحدة تكفي	حياة شيخ محمد	رواية	2011
الماركسية وأسئلة العصر	عطيّة مسّوح	دراسة	2012
الماركسية من فلسفة للتغيير إلى فلسفة للتبرير	عطية مسّوح	دراسة	2012
الأحزاب والهيئات السياسية السورية خلال القرن العشرين	د. مسلّم الزيبق	دراسة	2012
الصفة معتقل سياسي	محمد كامل مسقاني	قصص	2012
جدار في الجنة	حسن الحسين	قصص	2012
حكم وأمثال كردية من منطقة عفرين	عبدو محمد	دراسة	2012
حكايات تروى في جبل العرب	ثائر زين الدين وفوزات رزق	قصص	2012
السبعينية أول ترجمة عربية للتوراة الإغريقية	خالد يازجي	دراسة	2012
الديمقراطية والنهضة في فكر الشيخ خالد محمد خالد	عطية مسوح	دراسة	2012
سيرة الحب	خطيب بدلة	قصص	2012
انتظار الفراشات	غزوان بزي	قصص	2012
الصمت	محمود الوهب	قصص	2012
نعش واحد وملايين الأموات	زياد كمال حمامي	رواية	2012
قبو رطب لثلاثة رسّامين	مصطفى موسى	قصص	2013
ورد الليل	محمد شويحنة	رواية	2013
أبيض وأسود في الحراك الثوري العربي	حسن إبراهيم أحمد	دراسة	2013
القوميون الاشتراكيون/المأزق والحل	رياض اخضير	دراسة	2013
كائن اليقين	مرشدة جاويش	شعر	2013
أثر غابرييل غارسيا ماركيز في الرواية العربية	الرشيد بو شعير	دراسة	2013
الرواية الخليجية . . . إلى أين	الرشيد بو شعير	دراسة	2013
أنا مع حفظ الألقاب	رائد خليل	شعر	2013
قفوا كي أراني	رائد خليل	شعر	2013
عبور سمعان	جهاد عقيل	رواية	2013
زاوية حادة	فوزات رزق	مقالات ساخرة	2013
سريون (المراثي والمزامير)	سمير طحّان	شعر	2013